سلسلة
الدراسات النفسية والاجتماعية

الجاسوس

(دراسة سسيوسيكولوجية)

د. أحمد عبدالكريم
دكتوراة فى علم النفس

د. محمد عبدالكريم
ماجستير فى علم الاجتماع

دار الإبداع
للصحافة والنشر والتوزيع

سلسلة
الدراسات النفسية والاجتماعية

الجاسوس

(دراسة سسيوسيكولوجية)

د. أحمد عبدالكريم
دكتوراة فى علم النفس

د. محمد عبدالكريم
ماجستير فى علم الاجتماع

الناشر
دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع



اسم الكتاب : الجاسوس (دراسة سسيوسيكولوجية)

اسم المؤلف : د. أحمد عبد الكريم، د. محمد عبد الكريم

تاريخ الطبعة : ٢٠٠٩.

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٣٤٦٨

الترقيم الدولى :٨٧-٦١٢١-٩٧٧. I.S.B.N

رئيس مجلس الإدارة : د/ هدى الكومى .

نائب رئيس مجلس الإدارة : محمد عبد الرحمن بدوي.

المدير العام : أ/ منى عثمان .

مدير التحرير: غادة منصور

مدير التسويق : أ/ أحمد محمد سيد .

مدير المبيعات: عبد العزيز محمد عبد الرحمن

مدير العلاقات العامة : داليا محمود عبد الحميد.

مدير قسم التجهيزات الفنية: محمد أحمد

الناشر

دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

العنوان : ٩٥٣ شارع كورنيش النيل - مصر القديمة.

تليفون : ٢٥٣٢٦٧٤٤ ـ ٢٥٣١٢٣٢١ ـ ٠١٠٦٦٣١٥٨٤ ـ ٠١٠٢٥٩٢٨٧١

Email: darelebdaa@hotmail.com

إهـــــداء

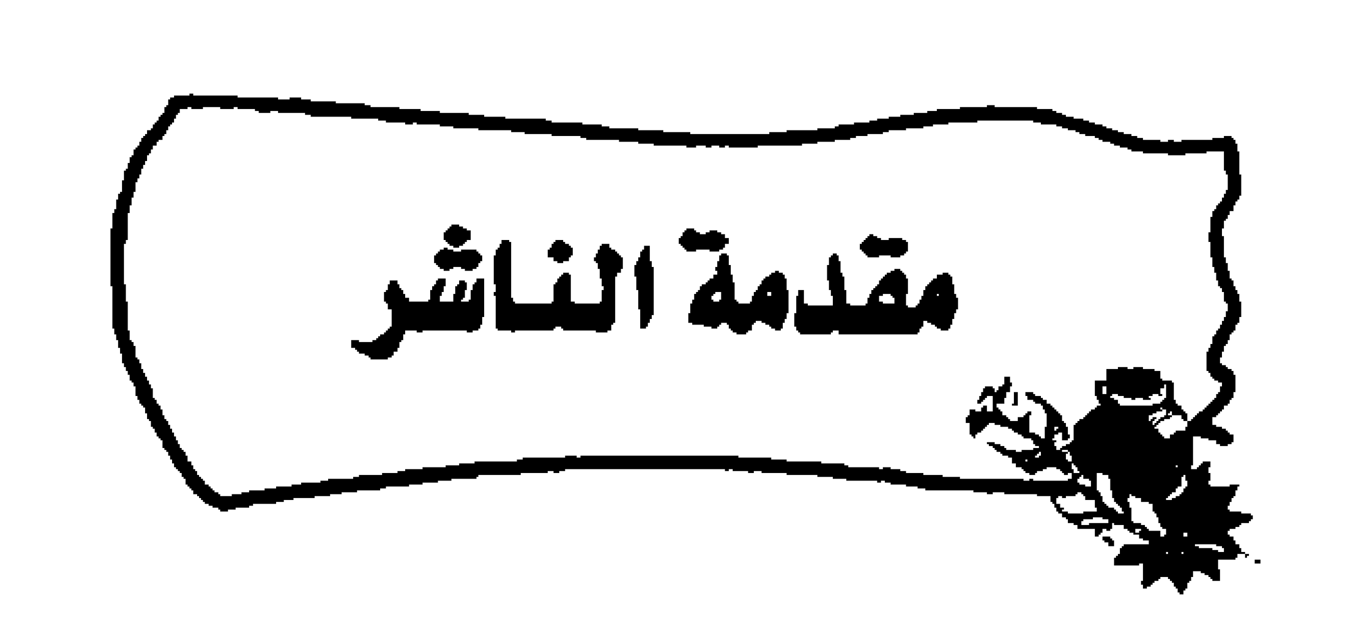
إلى حبيبتي وروح قلبي

RODY

أدعوا الله أن يوفقنا في حياتنا المستقبلية

د/ أحمد عبد الكريم



الحديث عن الجاسوسية والتجسس له تأثير على النفس البشرية، لما للجاسوسية من مكر ودهاء وتأثير على مجريات الصراع، والجاسوس يتسم بسمات معينة يختلف عن باقي الأشخاص وخاصة الجاسوس المزدوج، والتاريخ ملئ بالقصص والحكايات عن الجواسيس لدرجة أن قراءة هذا الكتاب قد جعلتني أكثر حبًا وشغفًا لقراءة أي إصدارات أخرى للمؤلف، حيث أن هذا الكتاب ملئ بالموضوعات الشيقة التي تُسعد أي قارئ للإطلاع عليها .

ومن هذه الموضوعات، الجاسوسية عبر التاريخ، وتطور أساليب الجاسوسية، والأساطير حول الجاسوسية، ومدارس الجاسوسية، وحالات واقعية فعلية حدثت عبر التاريخ، وخاصة التاريخ المعاصر، ولذلك رأت دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع نشر هذا الكتاب.

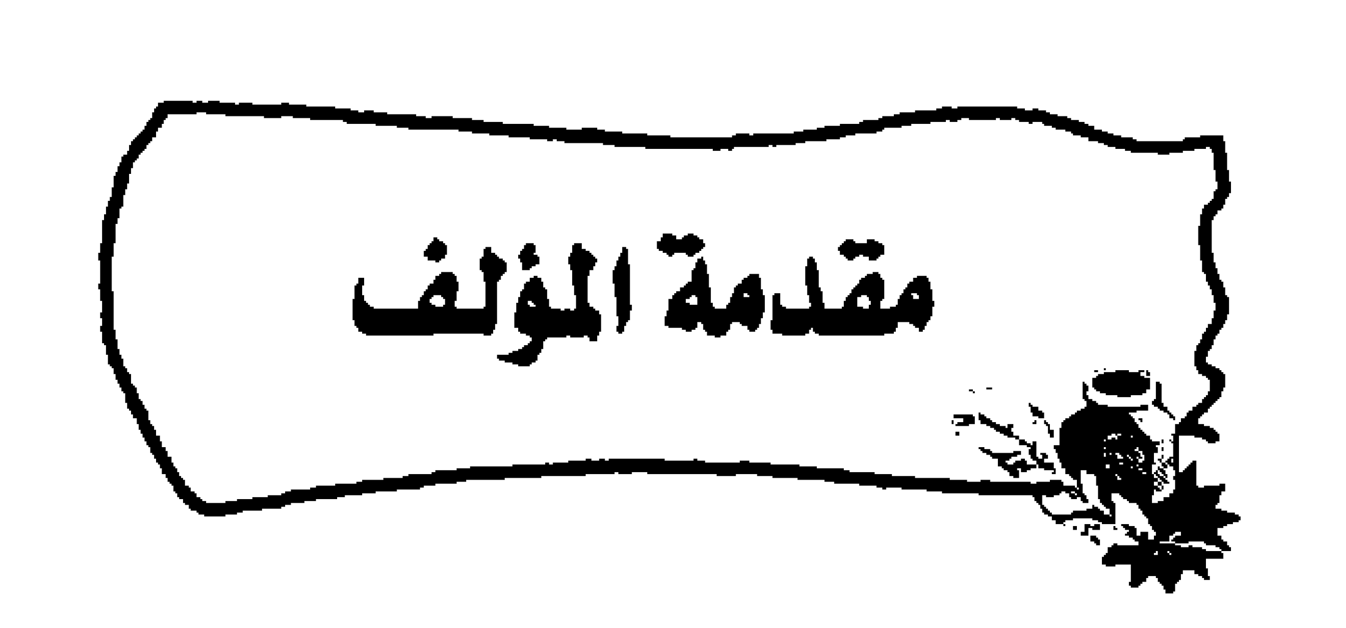
والله ولي التوفيق

د. هدى الكومي

رئيس مجلس الإدارة

محررة عسكرية بالإعلام العسكري

عضو اتحاد الناشرين- عضو اتحاد الكتاب



مقدمة المؤلف

العالم أجمع ملئ بالصراعات والأحداث الساخنة، من حروب وأزمات بين الدول والشعوب، ولكن سألت نفسي سؤال، ما الذي يحرك هذه الصراعات وما هي الأيدي الخفية التي تُدير حركة تلك الحروب والصرعات وبعد تفكير قليل وجدت السلاح الخفي الذي يستخدم على مدى العصور إنه سلاح الجاسوسية الذي أستخدم من زمن الفراعنة والأشوريين والبابليين حتى وقتنا هذا، وتسعى الدول الكبيرة والصغيرة إلى تطوير هذا السلاح الخفي والقوي في نفس الوقت، والذي يستخدم بين الدول المتحاربة والدول المتحالفة على حد سواء.

ولقد تناولت في هذا الكتاب عدد من الموضوعات التي تهم القارئ العام والمتخصص في هذا المجال. من تعريف الجاسوسية والمخابرات والجاسوس المزدوج وماذا تعني كلمة الطابور الخامس.

كذلك تناولت سيكولوجية الجنس وعلاقاته بأجهزة المخابرات ولاسيما جهاز الموساد الذي يحرص على استخدام سلاحين أساسين وهما الجنس والمال وهي أسلحة أساسية يعتمد عليها، لأنهم يتعاملون مع غرائز الجنس البشري، وبالتالي يستطيعون السيطرة على العقول والقلوب.

كذلك تناولت في هذا الكتاب الفرق بين المدرسة الأمريكية والروسية والبريطانية والإسرائيلية في إصطياد الجواسيس.

وتحدثت أيضًا عن وجهة نظر الإسلام في الجاسوسية والتجسس والسمات الشخصية

لمن يقوم بهذه المهمة والهدف منها هو في المقام الأول الدفاع عن الذات وتحقيق المنفعة العامة للبشرية.

كذلك تناولت في هذا الكتاب سيكولوجية الشائعات الإسرائيلية والأمريكية والفرق بينهم والهدف من استخدامها.

وأردت ألا ينتهي هذا الكتابِ بدون التعرض لحالات حقيقية وكيفية استقطابها لصالح الأعداء وذلك للإستفادة من دراسة هذه الحالات في اتخاذ الإجراءات الوقائية لحماية شبابنا وأبناءنا من الوقوع ضحية للجاسوسية والتجسس.

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير لنا ولعامة المسلمين في أنحاء الأرض وأن ينصر الله المجاهدين في غزة.

والله ولي التوفيق

د. أحمد عبد الكريم

القاهرة: الاثنين ٢٠٠٩/١/١٩

٠١٠٦٥٨٦٤٣٣

تعريف الجاسوس

هو الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت شعار كاذب ليحصل على معلومات عن العدو، فى الحرب والسلم ويحصلون على معلومات لتعزيز جبهة الدولة التي يتجسسون لحسابها، في حالة نشوب حرب جديدة ويعملون في الحصول على معلومات عن تطور الأسلحة الحربية في الدول الاخرى وما لديه من تكنولوجيا حديثة.

تعريف المخابرات

المخابرات قديماً كان يطلق عليها المستطلعين أو الجنود المستكشفين أو قناصة الاستطلاع، مهمتهم جمع الأخبار أو المعلومات عن جيش الأعداء وعدته وأماكن تجمعه وتحركه.

تعريف الجاسوس المزدوج

هو الجاسوس الذي يعمل لحساب دولتين في وقت واحد (جاسوس بوجهين) وهو أذكى وأخطر أنواع الجواسيس فلا يمكن ان ينجح في هذه المهمة سوى الشخص الذي يتصف بالذكاء الشديد حتى يستطيع ان يكسب ثقة الطرفين ويخدع كل منهما في نفس الوقت وحياة الجاسوس المزدوج هي رهن لأي خطأ بسيط يقع فيه دون قصد، لكن ما يحققه من أموال يجعله لا يبالي حتى بحياته في سبيل ما يحصل علية.

أصل أسطورة الطابور الخامس

كانت تعني(صيحة الذئب) في تلك الفترة اسمها الطابور الخامس كانت مجرد اسطورة من صنع الوهم، وابداع الخيال كان الطابور الخامس في الحرب العالمية الثانية يتألف من فريق من الخونة، والجواسيس والعملاء.

أول عملية تجسس في التاريخ مخابرات الفراعنة

مارس الإنسان التجسس منذ فجر الخليقة.. استخدمه في الاستدلال على أماكن الصيد الوفير، والثمر الكثير، والماء الغزير، والمأوى الأمين، الذي يحميه من عوادي الطبيعة والوحوش والبشر، وتختلف شدة ممارسة التجسس بين مجتمع وآخر حسب نوع الأعراف والتقاليد، والعادات السائدة، فنراه على سبيل المثال سمة ثابتة عند اليابانيين، حتى ان الجار يتجسس على جاره بلا حرج، فالتجسس جزء من حياتهم العادية داخل وخارج بلادهم، كما ان الشعب الياباني يؤمن بأن العمل في مجال المخابرات خدمة نبيلة، في حين أن معظم شعوب العالم تعاف هذه المهنة، التي لا غنى عنها في الدولة المعاصرة، حتى تقوم بمسئولياتها. فلا يكفي أن تكون الدولة كاملة الاستعداد للحرب في وقت السلم، بل لابد لها من معلومات سريعة كافية لتحمي نفسها، وتحقق أهدافها في المعترك الدولي.

لقد أصبح جهاز المخابرات هو الضمان الاساسي للاستقلال الوطني، كما أن غياب جهاز مخابرات قوي يحمى القوات العسكرية بالفشل في الحصول على إنذار سريع، كما أن اختراق الجواسيس لصفوف العدو يسهل هزيمته.

ولعل هذه الغاية هي التي أوعزت إلى الملك (تحتمس الثالث) فرعون مصر بتنظيم أول جهاز منظم للمخابرات عرفه العالم.

طال حصار جيش (تحتمس الثالث) لمدينة (يافا) ولم تستسلم!

عبثا حاول فتح ثغرة في الأسوار.. وخطرت له فكرة إدخال فرقة من جنده إلى المدينة المحاصرة، يشيعون فيها الفوضى والارتباك، ويفتحون مايمكنهم من أبواب.. لكن كيف يدخل جنده؟؟

اهتدى إلى فكرة عجيبة، شرحها لأحد ضباطه واسمه (توت)، فأعد ٢٠٠ جندي داخل أكياس الدقيق، وشحنها على ظهر سفينة اتجهت بالجند وقائدهم إلى ميناء (يافا) التي حاصرتها الجيوش المصرية، وهناك تمكنوا من دخول المدينة وتسليمها إلى المحاصرين.. وبدأ منذ ذلك الوقت تنظيم إدارات المخابرات في مصر والعالم كله.

ويذكر المؤرخون أن سجلات قدماء المصريين تشير إلى قيامهم بأعمال عظيمة في مجال المخابرات، لكنها تعرضت للضعف في بعض العهود، كما حدث في عهد (منفتاح) وإلا لما حدث رحيل اليهود من مصر في غفلة من فرعون.

وتجدر الإشارة إلى أن (تحتمس الثالث) غير فخور بأنه رائد الجاسوسية، فكان يشعر دائماً بقدر من الضعة في التجسس والتلصص ولو على الأعداء، وكأنه كان يعتبره ترصداً في الظلام أو طعناً في الظهر، ولو كان ضد الأعداء، مما جعله يسجل بخط هيروغليفي واضح على جدران المعابد والآثار التي تركها – كل أعماله، من بناء المدن، ومخازن الغلال للشعب، وحروبه، أما إنشاء المخابرات فقد أمر بكتابته بخط ثانوي، وأخفاه تحت اسم (العلم السري) مفضلاً أن يذكره التاريخ بمنجزاته العمرانية والحربية والإدارية، وما أداه من أجل رفاهية شعبه، دون الإشارة إلى براعته في وضع أسس الجاسوسية.

ثاني عملية تجسس في التاريخ

إن اغلب الناس يظنون ان ظهور الجاسوسية بدأت في التسعينات أو على الاقل في الثمانينات..لكن الذي لا يعرفونه هو ان الجواسيس معروفون منذ اقدم عصور التاريخ..وعلى وجه التحديد منذ عرفت الحروب.. فقد اصبح التجسس عملية معترفاً بها..وقد ورد أول قصه للجواسيس، رواها التاريخ المكتوب في التوراه: كان موسى قد

قاد الاسرائيليين حتى خرجوا من مصر، ثم توقف بهم في منطقة مجدبة وكان « يهوا – أي الله – » هو الذي نصح موسى بأن يبعث بجواسيس إلى ارض كنعان (فلسطين)، فإختار موسى بنفسه جواسيسه وكانوا يتكونوا من رجلاً واحداً مس كل قبيله، وأظهر موسى تقديره لأهمية البعثه حين اختار الرجال البارزين من قادة القبائل، وحين زودهم بتعليمات كثيره دقيقه..

يقول الكتاب المقدس: « ثم كلم الرب موسى قائلاً »:

- ارسل رجالاً ليتجسسوا ارض كنعان، التي أنا معطيها لبني إسرائيل، رجلاً واحداً لكل سبط من آبائه ترسلون.

« فأرسلهم موسى ليتجسسوا ارض كنعان، وقال لهم:

- اصعدوا من هنا إلى الجنوب، واصعدوا إلى الجبل، وانظروا الارض ما هي. والشعب الساكن فيها، أقوي هو أم ضعيف، قليل أم كثير. وكيف هي الارض التي هو ساكن فيها، أجيده أم رديئه. وما هي المدن التي هو ساكن فيها، أمخيمات أم حصون. وكيف هي الارض، أسمينة أم هزيلة، أفيها شجر أم لا. وتشددوا فخذوا من ثمر الارض».

ولا ينتظر من أي رئيس ضليع في الجاسوسية الحديثة، أن يصدر إلى جواسيسه من التعليمات ما يفوق التعليمات التي اصدرها موسى في سنة ١٤٠٠ ق. م وإن كان الامر يتطلب بطبيعة الحال شيئاً من التعديل والتبديل، يتناسب مع تغير الظروف وتطور الحضارات.. لأن الواقع ان تعليمات موسى غطت الأمور الجوهرية في مهمة أي جاسوس..

بل ان تنظيمه للعمليه كان يدل على ذكاء.. فلا شك في ان المعلومات التي تأتي بها عدة مصادر، تفوق في القيمة والدقة ما يأتي به مصدر واحد.

وعاد جواسيس موسى ليقولوا:

- إن كنعان ارض يتدفق منها اللبن والشهد، وإن كان سكانها من العمالقة الجبابرة الضخام. وبعد ٤٠ عاماً قضاها الإسرائيليون في تردد وتوجس، تغلبت الرغبة في اللبن

والشهد على الخوف من الجبابرة، بتأثير جاسوسين معينين هما (كالب ويوشع) وكان أن تقدم الإسرائيليون ودخلوا فلسطين.

كانت هذه هي ثاني قصة جاسوسيه في التاريخ.. ومن بعدها توالت العمليات..

أصول الحرب وصن تزو

يعتبر (صن تزو) رائد الجاسوسية الصينية، ولا يعني ذلك أن الصين لم تعرف الجاسوسية قبل عام (٥١٠ ق.م) فعمر الجاسوسية في الصين حوالي ٢٥٠٠ سنة، لكن الفضل يرجع إلى (صن تزو) في تكوين أول شبكة مخابرات كاملة في الصين. ألف كتابا عنوانه: (أصول الحرب)، وهو أقدم كتاب عرف عن فن الحرب عموماً، وما يزال مطلوباً للقراءة في أكاديميات عسكرية كثيرة، استفاد منه (ماوتسى تونج) في زحفه الطويل، وطبقه اليابانيون قبل مهاجمة (بيرل هاربور) وهو كتاب شامل مفيد حتى أن قيادة الطيران الملكي البريطاني وزعته بعد تبسيطه على ضباطها في (سيلان) أثناء الحرب العالمية الثانية.

كرس الكتاب جهداً كبيراً لإيضاح أهمية الجواسيس، وطالب بتقسيمهم إلى خمسة أقسام:

* جواسيس محليون: مواطنون محليون يتقاضون مكافآت على المعلومات.
* جاسوس داخلي: خائن في صفوف العدو.
* جاسوس محول: عميل أمكن إقناعه بتغيير.
* جاسوس هالك: عميل اعتاد تزويد العدو بمعلومات زائفة، من المحتمل قتله فيما بعد.
* جاسوس باق: مدرب، يعتمد عليه في العودة من مهمته بأمان.

ولد (صن تزو) في ولاية على مصب النهر (الأصفر) لكنه أمضي معظم حياته في خدمة (هو - لو) ملك ولاية (وو) المجاورة.

قاد (صن تزو) جيش (هو - لو) واحتل مدينة (ينج) عاصمة ولاية (تشو) غربا، وزحف نحو الشمال مكتسحاً جيوش مقاطعتي (تشي) و(تشين).

يعتقد (صن تزو) بأن شن حرب بطريقة اقتصادية، مع الدفاع عن البلاد ضد الآخرين، يتطلب ضرورة استخدام نظام تجسس دائم، يرصد أنشطة الأعداء والجيران على السواء، وأكد أهمية التقسيم المذكور، وضرورة اعتبار الجاسوسية عملاً شريفاً، وملاحظة استمرار تقريب العملاء من زعمائهم السياسيين والقادة العسكريين.

أوصى (صن تزو) في كتابه بحسن معاملة العملاء المحولين، ومنحهم المسكن المريح، والعطاء الجزيل بين الحين والآخر، لأن هذا أدعى إلى تثبيت ولائهم، بل وإغرائهم بمحاولة استمالة زملائهم ورؤسائهم السابقين، خاصة الذين يستجيبون منهم للرشوة بسهولة.

هانيبال القرطاجي

كان (هانيبال) قائداً عبقرياً ولوعاً بمفاجأة أعدائه وإشاعة الفزع في صفوفهم، معتمداً في حروبه على التجسس.

قاد حملة عبرت مضيق جبل طارق وانتصر على الأسبان عام (٢٢٠ ق.م)، واتجه شمالا إلى جنوب فرنسا، وتسلق جبال الألب من الشمال إلى الجنوب رغم قسوة البرد القارس الذي فتك بكثير من الجنود والفيلة التي كان يستخدمها في حروبه، وهبط إلى سهول إيطاليا، محطماً كل جيوش الرومان التي تصدت له، ويقدر ضحايا هذه الحرب من أعدائه بثمانين ألف جندي من المشاة والفرسان.

أثناء غزو (هانيبال) لجزيرة (صقلية)، تعذر عليه الاستيلاء على إحدى المدن رغم الحصار الطويل، أراد أن يعرف سر قوة المدينة ومنعتها. فأرسل أحد رجاله فدخل المدينة وادعى أنه جندي مرتزق، وعرض خدماته على حاكم صقلية وأقام في المدينة يتجول فيها، ويدرس تحصيناتها وخطط الدفاع عنها، ويرسل الإشارات إلى (هانيبال) عن طريق الدخان المتصاعد من نار يوقدها لطهو طعامه فوق تل المدينة، دون أن يفطن إليه أحد.

وفي تقدمه نحو روما، كان يمهد طريق النصر لجيشه، بجيش آخر من الجواسيس، يجمعون له المعلومات من وادي نهر (البو) وسهول الألب السفلى عن القوات، ومعنويات الناس والجيش، وخصوبة الأرض، وأنواع المحاصيل، ثم يضع خططه الحربية على ضوء مايتوافر له من معلومات.

سيبيو أفريكانوس (قاهر الفيلة)

اكتسب (سيبيو) شهرته من كونه القائد الوحيد الذي انتصر على (هانيبال) وفي عقر داره. ولذلك كرموه بلقب (أفريكانوس)، وهو مدين بهذا الانتصار إلى جواسيسه.

كانت مشكلته في مواجهة جيش (هانيبال) تنحصر في الفيلة التي يستخدمها كسلاح مدرع كاسح. ولكي يتغلب (سيبيو) على مشكلة الفيلة أرسل جواسيسه إلى معسكر (هانيبال) حيث اختلطوا بسياس الفيلة، وعلموا منهم أن نقطة ضعف الفيل تكمن في شدة انزعاجه وفزعه إذا سمع أصواتاً مدوية.

فلما التقى الجيشان، أحدث جيش (سيبيو) ضجة هائلة بالطبول، فساد الذعر والارتباك بين الفيلة، وفقد جنود (هانيبال) السيطرة عليها، وانتصر (سيبيو) عام ٢٠٣ ق.م.

وفي حملته ضد (سايفاكس) ملك (نوميديا) حليف (هانيبال)، أرسل أخاه (لاليوس) مبعوثاً ظاهره التفاوض على الهدنة، وباطنه التعرف على إمكانيات العدو، وأرسل معه ضباطاً متخفين في ثياب عبيد حتى لايشك فيهم (سايفاكس) لكنه تفنن في إبعاد (لاليوس) ورفاقه عن تحصينات معسكره، فأوعز (لاليوس) إلى رجاله بوخز الخيل التي معهم كما لو كانت حشرة لدغتهم.

ولما صهلت الخيل خائفة راح رفاق (لاليوس) يطاردونها بطريقة طافوا معها في أرجاء المعسكر، وتعرفوا على نقاط الضعف والقوة، وفشلت مفاوضات الهدنة فهاجم (سيبيو) المدينة وأشعل في تحصيناتها النيران، وأرغم (سايفاكس) على الصلح.

يهوذا الإسخريوطي

استتر عيسى - عليه السلام - وحواريوه في البستان ليمضوا فيه الليل - وفجأة شق

السكون صوت أقدام، وظهرت مجموعة من الرجال شاهرين سيوفهم.. ووقفوا على بعد خطوات.. وتقدم (يهوذا الاسخريوطي) من السيد المسيح، عانقه، وقبله قبلة الرياء المسمومة والتي لم تكن سوى الإشارة المتفق عليها بين (يهوذا) والجند، للإرشاد إلى شخص المسيح..

ترى ماالذي دفع (يهوذا) إلى ارتكاب أبشع خيانة عرفها التاريخ؟؟...

كرس (عيسى) – عليه السلام – كل جهده لدعوة الناس إلى الفضيلة، والسعي إلى رد اليهود عن ضلالتهم، وإلى اتباع شريعة (موسى) السمحة، التي حرفوها، ونهاهم عن تركيز الاهتمام في جمع المال، وكانوا قد حضوا الفقراء والمحتاجين على تقديم مايملكون من نذر يسير إلى صندوق الهيكل، ليتدفق الذهب إلى خزائنهم.

وكان من اليهود طائفة أنكرت القيامة، واستبعدوا الحساب، وكذبوا الثواب والعقاب، ومنهم طائفة أخرى انغمست في الملذات والشهوات.

لم يترك (عيسى) – عليه السلام – سبيلا لهدايتهم إلا سلكه، لينتشلهم من وهدة الضلال.

وشعر كهنة اليهود بخطر انفضاح أسرارهم وزوال دولتهم، فثارت ثائرتهم، وقلبوا علية ولاة الروم، وصوروه لرجال السياسة مؤلبا للجموع، مثيراً للفتن، منافساً للحكام.

وتحالف الكهنة والساسة ضده.. وشوا بالمسيح عند (بلاطس النبطي) الحاكم الروماني. رموه بالسحر، واستطاع (كيافاس) كبير الكهنة اليهود إقناع الحاكم بأن انتشار دعوة (عيسى) سوف يؤدي إلى زوال حكمه وتقويض سلطانه.

ونعتوه بأنه كافر بدينهم، وأجمع الكل على التخلص منه.

بثوا من حوله العيون لرصد تحركاته والإيقاع به ثم قتله. وبذلوا الوعود بالأموال والأماني عن الناس، حتى لايثير قتله ثورة. ومما يؤسف له أن يستجيب لغوايتهم (يهوذا الإسخريوطي) أحد حوارييه الاثنى عشر... دلهم عليه وتقدم الجند نحوه ليقبضوا عليه

لكن قدرة الله تجلت فأنجاه من كيد الكائدين.

أخفاه سبحانه وتعالى عن أعين الناظرين، وأوقع أبصارهم على رجل شديد الشبه بالمسيح.. انقضوا على الرجل الشبيه بوحشية، فانعقد لسانه من الخوف والفزع ولم يستطع الكلام.. وصلبوه فوق جبل الزيتون.. ولم يكن ذلك الرجل المجهول سوى (يهوذا)، الجاسوس الخائن..

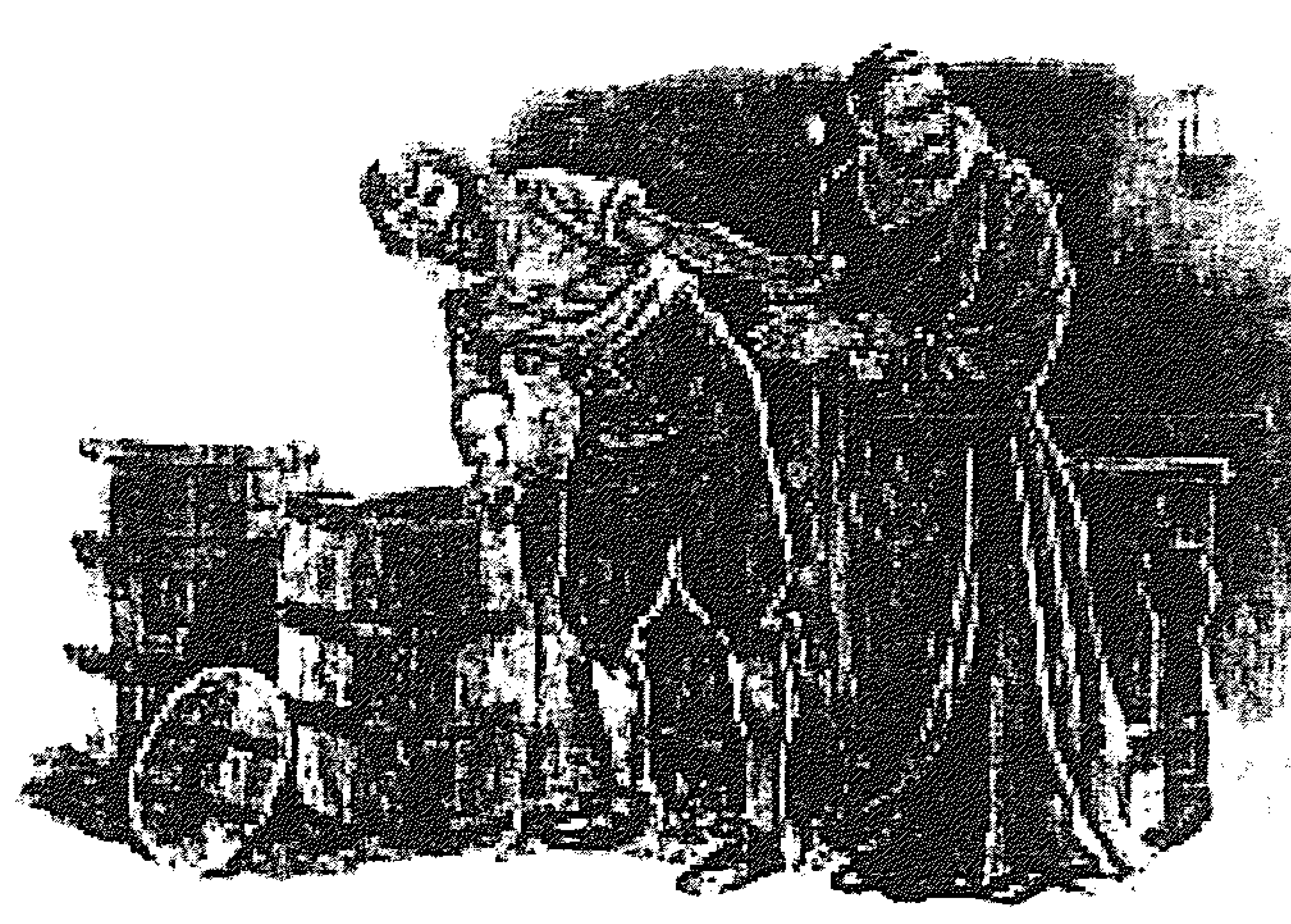
ولكن ما الذي دفع (يهوذا) إلى ارتكاب هذه الخيانة التاريخية؟؟

يعتقد البعض أنه تجسس ووشى بمعلمه من أجل المكافأة المرصودة رغم تفاهتها.. ومقدارها ثلاثون قصعة فضية.. ويرى البعض الآخر أن إرادة الله جعلت من (يهوذا) عبرة لعل الناس به يتعظون ويحذرون.

كما ورد في التوراة عن (عمليات المخابرات) وفيه يطلب الرب من الانسان ان يسأل المعلومات في التو واللحظة، فعندما كان موسى في البرية مع بني إسرائيل، الهه الرب ان ينبه رئيس كل قبيلة من قبائل إسرائيل ليتجسس على ارض كنعان (فلسطين) التي كان الرب قد عينها لتكون وطناً له، وقام موسى بتزويدهم بالمعلومات وطلب منهم أن يروا البلاد، ويتعرفوا عليها وعلى سكانها وما إذا كانوا أقوياء أو ضعفاء أو قلة أو كثرة، وسافرالرؤساء وامضوا في مهمتهم أربعين يوماً وعندما عادوا قال لموسى وهارون ان البلاد تفيض باللبن والعسل وعرضوا عليها بعض فاكهتها من عنب ورمان وتين، وقال آخر ان سكان هذه البلاد أقوى من بني إسرائيل وقال ان رجالاتها ذوو قامات طويلة، وان مدنهم تحيط بها الأسوار المنيعة وتململ بني إسرائيل محتجين على موسى وهارون فقرر الرب ان يضربوا في البرية زهاء أربعين عاماً نظراً لقلة ايمانهم أي سنة في مقابل كل يوم امضاء الجواسيس في تلك البلاد.

❋ ❋ ❋

تاريخ الجاسوسية



تعد الجاسوسية مهنة من أقدم المهن التي مارسها الإنسان داخل مجتمعات البشرية المنظمة منذ فجر الخليقة.. وقد مثلت ممارستها بالنسبة له ضرورة ملحة تدفعه إليها غريزته الفطرية للحصول على المعرفة ومحاولة استقراء المجهول وكشف أسراره التي قد تشكل خطراً يترصد به في المستقبل.. ولذلك تنوعت طرق التجسس ووسائله بدءاً من الاعتماد على الحواس المجردة، والحيل البدائية، والتقديرات التخمينية، والانتهاء بالثورة التكنولوجية في ميدان الاتصالات والمعلومات.. وعلى مر العصور ظهر ملايين من الجواسيس، لكن قلة منهم هم الذين استطاعوا أن يحفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ، بما تمتعوا من سمات شخصية فريدة أهلتهم لأن يلعبوا أدواراً بالغة التأثير في حياة العديد من الأمم والشعوب. وسنستعرض لكم أحداث لم يعرفها أكثركم من قبل.. والتي ستمضون في مغامراتها المثيرة والممتعة عبر دهاليزها الغامضة، لتتعرفوا على أدق التفاصيل والأسرار في حياة أشهر الجواسيس والخونة من خلال العمليات التي قاموا بها..

المخابرات في التاريخ

قبل الميلاد

المخابرات عند المصريين القدامى: لقد أبدع المصريون القدامى في مجال الاستخبارات احتوت على أعمال عظيمة في الاستخبارات ففي سنة ٣٤٠٠ ق.م — ٣٦٠٠ق.م استطاع احد ضباط الاستخبارات المصرية القدامى يدعى (توت) ان يرسل مائتي جندي مسلحين ضمن أكياس القمح على ظهر مركب إلى مدينة يافا التي كانت محاصرة من قبل المصريين ولما استقر المركب في الميناء خرج الجنود واستولوا على المدينة ثم قاموا بتسليمها إلى الجيش المصري المرابط ولم يكن من المستطاع لهذا الجيش ان يدخل المدينة لولا جهود رجال الاستخبارات المصرية الذين تمكنوا من دخولها وهم متخفون داخل أكياس القمح.

في تاريخ المخابرات:

كانت مصادر المعلومات في قديم الزمان فيما كان الانسان يؤمن بتدخل القوى الخارقة للطبيعة في شؤون الناس تتشكل من الكهنة والعرافين والسحرة وكانوا يوهمون الناس بأنهم على صلة بالآلهة حتى يحصلوا منهم على معلومات وكان الإنسان يلجأ اليها لمعرفة قصدها عن طريق السحر، والمعرفة وكذلك عن طريق النجوم والأحلام ومن ثم انتشرت الكهانة في الديانات القديمة وصار رجال الدين مصدر للتنبؤات التي تستهدف حل مشاكل الإنسان.

* الكتابة المصرية القديمة (الهيورغليفية) كانت أصعب كود، احتار العلماء في حله، وهي مكتوبة على جدران المعابد المصرية التي تنطق بآلاف الرسائل حول الاستخبارات والمعلومات.

المخابرات عند الاغريق:

يذكر المؤرخ الاغريقي(هيرودوتس) قال ان احد الامراء في العصر الاغريقي قام

بإرسال رسالة سرية بطريقة غاية في الغرابة حيث قام بقص شعر أحد العبيد لديه ثم طبع الرسالة المراد توصيلها على جلدة الرأس بطريقة الوشم. وكان العبد ينتظر حتى ينمو شعر رأسه من جديد لتختفي الرسالة ثم ينقلها للطرف الآخر. الذي يقوم بقص شعر العبد مرة أخرى ليقرأ الرسالة.

المخابرات عند الآشوريين:

كان لجهاز المخابرات والتجسس اهمية كبيرة وكانت منتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية الآشورية وفي مدن الأعداء في زمن (شرجون الثاني سنة ٧٠٥ - ٧٢٢ ق.م) وكان يطلق عليهم باسم المستطلعين أو الجنود المستكشفين أو قناصة الاستطلاع، وهؤلاء موزعين في مناطق الأعداء وكان يرأس الاستخبارات الآشورية حاكم إحدى المقاطعات أو ممثلو عن الملك وكانوا دائماً على اتصال مع قادة الجيش لتلقي الاوامر والتعليمات وقد استخدموا في حالة الحرب، والسلم وكانوا حريصين أشد الحرص والكتمان على توفير الامن لقطاعاتهم العسكرية، وتجميع اكبر عدد من المعلومات الممكنة عن الأعداء لكي تساعدهم على تجنب المخاطر ويرسم الخطط العسكرية، وكان المخبرين الآشوريين يحملون رسائل حساسة بين الملوك وحكامهم، وكانوا من الأشخاص الموثوق بهم إلى درجة عالية الا انه يجب ان يكون اميناً وشجاعاً ومخلصاً وكانوا مدربين على نقل الرسائل العسكرية بين قادة الشعوب وعدم تزوير الرسالة أثناء نقلها، عمد الملوك الآشوريين إلى ختم رسائلهم بالخاتم الملكي الخاص، وبعض الاحيان يغلفون رسائلهم بأغلفة وطنية لكي لا يتمكن شخص من قراءتها وأحياناً كان المخبرون يحملون نص الرسالة، حيث يحفظونها وينقلوها شفوياً وذلك للحفاظ على سرية المعلومات في حالة وقوعهم في أيدي الأعداء.

المخابرات عند المغول (امبراطورية جنكيز خان):

قامت مستحدثات عسكرية مليئة بالجرأة لقد استخدم المغول الجاسوسية للحصول على المعلومات اللازمة لشن حملاتهم كما لجأوا إلى الشائعات وغيرها من وسائل المبالغة

لتجسيم عدد قواتهم وقوة جنودهم، ولم يكن يهمهم ماذا يمكن ان يظن أعدائهم ما داموا ينتفضون من الخوف والرعب، وقوة خيالة المغول الضاربة هي عبارة عن جحافل لا حصر لها، لأن عملاء المغول كانوا يهمسون بمثل هذه القصة في الطرقات وقد استخدم جنكيز خان جواسيس العدو كوسيلة لإرهاب جنود العدو انفسهم عندما كان يستميل جواسيس العدوالى جانبه، كان يلقنهم الشائعات التي ينشرونها بين قواتهم، إن جنكيز خان أطلق (خلية نحل على ملك خوارزم) أي جعله يعيش دوامة من الاضطرابات ولقد جعل الجواسيس الذي بعث بهم إلى ملك الخوارزم لرؤية قوات وتعداد جيش جنكيز خان مما يصفون له، انهم كاملو الرجولة، شجعان لهم مظهر المصارعين لا يستنشقون شيئاً إلا رائحة الحرب والدماء، ويبدون تشوقاً إلى القتال، لا يستطيع أي قائد السيطرة عليهم، وتهدئتهم، ومع هذه الوحشية التي يبدون فيها فإنهم يجيدون الضبط والنظام ويطيعون قائدهم طاعة عمياء ويدينون له بالولاء لأميرهم ويقنعون بما يصل اليهم من طعام وكانوا يختارون الوحوش ليأكلوها ومع أنهم مسلمون فلم يكن من الصعب ان يستعيظوا لوناً من الغذاء عن لون آخر فهم لا يأكلون لحم الخنزير بل انهم يأكلون الذئاب والدببة و-الكلاب-، عندما لا يكون هناك أي نوع من اللحوم فإن قوات جنكيز خان تبدو كالجراد من المستحيل حصرها أو احصاؤها.

جانكيز خان

ويتجلى استخدام المغول للجاسوسية بأوضح معانيه في عهد جانكيز خان.

فما كان لذاك « الإمبراطور المقاتل المغوار » - وهذا هو اسمه بلغته - أن يبسط سلطانه على الأرض ما بين منغوليا وأبواب العالم العربي، بدون خطط محكمة.. وكانت الخطط المحكمة تحتاج بالضرورة إلى معلومات دقيقة، يستقيها جواسيس أكفاء، ويجمعها عملاء أذكياء من جنسيات مختلفة، كمقدمة وأساس لغزواته.

كما كان يكلف التجار المتجولين، ينتشرون في البلاد التي يوشك أن يغزوها، يسجلون المعلومات اللازمة، ويدونون مشاهداتهم وما يسمعون، ويرسلونها إليه. وكثيرا

ما لجأ جانكيز خان إلى إيفاد بعض أمهر قواده في مهام جاسوسية صعبة، ومن هؤلاء: قائد اسمه « سبتاي » وآخر اسمه « نويون»

المخابرات عند المسلمين:

المخابرات في صدر الإسلام

ازدادت حاجة المسلمين إلى الاستخبار منذ خرج النبي (محمد ﷺ) من مكة مهاجراً إلى المدينة يرافقه صاحبه (أبو بكر الصديق) وبعدها حدثت عدة عمليات.. منها:

أخبار أيام الهجرة الأولى: في الطريق إلى المدينة كمنا في غار حراء ثلاثة أيام. وكان (عبد الله بن أبي بكر) يحمل لهما أخبار أحوال المسلمين والكفار في مكة أولاً بأول.

سرية (عبد الله بن جحش): في السنة الثانية للهجرة، كلف النبي ﷺ (عبد الله بن جحش)، برصد تحركات قريش، ومعرفة أخبارهم إذا يروى أن رسول الله دفع إلى (ابن جحش) كتاباً أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين، وينفذ ما فيه.

ولما فتح الكتاب في حينه، قرأ نصه: « إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم ».

أعلن (عبد الله بن جحش) محتوى الكتاب على رفاقه، وساروا نحو غايتهم السامية في مهمتهم الاستطلاعية لقوات المشركين، والتقوا بثلاثة تخلفوا عن قافلة لقريش حتى يحصلوا على معلومات عن قوات المسلمين، فاشتبك معهم (عبد الله بن جحش) ورجاله، وقتل أحدهم، واقتاد الآخرين إلى النبي ﷺ يستجوبهم.

عيون علي أبي سفيان: في غزوة بدر الكبرى، خرج ﷺ من المدينة، وسار مع أصحابه حتى اقتربوا من (الصفراء)، وبعث من يأتيه بأخبار (أبي سفيان بن حرب)، وأخبرته العيون أن قريشاً سارت إلي (أبي سفيان) ليمنعوا إبله وتجارته حتى لا تقع في أيدي المسلمين.

وفي غزوة بدر أيضاً، أرسل النبي اثنين من المجاهدين للحصول على معلومات عن

قوات المشركين، فوجد أحدهما غلامين لقريش يستقيان من بئر بدر، فأحضرهما إلى الرسول الكريم، وسألهما عن عدد الجمال التي ينحرونها للجيش، فأجابا بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً.. ومن ذلك أدرك (عليه الصلاة والسلام) أن عدد مقاتلي المشركين يتراوح بين ٩٠٠ - ١٠٠٠، لأن عادة العرب أن يخصصوا بعيرا لكل مائة رجل.

علي بن أبي طالب في مهمة: عملية التموية التي قام بها (علي بن أبي طالب) - كرم الله وجهه - لم تكن عملية المخابرات الأولى ولا هي الأخيرة، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام أمره بعد موقعة أحد، أن يقتفي أثر الكفار ويستطلع نواياهم، فوجد أنهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فعرف أنهم عائدون إلى مكة، بعد أن مثلوا بكثير من قتلى المسلمين، جدعت نساؤهم الأنوف، وقطعن الآذان، واتخذن منها قلائد.. وبقرت (هند) بنت عتبة بطن (حمزة) عم رسول الله.

وأمر رسول الله بتغطية جثمان (حمزة) ببرده، ثم صلي عليه وعلى القتلى ٧٢ صلاة، وأمر بدفنهم.

حيلة نعيم بن مسعود: علم النبي أن قريشاً عبأت جيوشها و(بني غطفان)، وانشغلت بمحاولة استمالة قبيلتي (بني قريظة) و(بني أشجع)، للتحالف معها والحنث بعهدهما للنبي، توطئة لمهاجمة المسلمين في المدينة.. بادر النبي فأمر بحفر خندق حول يثرب، كان الأول من نوعه، وكان مفاجأه أذهلت الكفار وعوقتهم عن مهاجمة المدينة.

كما جعلتهم صيداً سهلاً لسهام المسلمين، وتحقق النصر للمسلمين، خصوصاً وأن أمل قريش في استمالة (غطفان) و(بني اشجع) إلى جانبهم قد خاب بفضل (نعيم بن مسعود).. فماذا فعل؟؟

(نعيم بن مسعود).. من وجهاء بني غطفان.. أسلم سرا ولم يشهر اسلامه بين قومه.. ذهب إلى النبي محمد وأكد له خبر محاولة قريش وبني غطفان حض (بني قريظة) و(بني اشجع) على خيانة المسلمين والنكوص بعهدهم، وقال (نعيم) إنه طوع أمر رسول الله، فكلفه الرسول بإفساد مؤامرتهم بالحيلة إذا استطاع.

دهب (نعيم) إلى (بني قريظة) أعزل من أي سلاح.. إلا سلاح المكر والدهاء، فأوقع بينهم وبين قريش وغطفان، زرع في نفوسهم الشك والارتياب، وحذرهم من أنهم سوف يتخلون عنهم حين تدور الدوائر، بعد أن يكونوا قد خسروا حلف المسلمين وحسن جوارهم، وتأكيداً لصدق رأيه نصحهم بأن يطلبوا من قريش وغطفان رهناً من أشرافهم، يظلون بأيديهم حتى يضمنوا صدقهم واستمرار نصرتهم.

تركهم (نعيم) بعد أن أقنعهم بحيلته، وذهب إلى قريش وغطفان، وأخبرهم أن بني قريظة يضمرون لهم شراً، وأنهم رافضون للحلف المعروض عليهم، راغبون في استمرار تحالفهم مع المسلمين، وقد أرسلوا إلى النبي يؤكدون وفاءهم بالعهد، واستعدادهم لأخذ رجال من أشراف قريش وغطفان وتقديمهم ليضرب المسلمون أعناقهم.

أوفدت قريش وغطفان (عكرمة بن أبي جهل) في رهط منهم إلى (بني قريظة) يستنفرهم للقتال، فامتنعوا بحجة أنهم لا يقاتلون يوم السبت، واشترطوا إعطاءهم رهناً من رجالهم يحتفظ بهم (بنو قريظة) ضماناً لعدم التخلي عن العهد إذا اشتدت المحنة.. ورفضت قريش وغطفان شرط الرهن.. واقتنعت كل الأطراف بصدق (نعيم بن مسعود)، ودب التخاذل في صفوف الأحزاب، ثم كانت مفاجأة الخندق، وتحقق نصر المسلمين.

ومما يذكر أن النبي ﷺ اعتمد في غزواته وغاراته على القوافل المكية على المعلومات التي كان يزوده بها أعوانه في مكة، بينما لم يكن للكفار من يزودهم بأخبار المسلمين والأنصار في المدينة.

وكان النبي ﷺ يوصي المسلمين بكتمان أسرارهم، لعلهم يصيبون العدو على غير استعداد، وينتصرون دون سفك دماء أو إزهاق أرواح، كما حدث قبيل فتح مكة، إذ صدر عن رسول الله ﷺ أمر كريم « أن يحفظ المسلمون أسرارهم، ويضنوا بمخبآت ضمائرهم، لعلهم يصيبون قريشاً على غير استعداد، ويدخلون مكة من غير كيد أو عناد.. فلا يسفك في البلد الحرام دماً، ولا يزهق روحاً، ولا يثير حرباً، ولا يذكى ضرام عداء »

تقرير بشر الخزاعي: ومن نماذج تقارير رجال مخابرات جيش النبي ﷺقول (بشر الخزاعي) لرسول الله ﷺ: «لقد دلفت إلى قريش أتسقط أسرارها، وأتعرف أخبارها، وما راعني إلا أن خبر مسيرك قد ترامى إليهم، وحديث رؤياك قد هبط عليهم، ولا أدري كيف وقع عليهم الخبر، ولا كيف استنشقوا حديث الرؤيا.. إنهم يا رسول الله خرجوا ومعهم النياق بأولادها، ولبسوا جلود النمور، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً.

وهذا (خالد بن الوليد) وهو من يعدونه بمهمتهم، وفارس حلبتهم، قد خرج يستقبلك بخيله، ولعله الآن في (كراع الغميم).

وفي أعمال المخابرات نلاحظ ان غزوة بدر الكبرى فاتحة النضال المرير بين المسلمين وأعدائهم وقد برهن (محمد ﷺ) على عبقريته العسكرية الفذة، فقد سلك ما يجب ان يسلكه كل قائد محنك في الميدان، إذ لم يسمح لقواته بالتقدم قبل ان يستطلع موقف العدو، ويحصل على المعلومات اللازمة من قواته، وواقعه ليقرر خطته بعد ذلك، وفيما كانت قوات المسلمين تكمن في وادي دفران أرسل النبي (دوريات استطلاع) مكونة من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ونفر من المسلمين إلى ماء بدر بغرض استطلاع أخبار المشركين وعادت الدورية ومعها غلامان عرف منهما الرسول انهما من جيش قريش وأجرى الرسول استجواب الغلامين فسألهما كم القوم فقال، كثير عددهم، شديد بأسهم، فسألهما الرسول كم عدتهم قالا لا ندري فقال لهما الرسول كم تنحرون كل يوم، قالا يوماً تسعة ويوماً عشرة فاستنبط الرسول بذكائه المتوقد، انهم ما بين التسعمائة والألف ولما عرف من الغلامين ان أشراف قريش خرجوا في هذا الجيش، والتفت إلى المسلمين قائلاً، (هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها>

المخابرات في القرون الوسطى والى عصر النهضة:

كانت الدبلوماسية والمخابرات مرتبطتين معاً ارتباطاً إلى حد أن السفراء الأجانب كانوا يعتبرن احياناً من الجواسيس ولقد أقامت جمهورية البندقية بخاصة سفاراتها وهيئات دبلوماسية خارج بلادها، وكانت تتسلم بتقارير المخابرات من السفراء والعملاء.

الجاسوسية في العصور الوسطى

اتسمت جيوش العصور الوسطى بقلة العدد، وبدائية السلاح، فكان لابد لمن يريد النصر أن ينشط سلاحه الثالث.. سلاح المخابرات، حتى يقصر أمد الحرب، ويقلل الخسائر، وتنجح خططه في مفاجأة العدو، وتضيق الخناق عليه، وقطع خطوط إمداده وتموينه، وشل حركته، وإجباره على الإستسلام. ويتوقف ذلك إلى حد كبير على مقدار ما يتوافر له من معلومات عن ظروف العدو، والعدة، والخطة، والمواقيت، والروح المعنوية للجند، ومواطن القوة والضعف في الجيش، وكشرط أساسي للنصر، لابد أن يكون الاعتماد الاول - بعد مشيئة الله - على توفير أفضل حالات الاستعداد للجيش المحارب، وإلا فلا قيمة لأثمن المعلومات، والأمثلة على ذلك كثيرة.

هزيمة الملك هارولد

لم تعرف إنجلترا قبل الملك هارولد في القرن الحادي عشر حاكماً اهتم بالمخابرات مثل اهتمامه. توافرت لديه كل المعلومات عن خطة « وليم الفاتح » في الهجوم على إنجلترا: التوقيت، ومكان نزول الجيش، وعدد الجنود الذين جمعهم وليم الفاتح، وخط سير المعركة. ومع ذلك خسر هارولد الحرب، لابسبب نقص المعلومات ودقتها، ولا لخطأ ارتكبته مخابراته، بل لأن جنوده سئموا القتال، ودب فيهم المرض والكلال، بعد السير مسافات طويلة.

خوارق النينجا

فيما عدا الملك هارولد، لم يكن بين حكام أوروبا من أهتم بالمخابرات في العصور الوسطى، على عكس حكام الشرق، إذ لابد وأن تكون تعاليم « صن تزو » الصينية قد انتشرت في شرق الصين وغربه، وعرفها اليابانيون والمغول.

في اليابان ظهر فن « النينجا »، وهو اسم مأخوذ من كلمة يابانية معناها « اللامرئي » أو فن « الاستخفاء ». كان يمارسه في اليابان، في القرن الثاني عشر، فئة من صفوة شباب الساموراي بدنيا واجتماعياً، قيل انهم تدربوا حتى اكتسبوا القدرة على المشي فوق الماء، والحصول على المعلومات أثناء التخفي، والاختفاء والظهور حسب إرادتهم، على الرغم مما في هذا الزعم من مبالغة وتحريف، إلا أنهم خضعوا لتدريب شاق، على أعمال فذه منذ

الصغر، كالمشي على الحبال المشدودة، والتعلق في فروع الأشجار بدون حركة لمدة طويلة، والسباحة تحت الماء مسافات طويلة.

حتى صاروا سادة التخفي، والتمويه، والاستطلاع، ومن هنا اكتسبوا اسمهم الخرافي: « النينجا » وبهذه القدرات برعوا في الخدمات التي أدوها، سواء كانوا جواسيس أو مقاتلين، كما أنها أكسبتهم منزلة عالية جدا في المجتمع الياباني.

أعظم جهاز للمخابرات في القرن التاسع عشر:

كانت تديره شركة خاصة ألا وهو (مصرف روتشيلد) وكان لهذا المصرف سابقه في (أسرة فاجرز) وهي أسرة مصرفية في القرن السادس عشر وقد استطاعت هذه الأسرة ان تقيم امبراطورية مالية ضخمة تقرض الأموال للملوك والدول التي كنت تعاني من الفقر كما كانت تفعل أسرة روتشيلد بعد ذلك وبعد ان تبوأت مؤسسة روتشيلد مكانتها كانت تفيد نفسها، وتفيد عملائها عن طريق مقدراتها الفائقة في جمع المعلومات ورغبة من عملاء روتشيلد في النهوض بالمصالح المالية للمؤسسة في فرانكفورت وباريس ولندن وفينا وقد حاول عملاء روتشيلد الحصول على المعلومات قبل حصول الحكومات عليها (ففي عام ١٨١٥ بينما كانت اوروبا تنتظر أنباء عن معركة (واترلوا) كان ناتان روتشيلد قد علم بانتصار البريطانيين حتى يحصل على صفقة مالية عرض كل سندات الحكومة البريطانية للبيع بأن الذي دفعه هو خسارة البريطانيين في معركة واترلوا، وفي اللحظة المناسبة قام مرة أخرى بشرائها بالثمن المنخفض، وقد اعلن بعد ذلك نبأ انتصار البريطانيين فارتفعت وحدث بعد ذلك بستين عاماً، دعا روتشيلد سليل ناتان (دزرائيلي اليهودي رئيس وزراء بريطانيا على مأدبة عشاء تسلم روتشيلد رسالة سرية تفيد بان صفقة من أسهم شركة قناة السويس يملكها خديوي مصر معروضة للبيع وسخرت الفكرة رئيس الوزراء ولكن كان مطلوباً منه حتى يعقد الصفقة من قيمته ٤٤.٠٠٠.٠٠٠ جنيه عند ذلك تقديم ليونيل لشراء الاسهم باسم الحكومة البريطانية وهكذا تمكن دزرائيلي من أن يضرب ضربة من اكبر ضرباته السياسية في حياته، وكان روتشيلد يستخدم (الحمام الزاجل) في نقل المعلومات الاستخبارية.

الجاسوسية والجنس

لعب الجنس ولايزال دورا كبيرا في عالم الجاسوسية وذلك لأنه قوة عاتية تسيطر على العقول فتتحكم فيها كيفما تشاء إلا ماشاء الله، وعلى الرغم من أن الجواسيس يتعلمون في بداية مهنتهم الحذر من الجنس وأنه من أقدم وأشهر الوسائل للإيقاع بالجواسيس إلا أنهم كثيرا ما يقعون في شراكه المميتة، لماذا؟

لأنه يخدر العقول ويأسرها ويلغي أي سيطرة عليها، فما أسعد من سيطر على الجنس ولم يدع الجنس يسيطر عليه

ومنذ الأزل كانت المرأة عنصر أساسي في لعبة التجسس لما لها من تأثير عاطفي على اصطياد الهدف المراد تجنيده أو السيطرة عليه أو الحصول على معلومات منه عن طريق مخدعه عندما يكون بين أحضان المرأة وهو أفضل مكان لاستخراج أسرار الرجل عن طريق الغريزة الجنسية، أو عن طريق العقل، اللعب بعقول كبار الشخصيات أو عن طريق خلع ملابسهن الداخلية حتى يفقدون القدرة على الواقعية والحكمة وهنا تطغى قوة العاطفة من توحي بالثقة بالمرأة والحصول على أخطر المعلومات من كبار الشخصيات.

و في التاريخ المعاصر استخدام الجنس كسلاح في الجاسوسية على أساسان الغاية تبرر الوسيلة وأنه يجب العمل بكل وسيلة للحصول على المعلومات ولو بالانتفاع بالضعف البشري إزاء الحسناوات من فتيات الهوى، وكذلك تدريب الفتيات على استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لحل عقدة الألسنة في الضوء الخافت أثناء الفراش الوثير الذي يحوي جسد امرأة لعوب وقد يصحب استخدام الجنس أعمال التهديد.

ان استخدام العلاقات الجنسية تتطلب أموراً أهمها:

١- ضمان الاستجابة من جانب الشخص المراد إغراءه واصطياده جنسياً ومدى مقاومة الرجل.

٢- يجب إعداد المرأة اللعوب إعداداً دقيقاً وتدريبها على الإغراء بعد التأكد من صفات معينة منها مثل سرعة البديهة والذكاء للحصول على ما تسعى إليه من معلومات دون إثارة ارتياب الرجل.

٣- يجب إعداد الضحية والوصول بالرجل للدرجة التي تكون رغبته عندها للاتصال الجنسي مساوية للاستعداد في أن يقدم ما هو مطلوب منه من معلومات.

مثال على ذلك:

من التاريخ القديم في قصة شمشون ودليلة يبرز درس قديم وهو أن العلاقات الجنسية تستخدم كسلاح في الجاسوسية بواسطة امرأة فإنها تكون سلاحاً قاتلاً بأكثر مما يستخدمه الرجل، فقوة شمشون ودهائه كانت تكمن نقطة ضعفه فيما كانت دليلة تضمه إلى صدرها وتهمس في أذنيه بكلماتها الجميلة وفيما أطمأن لها، فتح قلبه وذكر لها سر قوته وكان في افشائه هذا السر هلاكه.

والقصة التالية حقيقية وردت في إحدى المجلات

فضيحة فتاة المسبح العارية

ما زلنا نواصل عرض أشهر جرائم هذا القرن التي أودت بحياة الكثير من الناجحين خصوصاً في مجال العمل السياسي وقد كان الضحية في الوزير «ديفيد ميلور» في حكومة «جون ميجور» الذي أطاحت به الفتاة اللعوب «أنتونيا دي سانشا»، وكانت سبباً في أن تتعرض الحكومة البريطانية لانتقادات عنيفة من الشعب، مما دفع برئيسها أن يطلب من وزيره الاستقالة.

أما الضحية في هذا السرد فهو أيضاً وزير بريطاني، ذو منصب حساس وخطير وغير قابل لأن يكون شاغله من الأشخاص الهوائيين، أو ممن يسهل التأثير عليهم أو جذبهم في علاقات مشبوهة تعرض أمن بلدهم ودولتهم للخطر، الوزير هو «جون برونيمو»، ومنصبه هو وزير دفاع المملكة المتحدة.

وكالعادة فإن النساء مارسوا عادتهن معه في إسقاطه، وفتاة هذه الحلقة هي ليست مجرد فتاة عادية، بل مختلفة تماماً عن معظم بنات جنسها، فهي على قدر عالٍ جداً من الجمال والذكاء، يضاف إلى جمالها وذكائها مهمة أخرى أكثر خطراً وهي الجاسوسية، حيث جندت للإيقاع بوزير الدفاع البريطاني من قبل أجهزة المخابرات السوفيتية، وإقامة علاقة غير شرعية معه، واستدراجه للحصول على معلومات معينة كلفتها بجمعها من تعمل لحسابهم.

وبداية هذه الحلقة انطلقت من مكتب في وسط لندن وفي أكثر أحيائها ثراءً، كان عبارة عن عيادة لأشهر طبيب عظام في ذاك الوقت واسمه «د.ستيفن وارد»، وكانت شخصية هذا الدكتور شخصية حقيرة وقذرة فالبرغم من مكانته العلمية والاجتماعية العالية، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقيم علاقة غريبة بين طبقتين من المجتمع، وأن يعيش بين هاتين الطبقتين بقناعين مختلفين تماماً عن بعضهما البعض.

القناع الأول يرتديه أثناء عمله بعيادته ولقاءاته مع كبراء قومه. والقناع الثاني يرتديه في حفلاته الخاصة التي يقيمها مع طبقة شاذة من المجتمع تحوي المومسات والعاهرات وفتيات الليل، وكان هذا الدكتور يقوم بالجمع بين الطبقتين في حفلات خاصة في قصره أو في مزرعته لخدمة أهداف ومطامع ذاتية تعود عليه بالنفع والمادة.

ومن بين مرضى «د.ستيفن» كان السير «كولن كوت» رئيس تحرير صحيفة «الديلي تلجراف» الذي كان يُعالج من مرض «اللومباجو»، وفي أحد لقاءاته معه عرَّفه الأخير بالكابتن «يوجيه إيفانوف» الملحق العسكري الروسي في بريطانيا، والذي كان ضمن وفد يزور الصحيفة للاطلاع على أحدث ما تم التوصل إليه في سير العمل الصحفي، وكان إيفانوف هذا يشترك مع د.ستيفن في أنه زير نساء، ويحب أن يقيم علاقات عديدة معهن، لذلك اتفق الاثنان على تحقيق اللذة المنشودة كلٌ عن طريق الآخر

أما الفتاة اللعوب التي أوقعت بالوزير فهي «كريستين كيلر» وكانت تعمل في ملهى ليلي في أحد شوارع لندن، ووظيفتها في هذا الملهى هي أن تسير بين (طاولات) الزبائن

عارية، نظراً لما تتمتع به من جمال باهر وجسم فاتن، وقد التقى بها د.ستيفن أثناء إحدى سهراته، فدعاها لشقته، وقدم لها المخدرات إضافة للجنس، بعدها تحولت الفتاة إلى مدمنة، وأصبح فراقها عنه شبه مستحيل، لذلك بدأت تستجيب لكل طلباته وأوامره مهما كان الثمن

وفي إحدى المرات كان الدكتور في زيارة لواحد من أصدقائه الأثرياء في مقاطعة «كليفيدين» اسمه «لورد استور» وهو ثالث أغنى رجل في بريطانيا، وقد تعرف عليه بعد أن قام بعلاجه من كسور خطيرة تعرض لها نتيجة حادث وقع له، وقد أهداه «اللورد استور» منزلاً ريفياً جميلاً في هذه المقاطعة وسمح له باستخدامه هو وأصدقائه في أي وقت يشاء، وقد اصطحب معه «كريستينا» في هذه الزيارة ومجموعة من الأصدقاء من بينهم الكابتن «إيفانوف» الملحق العسكري الروسي الذي تعرف عليه في صحيفة «الديلي تلجراف» بمكتب رئيس تحريرها، وسرعان ما قامت علاقة غرامية متبادلة بين إيفانوف وكريستينا وبعدها تعددت اللقاءات والحفلات الخاصة.

إلى هنا والسيد «جون بروميمو» وزير الدفاع لم يكن التقى بتلك الفتاة ولا تعرف عليها، حتى جاء وقت كانت فيه كريستينا في زيارة «لكليفيدين» وقابلت «بروميمو»، في منزل اللورد «استور» لكن كان لقاءً عادياً لم يجذب أي من الطرفين الآخر إليه، وبعد عدة أسابيع من هذا اللقاء، عاد «بروميمو» إلى زيارة اللورد «استور» في منزله الذي سكنته كريستينا لكن لقاءه معها هذه المرة كان لقاءً مختلفاً تماماً عن لقائه السابق

فقد كانت هذه الفتاة تستحم عارية تماماً في حمام السباحة الملحق بالمنزل وحينما شعرت بأقدام تقترب من الحمام سارعت في الخروج من المسبح لارتداء ملابسها، لكن كانت هناك يد سبقتها إليها وقذفت بهذه الملابس بعيداً حتى يستمتع «بروميمو» أكثر بمنظرها وبجمال جسمها

ولم يستطع الوزير أن يتحمل جمالها الصارخ، وأرقت ليله وبات سهران يفكر فيها، وصمم على أن يلتقي بها وكان له ما أراد بعد أن تكفل بذلك صديقه اللورد «استور»

وأصبح الوزير والفتاة عاشقين، يجتمعان ويذهبان معاً في أماكن خاصة لقضاء بعض الوقت والاستمتاع، بل إنه كان يأخذ سيارته الحكومية مصطحبها معه ليفرجها على مبنى البرلمان ومنزل رئيس الوزراء في داونج ستريت، وتعددت لقاءاتها في شقة «وارد» وقد استطاعت هذه الفتاة أن تجمع على فراشها الملحق العسكري الروسي ووزير الدفاع البريطاني

لكن الأمور لم تظل على ما يرام فقد شعرت الفرقة إم - ١٥ (١٥ - M) في شعبة مكافحة الجاسوسية في لندن بالقلق إزاء تشعب علاقة د. ستيفن بالعديد من الرجال ذوي المناصب الحساسة بالدولة، لكن ملفه كان يغلق دائما كلما فتحته هذه الفرقة لعدم وجود أدلة لإدانته

وبعد مناقشات كثيرة قرروا الاستفادة في الشعبة من «ستيفن» هذا في أن يقوم بتوفير الجو الملائم والترفيهي للدبلوماسيين الأجانب الذين يزورون بريطانيا، بعدها طلبوا منه معلومات كافية عن «إيفانوف» الذي كان على علاقة «بكريستينا» لأنهم اكتشفوا أنه جاسوس سوفيتي خطير، وعلى الفور تدخلت هذه الفرقة لدى وزير شئون مجلس الوزراء السير «ثورمان يورك» كي يبعد وزير الدفاع عن هذه الفتاة اللعوب بأسرع وقت. أما «إيفانوف» فقد شعر بحاسته الأمنية أنه في خطر، وأنه قد يقبض عليه في أي وقت فأبرق لقيادته في موسكو فأرسلوا إليه تعليماتهم بأن يترك لندن على الفور لكنه قبل سفره حرص على أن يأخذ معه كل الأشرطة التي سجلها د. ستيفن لبعض الدبلوماسيين الأجانب في لقاءاتهم الخاصة مع بعض الفتيات، لاستعمالها فيما بعد لأغراض ابتزازية

نجح إيفانوف في الفرار من لندن مع هذه الأشرطة، بعدها أقامت كريستينا العديد من العلاقات الشاذة بمساعدة د.ستيفن إلى أن تعرضت لمحاولة اغتيال من واحد من الذين كانت تمارس معهم الرذيلة، وأحست برعب شديد بعدها ولم تفلح معها كل المحاولات التي بذلت لتهدئتها، حتى أنها أصبحت تهذي بعلاقاتها مع الكبار في (الكباريهات) والملاهي كي تطمئن نفسها أن لا أحد يستطيع أن يقتلها، إلى أن ساق القدر

محررين كانا يعملان في صحيفة «بيكتوريال» لأحد هذه الملاهي واستمعا إلى هذيانها وذكرها لاسم وزير الدفاع فقاما بنشر كل ما سمعاه، بعدها حدثت ضجة في الشارع الانجليزي ومجلس العموم، ليقف وزير الدفاع مدافعاً عن نفسه نافياً كل كلمة كتبها هذان المحرران، طالباً بأن تدفع الجريدة التعويض المناسب له وتكذب كل ما نشرته، لكن الأدلة كانت كثيرة ضده، خصوصاً تلك التي قدمتها الفرقة (١٥ - M) وحينها زادت الضغوط عليه، اعترف لزوجته بكل شيء فنصحته بأن يذهب لرئيس الوزراء لمقابلته ومصارحته بكل شيء.

لكن رئيس الوزراء «هارولد ماكميلان» في ذاك الوقت رفض مقابلته فلجأ إلى مدير مكتبه كي يكتب أمامه اعترافاً كاملاً بكذبه أمام مجلس العموم مرفقاً بهذا الاعتراف استقالته، وكما تقتضي الأعراف كان عليه الذهاب إلى مقر «باكنجهام» لتقديم إخلاء طرفه إلى الملكة، ولكنه لم يذهب وأرسل شخصاً ينوب عنه لمقابلة الملكة، بعدها تم القبض على د. ستيفن وارد وأودع السجن وأغلق مكتبه الفخم في وسط لندن، وأثناء التحقيق معه كشف عن أنه كان واحداً من شبكة جاسوسية هو وكريستينا، كوَّنها الملحق العسكري السوفيتي السابق في لندن، ووجد بعد فترة منتحراً داخل السجن.

أما الفتاة فقد حكم عليها بالبراءة لعدم بلوغها السن القانوني وتقديم المعلومات المطلوبة منها بحسن نية ودون دراية بما كان يحاك حولها، ووقف زير الدفاع أمام «لورد وينتج» أشهر قضاة لندن والذي كان يتولى التحقيق في هذه القضية، وبعد أن هدأت العاصفة قليلاً حول «بروميمو» قرر أن يعتزل الحياة السياسية ككل وفضل أن يعيش في زاوية النسيان في غرب لندن متطوعاً في منظمة خيرية تساعد المتخلفين عقلياً والمعاقين وذوي العاهات ليسدل بذلك الستار على واحد من أشهر الشخصيات العسكرية والانجليزية فترة الستينات.

الجاسوسية والمرأة

منذ الأزل كانت المرأة عنصر أساسي في لعبة التجسس لما لها من تأثير عاطفي على اصطياد الهدف المراد تجنيده أو السيطرةعليه أو الحصول على معلومات منه عن طريق مخدعه عندما يكون بين أحضان المرأة وهوأفضل مكان لاستخراج أسرار الرجل عن طريق الغريزة الجنسية، يمكن اللعب بعقول كبار الشخصيات أو عن طريق خلع ملابسهن الداخلية حتى يفقدون القدرة على الواقعية والحكمة وهنا تطغى قوة العاطفة من توحي بالثقة بالمرأة والحصول على أخطر المعلومات من كبار الشخصيات.

و في التاريخ المعاصر استخدام الجنس كسلاح فالجاسوسية على أساس ان الغاية تبرر الوسيلة وأنه يجب العمل بكل وسيلة للحصول على المعلومات ولو بالانتفاع بالضعف البشري إزاء الحسناوات من فتيات الهوى، وكذل كتدريب الفتيات على استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لحل عقدة الألسنة في الضوءالخافت أثناء الفراش الوثير الذي يحوي جسد امرأة لعوب.

***إن استخدام العلاقات الجنسية تتطلب أموراً أهمها :**

١- ضمان الاستجابة من جانب الشخص المراد إغراءه واصطياده جنسياً ومدى مقاومةالرجل.

٢- يجب أعداد المرأة اللعوب اعداداً دقيقاً وتدريبها على الإغراء بعدالتأكد من صفات معينة منها مثل سرعة البديهة والذكاء للحصول على ما تسعى إليه من معلومات دون إثارة ارتياب الرجل.

٣- يجب أعداد الضحية والوصول بالرجل للدرجةالتي تكون رغبته عندها للاتصال الجنسي مساوية للاستعداد في أن يقدم ما هو مطلوب منهمن معلومات.

*مثال على ذلك:

من التاريخ القديم في قصة شمشون ودليلةيبرز درس قديم وهو أن العلاقات الجنسية فيها يستخدم كسلاح في الجاسوسية بواسطةامرأة فإنها تكون سلاحاً قاتلاً بأكثر مما يستخدمه الرجل، فقوة شمشون ودهائه كانت تكمن نقطة ضعفه فيها كانت دليلة تضمه إلى صدرها وتهمس في أذنيه بكلماتها الجميلة وفيها أطمأن لها. فتح قلبه وذكر لها سر قوته وكان في إفشائه هذا السر هلاكه.

علم المخابرات الجاسوسية :

كيفية تدريب العملاء السريين:

١- ان تكشف عما يتوفر لك من اللغات لتشجيع الناس على التحدث بطلاقة أمامك.

٢- لا تكتب بكلمة واحدة بلغتك الأصلية عندما تكون في البلاد الأجنبية.

٣- الذين يزودونك بمعلومات دعهم يرحلون عنك بعيداً.

٤- يجب اخفاء المعلومات الجديدة التي يمكن الحصول عليها بواسطة وسائل عادية المظهر.

٥- حينما تقوم بإحراق الرسائل السرية أو الأوراق الضرورية يجب سحق رمادها حتى لا يستطيع فحصها بالميكروسكوب.

٦- لا تتكلم بابهام وغموض،و لا تتصرف تصرفاً غامضاً، كن عادياً.

٧- تجنب كل ما يكشف بسرعة عن شخصيتك ولا تتعجل أن تخترع شيئاً عن نفسك،وتذكر مقولة (تاليران) عندما كان يقول لمبعوثيه السياسيين (اياكم والحماسة)

٨- ثق أنك تسير إلى مدى بعيد حينما تترك ببطء وهي الإصرار والمثابرة للبقاء في صورة مخفية.

٩- حينما تبحث عن مكان حاول ان تبحث عن غرفة أو طابق لها اكثر من مدخل واحد.

١٠- لا تكثر من الشراب إلى الحد الذي يفقدك وعيك ولا تصادق إلا النساء اللاتي تثق بهن.

١١- لا تقبل أي شيء كما هو ولا تنظر بسرعة إلى صداقة عاجلة، أو إلى خصومة ظاهرة، يجب أن تدقق بعناية في تقدير الأشياء.

١٢- يجب أن تتعلم تحويل الكلمات إلى شيفرة واعادة الشيفرة إلى الكلمات.

١٣- يجب أن تكون قادراً على صيانة الجهاز اللاسلكي وإصلاحه.

١٤- عليه أن يعرف كيف يستخدم ثلاثة انواع مختلفة من المتفجرات شديدة الانفجارات.

١٥- عليه ان يعرف كيف ينظم حركة مقاومة من لا شيء وان يكون قادراً على تدريب العملاء الذين يستخدمهم.

١٦- عليه ان يكون قادراً في الدفاع عن نفسه دون سلاح.

١٧- عليه ان يكون قادراً كيف يطارد غزالاً.

١٨- يجب ان تتوافر فيه بدرجة كبيرة من الحاسة السادسة للأمن.

المخابرات الأمريكية (المدرسة الامريكية):

تأسست عام ١٩٤٧ عندما أمر الرئيس الأمريكي هاري ترومان بإنشاء وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (CIA) الذي يعمل بالتعاون مع جهاز (FBI) وتقع مدرسة تدريب رجال المخابرات الامريكية (CIA) في مجموعة من الأبنية الضخمة في مدينة (الانجلي) بولاية فرجينيا وتشتهر بين العملاء باسم (المزرعة) على انها (منبع الجواسيس) أول ما يخضع له الملتحقون الجدد بهذه المدرسة هو اختبار (الكشف عن

الكذب) لبيان مدى سلامة بنيتهم في العمل كعملاء للمخابرات الامريكية كما يقوم رجال المباحث بالتحري عن كل عميل جديد وأفراد أسرته بأكملها لفترة طويلة وبكل دقة متناهية قبل ان يلتحق رسمياً بالعمل لدى جهاز المخابرات واكثر ما تهتم به دروس التعليم في المدرسة الأمريكية هو:

١. الحفاظ على سرية العمل.

٢. طرق التخفي.

٣. التنكر.

٤. وتسجيل المعلومات في سرية تامة.

ويركز الأمريكيون اهتمامهم بالتجسس على الاتحادالسوفييتي سابقاً حيث يتدرب الجواسيس المؤهلون للتجسس على روسيا على طريقة الحياة في روسيا وعادات وتقاليد ومشاكل الروس حتى يتمكنوا بمهارة التقاط المعلومات المكلفين بالحصول عليها.

يسجل الجهاز الملاصق للصور للتغيرات التي تطرأ على حركة التنفس عند النطق بالكذب، اما اللفافة الموضوعة حول الذراع فتسجل تغيرات سرعة النبض ويقوم الجهازالحساس المتصل بالأداتين السابقتين بتسجيل نتائج الاختبار على ورقة تصدر من الجهاز.

الاستخبارات بالمفهوم الامريكي:

تعني: نتيجة جمع وتقييم وتحليل وايضاح وتفسير كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات عن أي دولة أجنبية أو عن أي مناطق العمليات العسكرية والتي تكون لازمة لزوماً مباشراً للتخطيط.

من أقسام الاستخبارات اهمها:

١. الرقابة.

٢. الخدمة السرية.

قال فارجوا: ان الاستخبارات تعني بصورة ما القدرة على فهم وتقدير الآراء.

الاستخبارات الجغرافية:

التي تهتم بالمعلومات الخاصة بطبيعة الأرض والبحر والجو، من أجل الخطط العسكرية، انقسمت إلى أقسام، قسم خاص بالطبوغرافيا،و قسم بالأرصاد الجوية،و قسم بالطقس، وقسم بالهيدروجرافي،و قسم بالنقل.

الاستخبارات التكنولوجية.

هي ذات أهمية حيوية خاصة بالامن القومي منها، الاستخبارات العلمية، المتخصصة في التفجير الذري، الالكترونيات والصواريخ الموجهة والمواصلات السلكية واللاسلكية والحرب البيولوجية والحرب الكيماوية.

الاستخبارات التكتيكية:

هي جمع المعلومات على المستوى التكتيكي حول قوات العدو في منطقة محددة، أو حول المنطقة، ذاتها وتحليل هذه المعلومات وهي استخبارات (قتالية) أو (المعركة) والمعلومات التي يحتاجها القائد الميداني): تعني التجسس التكتيكي).

هي جمع المعلومات المتعلقة بشؤون عسكرية أوأمنية وتنسيقها، وتحليلها، وتوزيعها على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى الدولة والهدف منها هو معرفة قدرات الدولة الاخرى، والتكهن بنواياها للمساعدة في تخطيط المسائل المتعلق باستراتيجية الدولة صاحبة النشاط وتعني أيضاً جمع المعلومات عن الاتجاهات الاقتصادية العسكرية والسياسات المتبعة (تعني التجسس الاستراتيجي).

المخابرات الوقائية:

هي المعرفة والتنظيم والتحليل النشاط الذي يوجه للقضاء على نشاط الجاسوسية المعادية،و المهمة الأساسية لمقاومة الجاسوسية هي التعرف عل نشاط عملاء العدو السريين واستغلاله والسيطرة عليه.

الاستخبارات المضادة:

تعني المعرفة والتنظيم والتحليل والنشاط الذي تستخدمه استخبارات الدول لشل نشاط الاستخبارات المعادية، ووجه نشاط في مكافحة الاستخبارات ضد جهود الاستخبارات الاجنبية المعادية المتمثلة بالتجسس.

والتجسس المضاد: هو عبارة عن مجموعة من الإجراءات البوليسية المضادة التي تتخذها إحدى الدول للمحافظة على المعلومات السرية التي تمتلكها، ومنع عملاء العدو من الوصول اليها،و الحفاظ على سرية عملياتها تجسسية واكتشاف نوايا العدو، وعمليات العدو.

التجسس السياسي:

كانت البعثات الدبلوماسية لا تزال الوسيلة الرئيسية بجمع المعلومات السياسية عن مصادرها العلنية، وتدعمها في ذلك اجهزة الاستخبارات المتخصصة بواسطة عملاء سريين يقومون بالتجسس لحسابها.

التجسس الاقتصادي: تهتم اجهزة التجسس بجمع المعلومات المتعلقة، بالنشاط التجاري، والمالي للدول الأخرى.

أساليب (السي أي ايه) في التعذيب النفسي والجسدي:

١- **أسلوب الإكراه:** تهدف إلى إحداث حالة من الانكفاء والضعف أو التردي النفسي في الشخص الواقع تحت التعذيب يؤدي إلى فقدان التحكم على الذات، وارتداد في مستوى سلوكه وانهيار في صفاته الشخصية المتعلمة وفقدان القدرة على التنفيذ والقيام بالنشاطات الابداعية كالتفكير والتخطيط والتخيل، والاحباطات المتكررة.

٢- **الاعتقال:** يتم لفترات طويلة من أجل تحقيق قدر أكبر من القلق النفسي، والذهني وضغط وتوتر نفسي،و عدم الأمان.

٣- **الاحتجاز**: هو احتجاز الشخص لساعات طويلة أو أيام طويلة وانفصاله عن محيطه الداخلي والخارجي وابقاءه بعيداً عن محيطه وبيئته.

٤- **الحرمان من المثيرات الحسية**: يعمل الحبس الانفرادي كوسيلة ضغط على الشخص ويؤدي ذلك إلى التطير (التشاؤم) والحب الشديد لأي شيء آخر حي، النظر إلى الجمادات على انها حية بالإضافة إلى الهلوسة والأوهام والتخيلات.

٥- **التهديدات والخوف**: يعمل التهديد بالإكراه إلى اضعاف أو تحطيم الشخص بصورة أكثر فعالية من الإكراه نفسه، أو التهديد بإحداث الألم يولد الوفاء والتهديد بالموت أكثر سوءاً من عدم اللجوء بالموت وانه يؤدي إلى عجز كامل.

٦- **الألم**: أن التعذيب عبارة عن سباق بين الشخص ومعذبه، مثلاً الشعور بالألم يبقي الشخص في وضع ثابت الوقف في وضع استعداد أو الجلوس على البراز في الحمام لفترات طويلة من الزمن وبعد فترة يتعب الشخص ويرهق قوته الدافعة الداخلية ومن المحتم ان يعمل الألم الشديد على أن يقدم الشخص على اعترافات كاذبة يقوم ليتخلص من التعذيب.

٧- **التنويم المغناطيسي والايحاء المضاعف المعمق**: رغبة الشخص القوية في التخلص من حالة الضغط والتوتر التي تفرضها عليه تستطيع ان تخلق حالة ذهنية، تسمى الايحانية المعمقة أو المضاعفة،مثلاً يتم لايحاء للشخص أن درجة حرارة يده آخذة بالارتفاع ولأن درجة حرارة يديه تكون آخذة بالارتفاع فعلاً بمساعدة آلة تسخين مخفي وقد يعطي ايحاءة بأن طعم السيجارة سيكون أفضل ويعطي سيجارة مجهزة لتعطي طعماً لذيذاً.

٨- **المخدرات**: يمكن خلق اعتقاد زائف لدى الشخص بأنه خدر باستعمال أسلوب أقراص السكر غير مؤذيه تسمى (البلاسيبو) يعطي الشخص حبة (البلاسيبو) ويقال له أنه أعطى مصل الحقيقة والذي سيجعله يرغب بالحديث وانه يمنعه من الكذب.

٩- الارتداد والتردي:

يمكن استخدام عدة أساليب من اجل إحداث حالة الارتداد:

أ- التلاعب الدائم بالوقت.

ب- تعطيل وتقديم الساعات.

ت- تقديم وجبات الطعام في أوقات غير منتظمة.

ث- خلخلة مواعيد النوم.

ج- عدم القدرة على تمييز الليل من النهار.

ح- جلسات استجواب لا تسير وفق نمط واحد.

خ- استجواب لا معنى له.

د- مكافأة عدم التعاون.

ذ- تجاهل محاولات التعاون غير الكاملة.

ر- يعكس وتيرة نوم المعتقلين وتعريضهم للحرارة والبرد.

١٠- النوم على وقع موسيقى صاخبة،وأضواء عالية تعمي البصر.

١١- ارهاق المعتقلين جسدياً ونفسياً قبل اخضاعهم للاستجواب.

١٢- استخدام الوسائل الكهربائية في انتزاع الاعتراف، ومداهمة المنازل.

١٣- استخدام أسلوب الكذب والتلفيق

١٤- الاغتصاب العلني أمام عدد كبير من الجنود، إلى جانب المناوبة على المرأة أكثر من شخص.

* * *

المخابرات الروسية : (المدرسة الروسية):

تأسست عام ١٨٨١ مشابهة لدائرة حماية الدولة (الشرطة السرية للقيصر) وفي عام ١٩١٧ تأسست المفوضية فوق العادة لمكافحة أعداء الثورة والقضاء على التخريب، الروس هم أشد الدول حرصاً على الاهتمام بالجاسوسية وتدريب الجواسيس ووجود مدارس كثيرة للجاسوسية في مختلف أنحاء الاتحاد السوفييتي ويبلغ عددها عشرة مدارس وكل مدرسة تختص بلغة معينة من العالم مثل مقر الاستخبارات العسكرية في موسكو وهي أهم كلية حربية لدى الجيش، وتدرس إلى جانب المواضيع العادية الكتابة السرية، والتصوير على الأفلام وكيفية التعامل مع العملاء السريين.

المخابرات الروسية :

تقع في مدينة غوركي من موسكو (و تسمى مدرسة ماركس انجلز) وتعتبر بالنسبة للجواسيس، مدرسة ابتدائية لأنهم يقضون فيها أربعة شهور يتعلمون فيها:

١. تاريخ الحركة العمالية.

٢. تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي.

٣. النظام والانضباط والطاعة.

وينقل الطلاب إلى مدرسة (لينين التقنية) بالقرب من الحدود جمهورية التتر السوفياتية وأول مادة تدرس لهم هي الرياضة، دورة الرماية واستعمال الأسلحة،و يليها التدريب على الشيفرة وحلها، واستعمال أجهزة الإرسال وتضم برامج التدريب دراسات عن الأمن العام، والقانون والاستراتيجية العسكرية ومكافحة التجسس ومراقبة الجواسيس وكيفية التهرب من الآخرين ودراسات كاملة عن بعض اللغات.

و مدة الدراسة سنتين ونصف في هذه المدرسة وتبدأ الامتحانات فيها من قبل ضباط المخابرات والمتخصصين والخبراء ويصنف الناجحون بعد ذلك إلى قسمين:

١. قسم يؤهل خارج البلاد.

٢. قسم يؤهل للعمل داخل البلاد.

ويعقب هذه التدريبات، الاعتقال التأديبي لمعرفة مدى قدرة الجاسوس النفسية والجسدية في حال اعتقلته اجهزة المخابرات الغربية.

مدرسة كتايسكايا: يتم أعداد الجواسيس للتجسس على الصين.

مدرسة جاسزينا: والتي يتم تأهيل الجواسيس للتجسس على الدول الناطقة على نماذج مشابهة لنماذج الحياة في الدول الغربية وتحتوي على بارات مماثلة للطابع الغربي الانجليزي ويرتدي الجاسوس ملابس الدول الغربية ويتعاملون مع بعضهم بأسماء غربية وتقوم بحراسة مدرسة مجموعة من القوات المسلحة على اعلى درجة من التدريب والمهارة، وقد برع المواطن الروسي في ظل المبادئ الشيوعية في التجسس على مواطنيه بل وعلى أهله وعشيره مما أكسبه مهارة في هذا المجال وقد تخرج من هذه المدارس جواسيس مشهورين مثل (دودلف ابل) (كونون مولودي).

وكما يركز الروس اهتمامهم بالتجسس على الولايت المتحدة الامريكية.

المخابرات البريطانية (المدرس البريطانية):

تأسست عام ١٥٧٣أسسها السير فرنسيس ولسنجام، وزير الدولة والمستشار لدى الملكة اليزايث الاولى، وأهم فروعها الاستخبارات الحديثة (ام،أي -٦)،تهتم بجمع المعلومات الخارجية،واستخبارات (ام، أي – ٥) هي مسؤول عن لامن الداخلي ومكافحة التجسس.

و تأتي المدرسة البريطانية في المرتبة الثانية بعد المدرستين الروسية والألمانية يوجد في انجلترا عدد محدود من مدارس الجاسوسية التي تقع أغلبها في الريف الانجليزي حيث يلتقى الجواسيس في المدرسة الانجليزية دروساً مكثفة من كل انواع الرياضيات العنيفة كالمصارعة الحرة والجودو والكاراتيه إلى جانب تعلم اللغات الأجنبية، ودراسة الجغرافيا ودراسة فن التخريب واستعمال الذخائر وكما يتدرب الجواسيسن على قوة الاحتمال حتى

يستطيع ان يتصدوا لكل المواقف التي قد يواجهونها في البلاد الاجنبية فيقضي الجاسوس فترة في سجن انفرادي مع حرمانه من النوم والطعام حتى تزداد قوة تحمله إذا ماتعرض لسجن على يدالأعداء. وتقوم اجهزة المخابرات البريطانية فرع (ام، أي - ٥) بالتنصت على هواتف العديد من المواطنين البريطانيين بدون اذن اداري أو قضائي ومراقبة البريد والهاتف من ضروريات عمل المخابرات وأجهزة كشف التردد الراديو، أو ساعة اليد، ومن ثم زرع أداة كشف في الجسم(أداة استراق السمع في الجسم والحصول على المعلومات بواسطة الآلات الالكترنية والتنويم المغاطيسي.

الاستخبارات بالمفهوم البريطاني:

تعني المعرفة والعلم بالمعلومات التي يجب ان تتوفر لدى كبار المسؤولين من المدنيين والعسكريين والتي تعنى بالدول الاجنبية والمصالح المختلفة للدول وتقوم بجمع المعلومات واتخاذ الإجراءات المتعلقة بشؤون التجارة وما يتعلق بالقوات العسكرية حتى يمكنهم العمل لتأمين سلامة الأمن القومي.

المخابرات الألمانية (المدرسة الألمانية):

تأسست عام ١٩٤٥وهي فوق أراضي ألمانيا وتتكون من مؤسسات للاستخبارات الداخلية والخارجية والعكسرية ذات مهام متشعبة وهي تابعة لوزارة الدفاع وواجبها الأساسي تامين سلامة القوات المسلحة داخلياً وخارجياً والألمان من أكثر الشعوب التي اهتمت بالجاسوسية فوضعوا لهذه النظم والقوانين وأصبحت علماً كأي علم من العلوم، وتتميز المدرسة الألمانية بالدقة المتناهية والإرشادات التي يتلقاها الجواسيس الألمان في دراسة التجسس مثل التحدث بلغة ألمانية حتى تشجع الآخرين على التحدث بحرية، التخلص من أي ورقة أو خطاب بنتهى السرية والحرص واتباع النظام الشديد والقسوة في التدريب وتقوم المدرسة الألمانية بالتخلص من الجواسيس الفاشلين في التعليم بارسالهم في مهمات تضمن فيها القبض عليهم وشنقهم ويطلق على الجاسوس الفاشل(الغبي) والألمان عندما يجندون الجواسيس يدرسون طبعهم، وميولهم(وغرائزهم

لنفسية ثم يفرزون ما هو صالحاً وكتوماً محباً للعمل، حريصاً على أداء الواجب ويدربون على فن الجاسوسية وأساليبها التي عددها الجاسوس الألماني (كران بي) أهمها:

١- علموني الاستفادة من الشمس في السير نهاراً وكيفية الاستفادة من هبوب الريح وحركة الأشجار والأغصان في السير ليلاً.

٢- دربوني على كيفية معرفة الرقم، وخطوط الطول، والدرجات وخط الاستواء ومستوى المياه ومراصد المدافع.

٣- علموني أنواع الموانع الطبيعية،المرتفات والمنخفضات، العوارض الاصطناعية، الخنادق والأرصفة.

٤- دربوني على محرك الطلقة ومنتهى ارتفاع خط النار.

٥- دربوني على معرفة المواقع المستحكمة وانواع الحصون المشيدة عليها وطبيعة الأراضي المحيطة بها والمواضع القابلة لاخفاء الطيارات.

٦- تعلمت كيفية التمييز بين الطيارة الموجودة على سطح الأرض في العداء وبين الطيارة الموضوعة داخل الوكر.

المخابرات الإسرائيلية الموساد(المدرسة الإسرائيلية):

اهتم ديفيد بن غوريون في أيام الاستقلال الاولى عام ١٩٥١ مصلحة الاستخبارات الإسرائيلية عليه ان يكون كفؤاً لأفضل تنظيمات الاستخبارات في العالم، لأن بقاء إسرائيل يعتمد عليه، استطاع ان ينشئ خمس فروع للاستخبارت الإسرائيلية:

١- فرع شاي: وهوقسم تابع للهاغاناة وهي الجيش السري اقامه المستوطنون في فلسين بقيت تقوم بجمع المعلومات وتحليلها دون تغيير طبيعتها.

٢- فرع الشين بيت: الذي كان مسؤولاً بصفة رسمية عن الامن الداخلي.

٣- فرع علياه بيت: الذي أقيم في عهد الانتداب البريطاني لتهريب المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين وحولت اهتمامها إلى مساعدة اليهود على الفرار من الدول

العربية المعادية لإسرائيل.

٤- فرع وزارة الداخلية: كانت غايتها عقد صلات مع موظفي الاستخبارات في البلدان الاخرى.

٥- فرع الاستخبارات على شؤون البوليس وفرع شيروت يدوتو تعني (خدمات الإعلام).

المدرسة الإسرائيلية:

تتلقى عناصر الموساد دروساً في جميع الاختصاصات لمدة عامين ومدارسهم مستقلة في تل أبيب والقدس يتلقى فيها الدارسون محاضرات عن السياسة الدولية وعن سياسة واقتصاد دولة إسرائيل والوسائل والتجهيزات الحديثة لانجاز مهمة الاستخبارات والاطلاع على تجارب المخابرات الاجنبية ويتوجب على جميع الضباط العاملين في الموساد (اتقان اللغة العربية) بشكل الزامي.

ويوجد في إسرائيل كلية خاصة(لتدريس الامن بهدف صيغة عقيدة الامن الإسرائيلية وخلق مفهوم أمن مشترك على أساس المعلومات المشتركة وفي هذه الكلية يتم دراسة المعطيات وتحليلها في بعض الاحيان ويقوم رؤساء الأقسام بتقمص شخصيات من الدول العربية.

أساليب الموساد في العمليات الاستخباراتية:

١- العميل المزروع: تتعاون كافة اجهزة المخابرات في مسألة زرع عميل لها في الدول العربية وأبرز العملاء كان ايلي كوهين عمل في سوريا عام١٩٦١، ولفغنانغ لوتس،الذي وصل إلى القاهرة عام ١٩٦١ مدعياً انه لاجئ سياسي وألقي القبض عليه.

٢- تجنيد يهود من الدول العربية: وأبرز العملاء (شولا كوهين) التي تعتبر من أخطر جواسيس الموساد في لبنان، والشرق الاوسط عاشت في وادي أبو جميل ببيروت عام ١٩٤٧ وشاركت في أعداد قوة الدفاع عن النفس عن اليهود التي اندمجت مع حزب لكتائب اللبناني

وساهمت في تهريب اليهود من لبنان، واستطاعت تجنيد الضابط اللبناني (جورج انطون) وتعاونت مع مدير كازينو الأولمبياد حيث يجتمع اكبر عدد من رجال السياسة وهواة القمار وقابلت كميل شمعون ومهدت لاجتماع اديب الشيشكي بالجنرال مكليف رئيس الأركان الإسرائيلي وعام ١٩٥٠ ستطاعت سرقة البروتوكول الأمني بين سوريا ولبنان إلا ان المخابرات السورية اكتشفها واعتقلتها حتى أفرج عنها عام ١٩٦٧ أثناء تبادل الأسرى.

٣- شبكات التخريب: مهمتها القيام بأعمال التخريب لخدمة هدف سياسي في احدى الدول العربية، مثل الشبكة الجاسوسية التي تضمنت دموشي مرزوق، وشموئيل عزرا، في مصر التي استطاعت تجنيد العديد من الشبان في القاهرة والاسكندرية ونفذت تفجيرات ضد مصالح بريطانية لتعطيل جلاء البريطانيين عن مصر.

٤- **عمليات الاغتيال:** عام ١٩٧٢ عين الموساد مستشاراً لرئيس الحكومة ضمن صلاحيات خاصة من اجل التنسيق لمكافحة الإرهاب أهارون باريف، منسق للحرب ضدالإرهاب وتشكيل مجموعة اغتيال بالتعاون مع الموساد واغتيال عملاء الموساد محمد الهمشري، كمال ناصر، يوسف النجار، كمال عدوان، وكان قائد عملية الاغتيال (ايهود باراك) وغيرهم من القادة الفلسطينيين والعرب في قبرص واليونان والنرويج.

٥- عمليات السرقة: عام ١٩٤٨قام الموساد بتهريب أربع طائرات بريطانية إلى إسرائيل من طراز فايتر بالإضافة إلى عمليات سرقة اليورانيوم.

علم النفس في المخابرات الإسرائيلية وكيفية تجنيد العملاء في المخابرات الإسرائيلية:

١- من الناحيةالسيكولوجية: تراعي نقاط الضعف في الشخص الذي يراد تجنيده.

٢- تدرس جيداً السمات الشخصية والمزاجية لهذا الشخص قبل عملية الإقتراب منه، وهناك ثلاثة عوامل رئيسية للتجنيد، منها:

- المال.
- العاطفة: سواء كان للانتقام أوالأيديولوجية.
- الجنس: ويتم أخذ الشخص وجعله تدريجياً مخالفاً للقانون وللأخلاق لذلك

يعامل الموساد مع أسوأ أنواع البشر وتستخدم مهارات عالية وغامضة في كيفية استقطاب الجواسيس في دول الجوار.

من أساليب الموساد لتنفيذ عمليات التجسس

فهي تعتمد بشكل رئيسي:

١- الحصول على معلومات بتشتى الطرق والأساليب أو المعلومات المكشوفة عن طريق تجنيد عمال البارات خارج إسرائيل ومستخدمي الفنادق والسكرتيرات وعن طريق المومسات والسائقين وغيرهم وتستخدم كافة انواع الضغوط على العملاء المجندين.

٢- تتستر المخابرات الإسرائيلية تحت غطاء لجان المشتريات وشركات السياحة،و شركة طيران العال، ومكاتب شركة الملاحة، ومؤسسات البناء والأعمال والشركات الصناعية والمنظمات التجارية الدولية، والإسرائيلية.

٣- استخدام المال، والتنسيق مع الدول الاوروبية الغربية تحت ستار تنظيم استخباري تابع لحلف الناتو بغية تجنيدهم للعمل في الدول العربية وكما يجري الاعتماد على الوكالة اليهودية للقيام بأعمال التجسس من اليهود في العالم العربي أو العمل في الدول العربية يتم التركيز على ما يلي:

- تجنيد موظفي الهيئات الدولية العاملين في الدول العربية.
- تجنيد بعض الطلاب العرب الدارسين في الخارج عن طريق استخدام نقاط الضعف.
- استخدام الدبلوماسيين الأجانب لسهولة حريتهم في الحركة.
- استخدام جواسيس قرى الحدود: مثل القرى السياحية في مصر.
- اختطاف الاحداث: وزرع الادمان على المخدرات فيهم.
- تجنيد مراسلين صحفيين أجانب.
- شبكات التهريب في البر والبحر والجو.
- تجنيد تجارالسلاح في اوروبا.

علاقة المخابرات الإسرائيلية (الموساد) مع المخابرات الدولية :

١- يرتبط الموساد بعلاقات حميمة مع المخابرات الأمريكية ولتنظيم هذه العلاقة أنشات المخابرات الأمريكية (القسم اليهودي) ضمن جهازه العام ١٩٥٣.

٢- علاقة الموساد بالدول الغربية، وخاصة مع مخابرات حلف شمال الاطلسي فهو يشارك بشكل دائم في التحقيق مع الموقوفين العرب في الدول الغربية ويستغل ذلك لكسب عملاء له.

٣- علاقة الموساد مع السافاك الإيراني في عهد الشاه والتعاون مع الموساد لخلق مناخ مؤيد لإسرائيل في ايران وكانت من أخطر العلاقات وأهمها في مجال الجاسوسية.

٤- علاقة الموساد مع (المخابرات التركية، مركز الامن التركي القومي،ويطلق على هذه العلاقة المثلث الرهيب وتعقد بشكل دوري كل ستة أشهر حيث يتم تبادل المعلومات تعهد الموساد بتقديم تقارير إلى مركز الامن القومي التركي حول النشاطات التجسسية المعادية لتركيا، وتعهد الأتراك أيضاً تقديم تقارير حول نشاطات العرب التجسسية ضد إسرائيل وتقديم بالذات تقاريرحول النشاطات المصرية ضدها.

٥- علاقة الموساد بمخابرات الدول الإفريقية والتعاون مع زائير ليبيريا، كينيا، غانا، جنوب افريقيا، وهي علاقات اجنبية قوية جداً، وتقوم الموساد بتدريب اجهزة المخابرات الافريقية وفي عام ١٩٧٨ ساعد الموساد،اوغندا للحصول على صفقة طائرات بوينغ وزودها بطاقم ضمن اتفاقية للتجسس على ليبيا.

٦- علاقة الموساد مع مخابرات دول أمريكا اللاتينية مثل البرازيل، الأرجنتين، المكسيك،كوساريكا، بنما، البيرو، السلفادور وأخرى والتنسيق ولتنظيم هذه العمليات يقيم الموساد مقراً اقليمياً له (في مدينة كاركاس) فنزويلا للإشراف على عملياته التجسسية.

٧- علاقة الموساد مع آسيا الصغرى مثل كوريا الجنوبية، وتايوان وتايلاند

واندونيسيا وتقيم المقر الرئيسي لها في سنغافورة وتتم هذه العلاقات التجسسية بالتنسيق والتعاون مع المخابرات المركزية الامريكية.

الشخصية العربية في الدعاية الإسرائيلية:

١- يتأثر العرب بصورة خاصة بالعواطف والمشاعر اكثر من العقل وأنهم لا ينسون ويغفرون بسرعة ولهم ميول قوية لتجاهل الوقائع ويسهبون في الأوهام والخداعات.

٢- ارهابي وغدار، عدواني جبان، وحاقد ويمتاز بالوحشية والابتزاز ومتوحشين وبدو رحل، ومسلمون متطرفون. -هـ العرب يقعون في ادنى سلم التطور البشري لأنه ليس لديهم احساس بالتمييز العرقي بسبب عقيدتهم الإسلامية التي لا يوجد فيها مثل هذا الاحساس فهي تسوي بين بني البشر بمختلف أعراقهم وانتمائهم طالما انهم يدينون بالإسلام.

٣- العربي في العبرية، سارق كاذب ومنافق وذو وجهين ومغتصب النساء، ومعتد ويفتقد للمبادئ وتوجيه الغريزة الجنسية، ولا يفي بوعده، ومحب للمال ومرتش.

كشفت المخابرات الإيرانية بأن الموساد الإسرائيلي ضم سبع دوائر أهمها:

١- دائرة تنسيق وتخطيط المعلومات.

٢- دائرة تجميع المعلومات السرية والمهمة منها شعبة السيطرة والمراقبة الاقليمية ويكون عملها خارج إسرائيل

٣- دائرة العمليات السياسية: والعلاقات التبعية والودية مهمتها التنسيق، والتعاون واقامة العلاقات مع مخابرات الدول الاجنبية.

٤- دائرة شؤون الكادر الوظيفي والمالية والأمن.

٥- دائرة شؤون التدريبات والتنظيم.

٦- دائرة التحقيقات.

٧- دائرة العمليات التكتيكية وتضم عدة أقسام، شعبة روسيا، وشعبة الجمهوريات المنفصلة عن الاتحاد السوفييتي، قسم العمليات الخاصة، قسم الحرب النفسية، دائرة الشؤون التكنولوجية، المديرية العامة للمصادر، والتجهيزات ودائرة العمليات السياسية كدائرتين منفصلتين لهما مقرات منفصلة سواء داخل السفارات اوالقنصليات الإسرائيلية أو خارجها. -هـ الدائرة الثانية والثالث لها فروع موزعة على أساس جغرافي في امريكا الجنوبية اوروبا الشرقية، آسيا والمحيطات ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، اوروبا، الولايات المتحدة الامريكية.

أجهزة الاستخبارات في إسرائيل تعتمد على:

١- تقوم على جمع المعلومات المتنوعة.

٢- تقوم على تقدير للوضع وتقديم المعطيات للحكومة من اجل اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية.

٣- تقوم على توفير الأمن والحركات السرية الداخلية وتوفير الأمن للعمليات والمنشآت الصناعية والأشخاص.

٤- حرب استخبارية ونشاطات خاصة تشمل عمليات وقائية وتخريب وحماية اليهود واستخبارات سياسية، واستخبارات وقائية، وعمليات استخبارية.

تهدف الصهيونية العالمية إلى سيطرة العنصر اليهودي على العالم بعدة وسائل أهمها:

١- بروتوكولات حكماء صهيون: وهي تشمل خطة العمل في المستقبل للحركة الصهيونية بوسائل عديدة تحقق فيها السيطرة على الصحافة ووسائل الإعلام في العالم، في العالم الغربي والسيطرة على رؤوس الأموال وتفتيت المسيحي عن طريق التخريب الروحي وادخال عناصر يهودية الأصل إلى الكنيسة الكاثوليكية وتزويرحقائق التاريخية (بمحاولة تبرئة اليهود من دم المسيح).

٢- اقامة مراكز أو محطات لليهود في انحاء العالم مع اعتبار فلسطين المحطة الرئيسية

ليهود العالم، قد ركزوا اهتمامهم على المغرب في شمال افرقيا، والأرجنتين وقد تحقق ذلك في المؤتمر الصهيوني الأول.

٣- الاعتماد على الجاليات اليهودية في أنحاء العالم بالعمل السري والعلني لمساندة الحركة الصهيونية والضغط على الدول التي يقيمون فيها لمصالحها قبل أمريكا وألمانيا وانجلترا وتواجه الحركة الصهيونية في الوقت الحاضر عدة مشكلات أهمها:

✍ مشكلات انصهار اليهود في الدول التي يعيشون فيها ومشكلة الهجرة من دول أوروبا الشرقية مشكلة نشر اللغة والثقافة العبرية بين يهود العالم، وتغيير نظرة بعض دول العالم للحركة الصهيونية العالمية والتفرقة العنصرية بين اليهود في إسرائيل والحركات المعادية للصهيونية في العالم.

✍ محاولتها استغلال العقيدة والدين لخدمة الاهداف الصهيونية بحكم انتشار الجاليات اليهودية في العالم وسيطرتها على وسائل المال والإعلام يعطي أجهزة المخابرات الإسرائيلية امكانيات العمل والحركة والتمويل بدرجة لا تتوافر لأية دولة كبرى مثل قضايا جواسيس الذرة، والمخابرات الإسرائيلية التي تملك لديها كل جوازات سفر جميع أنحاء العالم، وهي التي وراء اغلب الأحداث والمؤامرات في العالم قديماً وحديثاً والدعاية الصهيوية التي تسيطر على جزء كبير من وسائل الإعلام العالمية وادت الاجهزة المعادية تحقيق الهزيمة في العقل العربي قبل تحققها على ارض الواقع وفي ميدان المعركة اخذت تروج لفكرة إسرائيل الكبرى، والجندي الإسرائيلي الذي لا يقهر وجهاز الموساد الغير قابل للاختراق وأقوى اجهزة المخابرات في العالم حسب ادعائهم.

***

المخابرات والجنس والموساد

المال والنساء:

من أهم الأسلحة القذرة التي يستخدمها الكيان الصهيوني في بناء كيانه الغاصب، واستقطاب عملائه، إذ يستخدم كل الوسائل والأساليب غير المشروعة في حربه ضد الأمة الإسلامية ومن أبرزها (الرذيلة والإغراء) وهذا ما تؤكده صحيفة هآرتس إعلان الحركة الصهيونية قامت في عهد الانتداب البريطاني في فلسطين جهازاً خاصاً وغيرها من جيوش دول الحلفاء الذين كانوا ينزلون للراحة على الشواطئ الإسرائيلية وذلك في اطار مساعي الزعامة الصهيونية لكسب تأييد ينزلون للراحة على الشواطئ الإسرائيلية وذلك في اطار مساعي الزعامة الصهيونية لكسب تأييد تلك الدول لمشروعها الاستعماري في فلسطين، فقد اعتمدت المخابرات الصهيونية في عملها الرئيسي على النساء وأن٢٠٪ من العاملين في هذا الجهاز من النساء اليهوديات وكانت المرأة الصهيونية قد لعبت دوراً كبيراً في تنفيذ عمليات حركة البالماخ العسكرية وتجاوز عدد النساء فيها ٣٠٪ من مجموع أفرادها.

واليوم تعتمد الموساد على المرأة اعتماداً قوياً في القيام بعمليات التجسس واسقط العملاء من خلال استخدام الرذيلة والإغراء وهذا ما يوضح إلى أي مدى احتد فساد هذا الكيان الصهيوني الشاذ وخطره على الأمة العربية والإسلامية.

وكيف أصبح الجنس والبغاء من العمل التنظيمي لمؤسسات الحركة الصهيونية وقد شهدت مدينة تل أبيب ازدهاراً كبيراً في أقدم المهن (الدعارة) بسبب وجود أعداد كبيرة من الجنود الأجانب بالمدينة وبسبب الوضع الاقتصادي المتردي الذي واجهته المهاجرات الجدد وبنات العائلات الصهيونية الفقيرة.

وتكون الدعارة في خدمة السياسيين وهذا يعكس على خدمة الدول الصهيونية هدف

استخدامهن في إغراء قيادات عسكرية وسياسية في عدة دول معادية للكيان الصهيوني من أجل الحصول منهم على معلومات عسكرية وأمنية تهم الكيان الصهيوني.

و ما أكدته اجهزة المخابرات الإسرائيلية ان المجندات الصهيونيات نجحن على مدار الاعوام الماضية في تنفيذ عمليات عسكرية مهمة بينها اغتيال القيادي الفلسطيني حسن سلامة،و سرقة أسرار السفارة الإيرانية في قبرص، ومكاتب حزب الله في سويسرا واختطاف الخبير النووي، فعنونو من ايطاليا إلى فلسطين االوسيلة الوحيدة لاسقاط العملاء هي الجنس حيث تقوم المجندات الصهيونيات بإغراء العملاء ثم ممارسة الرذيلة معهم ويقوم أفراد الموساد بتصويرهم في اوضاع فاضحة ويتم تهديدهم بها في حال محاولة رفض الأوامر ويطلق على المجندات الصهيونيات اسم (سلاح النساء للتجسس).

دخلت المخابرات الإسرائيلية بعد ذلك في عدة مراحل اهمها:

١- **المرحلة الأولى:** تمتد من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥١ وكانت الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية تشترك في معظم أعمال المخابرات الإسرائيلية.

٢- **المرحلة الثانية:** تمتد من عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٥٥ كان خلالها بنيامين جيلي هوالذي تولى إدارة المخابرات بجميع فروعها ويساعده في ذلك عدد من رجال وزارة الدفاع الإسرائيلي.

٣- **المرحل الثالثة:** من عام ١٩٥٥ بعد فضيحة لافون واستلام تيدي كوليك مدير عام مكتب رئيس الوزراء فقام بتنظيم جهاز المخابرات على أساس جديد.

الاستخبارات العسكرية في الإسلام:

الاستخبارات أو مصلحة الاستخبارات تسمى في بعض الدول المخابرات أو الشعبة الثانية أو المكتب الثاني تعني عمليات الاستخبارات (أو نتاج وثمار هذه العملية) أي حصيلة المعلومات التي تحصل عليها الاستخبارات.

الاستخبارات أو مصلحة الاستخبارات أو أجهزة الاستخبارات أو المخابرات:

تعني هي مجموعة الأجهزة والتشكيلات والوسائل المستخدمة لجمع المعلومات السياسية والنفسية والاقتصادية والعسكرية الخاصة بالعدو وتحليلها والعاملة في الوقت نفسه على مكافحة عمليات التجسس أو التخريب المعادية إبطال كل عمل يقوم به العدو لجمع المعلومات السياسية والنفسية والاقتصادية والعسكرية عن معسكر الصديق.

• **الاستخبارات:** تعني التخابر لنقل المعلومات القيمة المنقولة والتي تكون على درجة كبيرة من الأهمية بين شخص وآخر وبين مركز وآخر، ومقر شبكة التجسس، وفي كل دولة تشمل جميع وسائل التجسس الخارجي.

والتخابر تعني (خبر كل واحد الآخر) أي كلمه أو باحثه أو تباحث معه سواء حصل مشافهة أو كتابة صراحة أو رمزاً أو مباشرة أو بالواسطة أو بخداع الغير، أو بالمحادثة التلفزيونية أو السلكية واللاسلكية.

• **الجاسوس في الإسلام:**

١- هو عنصر الاستخبارات المعادية أو الاجنبية الذي يمارس نشاطه الاستخباري ضد بلادنا.

٢- الجاسوس هو من يرسله الكفار سراً ليتجسس على المسلمين ويتعرف على أمورهم ويبلغها للكفار.

٣- الجاسوس هو الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت ستار كاذب، فيحصل على معلومات في منطقة الحركات العسكرية وأبلغها للخصم.

٤- الجاسوس هو العين والجمع عيون، ويسمى عين لأن عمله بعينه.

٥- الجاسوس الذي يتباحث أخبار الناس للحكام.

صفات موظف الاستخبارات العسكرية في الإسلام:

١- الطاعة وتنفيذ الأوامر.

٢- النصيحة والصدق.

٣- الشعور العميق بحب العمل وأهميته.

٤- الدهاء والحيل والخديعة والتمويه.

٥- الخبرة والمهارة والصبر.

٦- ان تكون له دربة بالأسفار.

٧- ان يكون ذو حدس صائب.

٨- الإخلاص والتضحية.

٩- حفظ الأسرار وكتمان الاخبار.

١٠- امكانية تكييف النفس لأحوار المعيشة خارج الوطن.

١١- القدرة على التخفي والتنكر.

١٢- توخي دقة المعلومات في الوقت المناسب، الشجاعة والنجدة.

١٣- تعلم لغة العدو، استخدام الشيفرة (لغة الرموز).

١٤- التهذيب والأخلاق.

طرق الوقاية من الحرب النفسية في الإسلام:

١- الايمان بالله وقوة العقيدة.

٢- الوعي والمعرفة بأهداف العدو أساليبه في الحرب النفسية.

٣- كشف محاولات التخذيل وتثبيط العزائم.

٤- فضح محاولات التفرقة ومقاومتها.

صور الحرب النفسية في الإسلام:

١- الشعارات والهتافات: لتحقيق عدة اهداف منها التعارف فيما بينهم أثناء الالتحام

بالأعداء،أو في الظلام مع ترويع العدو وبث الرهبة والخوف في قلبه.

٢- التفريق بين العدو وحلفائه (مثل غزوة الخندق).

٣- تجنيد القوى الأخرى، وحرمان العدو من محالفتها.

٤- زعزعة ثقة العدو في إحراز النصر(مثل غزوة الفتح).

٥- التخويف والضغط النفسي على العدو.

دور المخابرات في رسم السياسة:

إن المخابرات هو عنصر من عناصر رسم السياسة (و ليس رسم السياسة) وإنما تقوم بتجميع وامداد المعلومات وتقويمها ثم تقديمها للمسؤولين في رسم السياسة وأن تكون المخابرات في خدمة من يضع السياسة لا تكون معوقاً لها، ويجب ان تتجنب اتخاذ موقف مؤيد أو معارض لسياسة معينة، وان تفحص المخابرات التأثيرات المحتملة في الدول الأجنبية للسياسات المترادفة التي قد تتخذها الدولة(مثلاً تقديرات الموقف الاقتصادي في إسرائيل قد تعمل على أساس افتراضات متعددة لمدى تعاونها الاقتصادي مع الغرب).

الحرب السياسية مرادفة للحرب النفسية:

يقول (جون سكوت):أن الهدف الأساسي للحرب السياسية هو اضعاف العدو، وإذا ما أمكن تديره بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية والضغط الاقتصادي والمعلومات الصحيحة والمضللة والإثارة والتخويف والتخريب والإرهاب وعزل العدو عن أصدقائه وو مؤيديه وسيلة نقل الأفكار.

إن الحرب السياسية تهدف إلى:

١- تدعيم قوة بعض مجموعات منافسة أو إضعاف البعض الآخر.

٢- تنظيم قوة يمكن توجيهها لتحقيق غايات محببة. تقديم المعونة لقوى تتفق مصالحها مع مصالح القوى التي تقدم العون.

٣- معاونة دول واقعة تحت سيطرتها تحت أفراد معينين للوصول إلى مراكز القوة، ومن ثم إلى الحكم.

يقول فارجوا أن الحرب السياسية هي نوع من أعمال المخابرات التي تستخدم الأفكار للتأثير على السياسات أنها تعالج الآراء وتنقلها إلى الآخرين وهي عملية منظمة لإغواء الآخرين بطريقة غير عنيفة على نقيض الحرب العسكرية التي تفرض فيها إرادة المنتصر على الجانب المنهزم، إما بالعنف أو بالتهديد باستخدام العنف.

دور المخابرات في الحرب الاقتصادية (الحظر الاقتصادي):

١- ضرورة جمع الوثائق التي تتعلق بملفات عن المصانع ومعامل تكرير البترول وعدد العمال، وأنواع الانتاج والمنشآت الأخرى.

٢- ان الضغوط الاقتصادية على الدولة أثناء الحرب، الحظر الاقتصادي، تحريم الشراء، تجميد الأموال، او عمل مكمل للهجوم العكسري.

٣- المخابرات الاقتصادية هي علاقة تاريخية وثيقة بالحرب الاقتصادية.

٤- إن حجم النمو الاقتصادي الاجنبي وهيكله ومدى قدرته على الاسهام في القوة العسكرية، تلك هي الامكانات الاقتصادية من اجل الحرب هي الذي يحظى بالاهتمام الأساسي في المخابرت الاقتصادية.

دور المخابرات في معرفة وتقدير القوة العسكرية للدولة:

١- معرفة عدد الرجال الموجودين تحت السلاح.

٢- نسبة توزيعهم على الأسلحة الحربية الثلاثة، القوات البرية والجوية والبحرية.

٣- تنظيمها التكتيكي والإداري ونوع عتادها وكميتها والأسلحة الكبيرة والصغيرة حسب نوعها وأدائها ووسائل الدفاع الثابتة وبيان الطائرات والبواخر الحربية بحسب نوعها ووظيفتها وطبيعة المنشآت الحربية الترسانة العسكرية،المطارات وورش الإصلاح، وأحواض السفن.

٤- طبيعة امداداتها والخدمات الطبية.

٥- طرق التجنيد المتبعة،ووسائل التدريب ومستوى درجته.

٦- الخبرة تحت السلاح والخبرة في أثناء القتال.

٧- طراز الضباط وعددهم، نوع عمل الموظفين، شخصية الضباط ذوي الأهمية.

٨- درجة تقدير الشعب للقوات العسكرية.

٩- طبيعة التقاليد العسكرية وقوتها كلها تنطوي تحت عنوانين كبيرين هما: المهارة العسكرية والروح المعنوية.

تقسيم المخابرات الوقائية إلى العناصر الآتية:

١- مخابرات الأمن: مسؤوليتها مكافحة التخريب، مكافحة التآمر والتمرد، مكافحة النشاط الهدام والأمن في مفهومه الشامل من آمن الشخص وأفراد ومنشآت ومعلومات.

٢- مقاومة التجسس.

تقسيم المخابرات النوعي:

١- **مخابرات ايجابية:** تشمل الإجراءات التي تتبعها المخابرات لتحصل عليالمعلومات سواء بالملاحظة والمتابعة أو بالقيام بعمل ايجابي أو الحصول على معلومات التي يجب ان نعرفها قبل ان نبدأ باتخاذ طرق معينة حتى يكون المسؤولين على علم مقدماً بها سيواجههم العدو من إجراءات قبل وقوعها مثل السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية ويشمل نشاط المخابرات الايجابي أيضاً على أعمال التخريب، الأعمال السياسية، المظاهرات، الدعاية،حرب الإشاعات،و كل ما يتطلب القيام بخطط ايجابية في التغلب على العدو في أي ميدان من ميادين الحياة العسكرية والسياسية والاقتصادية.

٢- **المخابرات الوقائية**: فهي اصطلاح شامل لجميع الإجراءات والعمليات التي تقوم بها الدولة لتحقيق أمنها ووقاية أسرارها من نشاط الجواسيس والتخريب المادي والمعنوي والدعاية هادفة إلى المحافظة على هذه الأسرار في الداخل والخارج، وحماية حدودها ومنشآتها والمحافظة على كيانها وكذلك تشمل على التفوق على العدو، والانتصار عليه في النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية ويطلق عليها اسم المخابرات المضادة.

العلاقة بين المخابرات العلمية والفنية علاقة متشابكة:

١- **المخابرات العلمية**: وهي تتعلق بالتطورات التكنولوجية الاجنبية التي تقدمت إلى حد التطبيق العملي لأغراض الحرب، تشمل التطورات التكنولوجية ولكن من خلال البحث ومرحلة التطور التي تفوق النواحي التكنولوجية والعسكرية البحتة، مثل الرياضايات والطب والطبيعة البحتة، وعلم الأثريات وعلم الفلك وجغرافية البحار والمحيطات وقد يمكن جميع المعلومات العلمية وتحليلها بواسطة المنظمات الأخرى مثل (لجان الطاقة الذرية).

مثال: تشير التقارير في ملفات المخابرت البريطانية عندما بدأت الحرب إلى التطورات التي قام بها الألمان بالنسبة للقنابل الانسيابية والطائرات الموجهة والمدافع البعيدة والصواريخ وأشعة الراديو لاستخدامه في عمليات القذف الاعمى للطيران وعندما ألقى هتلر خطابه المشهور عن انتاا[ألمانيا لأسلحة سرية جديدة، ساد الذعر في بريطانيا.

المراحل التي يمر بها انتاج المخابرات:

١- جمع المعلومات.

٢- تنظيم المعلومات

٣- تحليل المعلومات

٤- توزيع المعلومات.

الاستخبارات العملية:

عندما تكون نظرية الامن وسياسة الامن واضحتين يبان توفر الاستخبارات العملية تحقيق أمرين:

١- جاهزية

٢- استعداد الجيش على المديات العملية الفورية والجاهزية استعداد القوة لمواجهة حالات حدوث مفاجأة على المستوى التكتيكي

٣- تقسم إلى قسمين:

أ- استخبارات لوحدات القوة(قيادة مخططة، قيادة سلاح، قيادة كتيبة، طائرة).

ب- استخبارات لوحدات نار (المقصود كل وسيلة فعالة حرب الالكترونية، رادارات، مدفعية، صواريخ، ذخيرة جوية).

الاستخبارات الأساسية:

واجب هذه المخابرات هو انتاج المعلومات جارية وصادقة عن كل ما لدى العدو من بنية ونظام قوات، انتشار قوة، وتطورات في مجالات مختلفة.

حرب المعلومات والتجسس:

بدأت حرب المعلومات وارهاصاته مع نهاية الحرب الباردة وبعد جرب الخليج الثانية التي أصبحت تعرف بالثورة في الشؤن العسكرية والتجسس من خلال التكنولوجيا الحديثة للمعلومات، بكل ادواتها بدءاً من الحاسبات إلى الأقمار الصناعية وهذا التغيير سوف ينعكس على الشؤون العسكرية وعلى الأمن القومي وفي المقدمة على المخابرات اكثر مؤسسات الدولة احتكاكاً بالمجال المعلوماتي المتنامي التي مازالت تعتقد ان الجواسيس هم في الأصل حرب العلومات وهذا يعكس رؤيتين على نشاط المخابرات:

١- تؤكد على الفرص التي تطرحها التكنولوجية المتقدمة لامتلاك القدرة على اختراق المعلومات المخابرات.

٢- تركز على التجسس والتخريب عن طريق القرصنة داخل شبكات المعلومات العالمية تتضمن أساليب التنصت على الإشارات المرسلة (التجسس الإشاري.أو التقاط الصور، التجسس البصري، وسيلة جديدة لحرب المعلومات تطلق عليها القرصنة والسطو.

٣- تركز على النزاعات الصغيرة في عالم الإرهاب، والجريمة المنظمة، وعصراً جديداً من التجسس البشري من أجل اعادة هيكلة جماعات المخابرات على مستوى العالم ومحاولة التكييف مع انخفاض الموارد.

فن الاخفاء والتمويه:

الحاجة لهذا الفن في الحرب الحديثة ضرورة لإخفاء معالم العامة، والعسكرية والإخفاء والتمويه فن خدمته مخلوقات شتى تمارسه في حياتها العادية، لتكييف نفسها، وطبيعة الوسط الذي تعيش فيه لاستمرار بقائها عن طريق التغيير، ومارسة الإنسان الأول التي تكفل لها داع اعدائها بعدم اكتشاف مكانها ويوفر لها اقتناص فريستها دون اتاحة الفرصة الاخيرة للهروب والنجاة وأمثلة على ذلك كثيرة في عالم الزواحف والطيور والحشرات والأسماك كالحشرات التي تتشكل وتتلون حسب ألوان الشجر والنباتات التي تعيش عليها كالحرباء التي تتلون باللون الأخضر والرمال وقد اقتبس الإنسان كثيراً، من وسائل وطرق الإخفاء، والتمويه المعروفة التي منحها الله سبحانه وتعالى خصائص وصفات ووسائل تمكنها من الاختفاء وخداع أعدائها حتى يمكنها من العيش في بيئتها والاستمرار في حياتها دون ان تتعرض للمخاطر وقد لجأت الجيوش منذ القدم لفن الاخفاء والتمويه فأتقنت استخدامه لتضليل أعدائها.

* * *

سيكولوجية الشائعات

(شائعة التطبيع مع إسرائيل نموذجا)

بعض العرب يقيمون علاقات من نوع ما مع إسرائيل وبعضهم مدعو لإقامة مثل هذه العلاقات، أما البقية من العرب فهي مدعوة لتسوية مشروطة لإقامة مثل هذه العلاقات.

على المستوى الأكاديمي لا توجد خانات خاصة بتسجيل المواقف السياسية الشخصية. فهذا التسجيل ينتمي إلى المستوى السياسي. لذلك فإن التناول الأكاديمي لهذه العلاقات يقتصر على مجالات تحليلها ومحاولة استقرائها على ضوء التجارب التاريخية وأيضاً التبصر بدينامية هذه العلاقات ومحاولة استبصار مستقبلها.

انطلاقاً من هذا الالتزام نجد أن بداية التحليل يجب أن تستند إلينظرية الاستقراء التاريخي لعلاقة اليهود بالآخر وتبين السمات السلوكية والشخصية الجمعية - اليهودية. التي قادت هذه العلاقة وتحكمت فيها عبر التاريخ وعبر الامكنة. حيث نجد أن الذل والخنوع هما الطابع الأساسي المميز للشخصية اليهودية عبر قرون، ثم جاءت المذابح النازية لتعلن أن الأرض لا تتسع لليهود حتى ولو قبلوا عيشة الخنوع والذل. وذلك بسبب ميلهم الفطري للتآمر والخيانة والاحتيال. حتى أنك لتتساءل كيف أتيح لهذا (الشعب) الذليل أن يتحول من وضعية الضحية إلى وضعية الجلاد. وممارسته لوظيفة الجلاد دون أدنى رحمة؟

البعض يعتبر ذلك نوعاً من قيام الضحية بتقليد جلادها، والبعض يعتقد أنها محاولة انتقام تعويضية تجعل الضحية عاجزة عن امتلاك مشاعر الأمان ما لم تمارس العدوان. ومهما يكن فإننا وباختصار شديد يمكننا تحديد النمط السلوكي اليهودي ومتغيراته عبر مراحل محددة نشرحها في الفقرة التالية:

١. النمط السلوكي اليهودي

إن المتابعة التاريخية لعلاقة اليهود مع الأمم الأخرى تقودنا إلى تقسيم هذه العلاقات إلى مراحل زمنية لها طابع التكرار القهري (compulsive) وهذه المراحل هي:

أ ـ المرحلة الأولى: وخلالها يحسن اليهود عرض خدماتهم وإبراز المكاسب التي يمكنهم مساعدة الآخر على تحقيقها، مع التلميح لاحتكارهم للفرص ولملكيتهم لأفضلها. وفي هذا التصرف سلوك غواية وإغراء ملحوظ بوضوح حتى في إطار العلاقات الشخصية لليهودي، وبطبيعة الحال فإن الآخر إذا قبل الإغراء فإنه سيقبل معه تسديد بدل هذا الإغراء والخدمات المرافقة له. وأسلوب الصد والرفض غالباً ما يفشل لأن اليهودي لا ييأس من تكرار المحاولة لأنه يدرك أن هذه هي وسيلته الوحيدة لإقامة علاقة مع الآخر. فإقامة علاقة طبيعية،وغير إغوائية وتآمرية مع الآخر يعني الاعتراف به أي بالاغيار، وهذا يخالف النواميس اليهودية. كما أن التجربة اليهودية تشير إلى ان إقامة علاقة طبيعية مع الآخر تفقد اليهودي مناعته العنصرية وتدفعه للذوبان بالآخر. وبناء عليه فإن العلاقة الطبيعية مع الآخر مرفوضة بصورة مبدئية ومستبدلة حكماً بعلاقة تواطؤ ـ تآمر. والموضوعية التاريخية هنا تفرض علينا تبيان واقعية ذوبان معظم اليهود في علاقات طبيعية مما يعني خروج معظم اليهود من اليهودية إلى أديان ومعتقدات أخرى. ولهذا السبب فإن الأعداد الباقية من يهود العالم هي أعداد ضئيلة بالمقارنة مع الأعداد المفترضة لولا الذوبان اليهودي.

ب ـ المرحلة الثانية: وهي مرحلة الالتفاف حيث يدخل اليهود في مساومة مستمرة مع الآخرين بهدف زيادة حصتهم وتحسين مكاسبهم. وتتحول هذه المساومة بصورة تدريجية إلى الابتزاز. ويكشف اليهود قناعهم ليبدأو بممارسة لعبة السيد والعبد (انطلاقاً من قناعتهم بكونهم شعب الله المختار) وتتكشف

للآخر الحقيقة غير الطبيعية للعلاقة. في حين يمنعه التورط من وضع الحدود لها. لكن ذلك لا يمنع انتظاره للحظة المناسبة للخلاص من هذه العلاقة - الورطة.

ج ـ المرحلة الثالثة: وهي مرحلة انتهاء العلاقة، ونهايات علاقات اليهود مع الآخر. على اختلاف سيناريوهاتها، هي نهايات غير طبيعية تثبت عدم طبيعية العلاقة بمختلف مراحلها.

وهذا النمط السلوكي لا ينطبق فقط على الجماعات اليهودية بل هو ينطبق على الأفراد (بما يدعم هذا التشخيص ويجعله غير قابل للنقاش) وحسبنا التذكير في هذا المجال بصورة المرابي وهي صورة شديدة الواقعية للشخصية اليهودية عبر تاريخها.

وعليه يمكننا أن نقترح هذا النمط السلوكي كهيكلية للعصاب اليهودي الجماعي وهو عصاب يقدم التفسير المنطقي للمذابح اليهودية المتتالية عبر التاريخ اليهودي.

٢. شائعة اسمها «التطبيع»

تعتمد نظرية الاستقراء التاريخي، لدى تطبيقها في مجال المستقبليات. على مبدأ الراهنية، الذي يقتضي أخذ متغيرات الراهن في الحسبان للوصول إلى توقع أكثر دقة حول الطريقة أو النمط الذي سيتكرر الحدث عبره. ولعل أبرز المتغيرات الراهنة هي أن اليهود لم يعودوا أقليات تحتجز نفسها في حارة اليهود (الغيتو) بحيث تتوزع مضالحها بحسب أجواء وظروف المجتمعات التي تقع فيها الحارة. فقد تجمعت هذه الأقليات في دولة دعيت «إسرائيل». وبالتالي فإن الراهن مختلف عن الماضي في نواح عديدة، أهمها أن يهود إسرائيل باتوا يملكون قوة عملية لمواجهة عقدة المذبحة. فتطور هذه العقدة وأمراضيتها الخطرة جعلتا اليهود لا يكتفون بملكية القوة، والمبالغة في أدواتها، بل تخطوا ذلك إلى سلوك عدواني قهري يجعلهم عاجزين عن الشعور بالأمان ما لم يؤكدوا قدرتهم على الاعتداء على الآخر.

من هنا كانت القيادة الإسرائيلية مجبرة على ارتكاب أخطاء استراتيجية عديدة تحت ضغط الجمهور المذعور الذي لا تمكن

طمأنته الا عبر إثبات القدرة الإسرائيلية على العدوان. حتى بات بالإمكان الحديث عن تطور عقدة المذابح إلى جنون الاضطهاد. ونتوقف هنا للاستشهاد بأقوال مؤسس

التحليل النفسي (وهو فرويد اليهودي) الداعمة لتشخيص جنون الاضطهاد والمؤكدة بأن هذا الجنون، مع ما يصاحبه من هذاء العظمة المرضي، موجود في صلب الشخصية اليهودية. بما يجعل من المذابح اليهودية والاعتداءات الإسرائيلية نتيجة لهذا الجنون وليس سبباً له. إذ يقول فرويد في كتابه «موسى والتوحيد» والنص الحرفي ما يلي:

... أنه لما يبعث على دهشة اكبر أيضاً أن نرى الإله اليهودي (يختار) لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليجعله «شعبه المختار» ويعلن أنه إلهه، وهذه واقعة غريبة في تاريخ الأديان الإنسانية.

... لقد كانت الشروط السياسية تتنافى مع تحول الإله القومي (اليهودي) إلى إله كوني (لكل البشر)، فمن أين تأتي لهذا الشعب

الصغير البائس والعاجز صلف الإدعاء بأنه الابن الحبيب للرب؟.

... لقد كان لنسبة دين يهوه الجديد إلى الآباء الأوائل هدف انتحال هؤلاء الآباء الذين عاشوا في كنعان وارتبطت ذكراهم ببعض الأمكنة في البلاد. ولعلهم كانوا أبطالاً كنعانيين أو آلهة محليين انتحلهم اليهود المهاجرون ليدمجوهم بتاريخهم القديم، بما يعادل أشهار ارتباط اليهود بالأرض (زوراً) واتقاء للكراهية التي تلاحق المستعمرين. وبفضل هذه المناورة البارعة (أي الاحتيال التاريخي) ساد الادعاء القائل بأن كل ما فعله يهوه هو أنه أعاد إلى اليهود ما كان ذات يوم ملكاً لأسلافهم.

وهكذا فإننا إذ نقبل ربط جنون الاضطهاد (البارانويا) اليهودي بالمذابح اليهودية فإننا نقدم تنازلاً لا يقبل به فرويد اليهودي، ومع ذلك نقبل هذا الربط حتى نتجنب ثقل الراهن الذي يجعل تهمة «معاداة اليهود» جاهزة لكل من يحاول رد الحوار مع اليهود إلى العقلانية. وبطبيعة الحال فإننا لا نخشى هذه التهمة إلا أننا نريد تجنب الجدل الجاهز الذي يحيد بأية مناقشة

من هذا النوع عن العقلانية. مهما يكن فإن تكرار دورة التاريخ اليهودي راهناً لا بد لها من أن تأخذ في حسبانها أن اليهودي لم يعد يقيم علاقته مع الآخر انطلاقاً من الغيتو

ومن موقع الانتماء لأقلية. (وهو يفرض عليه التنازلات ويجعله أقل تهوراً وأكثر تحسباً للمستقبل. وهي أمور تجعله أقل عدوانية ظاهرية وبالتالي فإنها تجعله أكثر ميلاً لاعتماد السلوك الاحتيالي). فاليهودي المعاصر يتعامل مع الآخر انطلاقاً من انتمائه لدولة تحظى باعتراف المجتمع الدولي. وهذه الدولة جاهزة لاحتضانه متى يشاء لمجرد كونه يهودياً. بل أن هذه الدولة جاهزة لحمايته، حتى ولو لم يكن حاملاً لجنسيتها، في حال تعرض للملاحقة القانونية في أي بلد من بلدان العالم. حتى لو كان هذا البلد هو الولايات المتحدة نفسها. وهكذا فإن تحول اليهودي إلى اسرائيلي (سواء حمل الهوية الإسرائيلية أم لا) جعله يطلق العنان لعدوانيته المكبوتة وأصبح أقل ميلاً لاعتماد السلوك الاحتيالي واستعاض عنه بالسلوك العدواني سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي. وهذه الجرعة الإضافية من العدوانية تجعل اليهودي عازفاً ومتمنعاً عن التنازل أمام الأغيار (الغوييم) لدرجة معاملتهم بصورة طبيعية (أي كأنداد). وهذا يعني أن ما اصطلح على تسميته بالتطبيع هو مجرد شائعة كاذبة لا سند لها سوى أحابيل الاحتيال الإسرائيلي. لكن ماذا عن النمط السلوكي الإسرائيلي؟.

٣. النمط السلوكي الإسرائيلي

وفي عودة إلى «التطبيع» نجد أنه يمثل النمط السلوكي الإسرائيلي (بديل النمط اليهودي). وبمطابقته مع الراهن السياسي (تحول اليهود من مجموعة أقليات إلى دولة) نجد تبدلاً في بعض تفاصيل مراحله، بحيث تصبح هذه المراحل كالتالي:

أ ـ المرحلة الأولى: تركز إسرائيل محاولاتها لإغواء العرب بالدعوة إلى الجمع بين التكنولوجيا والعصرنة الإسرائيلية وبين رؤوس أموال العرب الأغنياء وبين الأيدي العاملة الرخيصة للعرب الفقراء. وفق هذه الصيغة تطرح إسرائيل اتحاداً شرق أوسطياً (تختلف التسميات باختلاف السيناريوهات) بينها وبين العرب. وتؤكد بالإيحاء وبالطرق المباشرة على المكاسب التي سيجنيها العرب من مثل هذا الاتحاد. الذي يؤمن استثمارات مربحة للعرب الأغنياء وحياة أكثر رفاهية للعرب الفقراء. أما حصة إسرائيل فإنها ستكون (بحسب هذا الطرح الإغوائي) أقل بما لايقاس مع ما يدفعه العرب حالياً كثمن

لاستيراد الخبرات التكنولوجية من مصادر أخرى!. بعض العرب وقع في هذا الإغراء لدرجة اقتنع معها بأن إسرائيل تقدم للعرب فرصة النهوض وهي فرصة غير قابلة للتعويض! بل ربما كانت الصيغة الاتحادية الإسرائيلية هي الصيغة المنطقية الوحيدة لتحقيق تعاون عربي فعلي يتخطى التناقضات العربية الراهنة! ولاداعي للتذكير بأن امبراطورية الإعلام الأميركي (واليهودي منه خاصة) تدعم هذه الإيحاءات وتغذيها.

ولكننا نقف لنسأل: هل تعني هذه الصيغة اعترافاً بالعرب كآخر؟ وبمعنى أدق هل إسرائيل ويهودها مستعدون للتعامل مع العرب كبشر متساوين معهم في الحقوق والواجبات؟ فهذا الاستعداد شرط لايمكن تجاوزه لاعتبار العلاقة طبيعية. وإسرائيل عاجزة عن تحقيق هذا الشرط لأنه يتناقض مع مبادئ الديانة اليهودية، فتطبيقه يعني التخلي عن أسطورة « شعب الله المختار». ومن حقنا التأكيد على عجز أي زعيم أو حزب أو جماعة إسرائيلية عن تنفيذ هذا الشرط. وذلك بشهادة التاريخ اليهودي وبدليل اغتيال رابين وهو على بعد عقود زمنية من الخضوع لمثل هذا الشرط.

وبهذا يتأكد لنا أن مصطلح «التطبيع» هو مجرد شائعة إسرائيلية الصنع وأميركية التسويق. والواقع أن لهذا المصطلح مفهوماً لغوي أخر (Linguististique)وهو إقامة شراكة مصالح بين الإسرائيليين والعرب، وهي شراكة لا يمكنها أن تختلف عن مبادئ الشراكة في النمط السلوكي اليهودي المشروح أعلاه. ولكن ماذا عن المرحلة التالية؟ أو بمعنى آخر ما هي التصورات الإسرائيلية للمرحلة التالية لما تسميه بالتطبيع؟

ب ـ المرحلة الثانية: وتمثل دينامية التطور المستقبلية للشراكة العربية الإسرائيلية. وفيها أن تفوق العرب من حيث الثروة والعدد يجعل إسرائيل في وضعية الشريك الاضعف الذي يطالب بضمان حقوقه، حيث بدأت ملامح هذه المرحلة بإعلان إسرائيل الرسمي (عممته وسائل الإعلام العالمية) عن خوفها من التحول إلى مجرد سوبرماركت عربي!. وعلى هذا الاساس فإنها تتطالب بجملة ضمانات إضافية أهمها الإصرار الحفاظ على التفوق العسكري الإسرائيلي والاستمرار في رفضها التوقيع على معاهدة الاسلحة

النووية ونكرانها ملكية أسلحة الدمار الشامل. كما أن ادعاء الخوف هذا يتيح لإسرائيل أن تظهر مرونة (كاذبة) أثناء المفاوضات ثم تتراجع عنها تحت ضغط الرأي العام الإسرائيلي المذعور! وهكذاتتمكن إسرائيل من تحويل أية مفاوضات تخوضها إلى مجرد عملية احتيال قوامها إطلاق وعود لا تلتزم بتنفيذها ولكنها تلتزم بالاستفادة من التنازلات العربية التي تقدّم مقابل تلك الوعود!

مع ذلك نجد أن الولايات المتحدة تضغط على كافة الأطراف العربية، وتضعها تحت وطأة الحصار الاقتصادي متعدد الدرجات، للموافقة على الشروط الإسرائيلية اللامعقولة، وبعض العرب استجاب لهذه الضغوطات فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة كانت متابعة إسرائيل لمراحل النمط السلوكي اليهودي. وهي متابعة سجلت في نطاقها الخطوات التالية:

١ ـ مطالبة إسرائيل بحقوق اليهود في الدول العربية مع تجاهل كلي للعدوانية المجرمة التي مارسها هؤلاء اليهود بحق مجتمعاتهم ولصالح الدولة اليهودية، وذلك بحجة أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي يبرر هذه العدوانية!

٢ ـ إعادة إحياء حارات اليهود في الدول العربية لإعادة تصدير بعضهم لخلق مواقع نفوذ إسرائيلي متقدمة داخل هذه الدول، وأيضاً للخلاص من بعض اليهود الشرقيين المطالبين بحقوقهم.

٣ ـ محاولة إسرائيل لعب دور الوسيط ـ الحكم في التناقضات والخلافات العربية ـ العربية وهذا ما أعلنه رابين

صراحة عندما دعا إلى استبدال تسمية الجامعة العربية بالشرق أوسطية والى قبول إسرائيل عضواً فيها. ومن مراحل هذا الدور:

أ ـ الوساطة بين العرب الأغنياء وأولئك الفقراء. عن طريق إغراء الأغنياء بتمهيد الطريق لهم لدخول نادي الدول الرأسمالية(يقوم اليمين الإسرائيلي بهذا الدور)، وذلك مقابل احتضان وتحريض العرب الفقراء(يقوم بها اليسار الإسرائيلي). وتوزيع الأدوار

هذا يقدم الإجابة على الفرضية الساذجة القائلة بأن السلام مع العرب يؤدي بإسرائيل إلى فقدان العدو بما يفتح أبواب الصراع اليهودي - اليهودي ويفجر تناقضات الداخل الإسرائيلي.

ب - إقامة علاقات منفردة مع كل قطر عربي على حدة،وتقديم خدمات تواطؤية - تآمرية خاصة لكل قطر من هذه الأقطار وابتزازها كل على حدة. حيث لم تنتظر إسرائيل نهاية المفاوضات لممارسة هذه السياسة الاستفرادية، بل هي أصرت على استفراد العرب أثناء المفاوضات. اذ رفضت الاستمرار فيها إلا بعد تحقيق هذا الاستفراد الذي تدفع ثمنه حالياً الجهات العربية التي تسابقت للحصول على جنة الشراكة مع إسرائيل فحصدت الأوهام والابتزاز.

ج - تفجير مشاكل الأقليات العربية وإدخالها في متاهات التجاذب مع الأقطار التي تنتمي إليها. بحيث تتحول هذه الأقليات إلى أوراق ضغط إسرائيلية. وذلك بحيث تمنع إسرائيل هذه الاقليات من التكامل في مجتمعاتها (بتغذية نعراتها) وكذلك بعدم تقديم الدعم الكافي لها كي تصل لأهدافها أو لحلول مقبولة مع سلطات بلادها. ولعل مراجعة بسيطة للمسألة الكردية من شأنها أن تفضح أمامنا إمكانيات استغلال الأقليات والتضحية بها عند الضرورة بحيث تصبح عاجزة عن اعتناق المواطنية الكاملة وعن التمسك بخصوصيتها، وهذا ما يحول شعوب هذه الأقليات إلى لاجئين ومهاجرين عاجزين عن العيش في ظروف طبيعية في أرضهم.

٤. التطبيع والمطبعين

إن حلم الزواج بين القدرات العربية والتكنولوجيا الإسرائيلية هو حلم الزواج بدراكولا أو بالساحرة العجوز الشريرة(بعد أن سحرت نفسها فتنكرت بشكل فتاة جميلة). إلا أن من يستوعب النمط السلوكي اليهودي(ومن يملك القدرة على طرح السؤال عن سبب ذبح اليهود عبر التاريخ وأيضاً من تعامل مع تجمعات يهودية) يمكنه أن يكتشف خداع هذا الحلم وعدم مصداقيته.

سيكولوجية الشائعات الأميركية

الصراعات الدائرة في عالمنا تشير إلى أن الحرب الباردة تفرعت من آحادية مع الاتحاد السوفياتي إلى حرب متعددة الرؤوس. فما يجري بين اميركا بوش وأوروبا القديمة هو أحد فروع الحرب الباردة الجديدة. ومثلها الخلافات مع الصين وكوريا الشمالية والعالمين العربي والإسلامي وغيرها... حتى أمكن القول أن فقدان أميركا للعدو الشيوعي كان وبالاً عليها فخلف لها قائمة من الأعداء الموزعين حول العالم وعلى صعد متعددة.

وها هي الولايات المتحدة تخوض هذه الصراعات معتمدة على مباديء الحرب النفسية التي إستعملتها في حربها الباردة مع الاتحاد السوفياتي. فهل ضمنت الولايات المتحدة الحصانة ضد هذا النوع من الحروب؟. أم أنها كسائر الدول عرضة للتأثر بالحرب النفسية وبالشائعات خصوصاً؟. وبمعنى أدق هل تؤثر أخبار العراق وشائعاته على الجمهور الأميركي؟.

شروط انتشار الشائعة؟.

يجيب الأخصائيون على هذا السؤال من خلال مناقشتهم لحادثة المفاعل النووي في جزيرة ثري مايل في بنسلفانيا. فقد أثارت هذه الحادثة عدداً من الشائعات التي يمكن اتخاذها كمثال لدراسة أسباب انتشار الشائعة وأسباب تكرار ظهور بعض الشائعات بصور مختلفة.

ظهرت الأخبار الأولى عن الحادث الذي جرى في المنشأة النووية في جزيرة ثري مايل بالقرب من هاريسبورغ في بنسلفانيا في ٢٨ آذار ١٩٧٩ وبعد ثلاثة أيام انتشرت شائعة في المدن المجاورة تقول بأن المفاعل سينفجر. وتمضي القصة قائلة بأن الانفجار سوف يدمر كل شيء على مساحة أميال حوله وينفث الإشعاع النووي في مناطق واسعة. وعلى الرغم من وجود مخاطر حقيقية كثيرة فلم يكن هناك خطر انفجار وشيك. ولتأكيد هذه النقطة ظهر هارولد رابي دانتون من لجنة تنظيم الشؤون النووية على التلفزيون ليعلن

بوضوح أنه على الرغم من أن مفاعل المنشأة لا يزال تحت خطر جدي فإن غاز الهيدروجين المجتمع فيه لم يصل بعد إلى درجة قريبة من درجة الانفجار.

كما أنه لم يكن هناك احتمال لانفجار نووي من مستوى قنبلة هيروشيما وحصول انفجار كيميائي لغاز الهيدروجين سيكون أقل قوة بكثير. على الرغم من أنه قد يتسبب بحصول تصدع في غلاف الوعاء الحاوي مما يؤدي إلى نشر الإشعاع النووي في المنطقة الريفية المجاورة. وكانت شائعة الانفجار واحدة من عشرات الشائعات التي سرت في منطقة هاريسبورغ وجوارها في الأيام التي أعقبت الحادثة. ذلك لأن حادثة جزيرة ثرى مايل كانت مثالا رائعا للظروف المؤاتية لانتشار الشائعات. ففي الدرجة الأولى كانت النتائج المحتملة للحادث قاسية وكانت تشكل تهديداً للحياة نفسها. ثانياً، كان هناك قلق كبير وحيرة بين الأهلين الذي كانوا يحاولون اتخاذ قرار حول ما إذا كان عليهم الفرار من بيوتهم أم لا.

فكم من الناس،عدا المهندسين والعلماء، يمتلكون فهماً كافيا لكيفية تمديد الأنابيب في المنشآت النووية؟. وكان هناك جانب مرعب آخر في الحادثة وهو يتمثل في طبيعة العدو الغامضة، فقد كان ذلك العدو إشعاعاً مميتاً لا يرى ولا يمكن التنبؤ بنتائجه.

وفي محاولة لإيقاف موجة الشائعات أفتتح الحاكم ديك ثورنبرغ مركز السيطرة على الشائعات في هاريسبورغ وكان يمكن لأي شخص أن يتصل بالهاتف بهذا المركز ليحصل على الحقائق. وعندما بدأت بعض الشائعات المتفائلة بالانتشار، شعر جويل ثمروتالر وهو أحد مسئولي طوارئ الولاية في المنطقة بأن الأمر يشبه ما يحدث في رواية روسية بقوله:... ويستمر الوضع في الهبوط والهبوط، والهبوط حتى نرى أنه لم يعد هناك مجال للمزيد من الهبوط، ثم يحدث شيء ما ويبدأ الصعود....

لقد مررنا بأسبوع من الشائعات الفظيعة أما اليوم فهناك ما يمكننا أن نحسبه شائعة طيبة. ولكن الناس ستفقد ثقتها بالأخبار الطيبة لفترة من الزمن في حال حصل تسرب إشعاعي جديد،أوأي إنذار آخر من أي نوع هناك، في المنشأة. فعندها لا أظن أن

ثقة الناس التي ضعفت بسبب الحادث سوف يمكنها أن تتحمل ذلك، وهذا الآن ما يثير قلقنا أكثر من قضية الإجلاء.

ومع أن الشائعات التي نجحت عن حادثة جزيرة ثري مايل كانت من النوع القصير الأمد، فإنها بالتأكيد سوف تعاود الظهور لدى حصول أية أزمة مشابهة في المستقبل. فحتى الشائعات التي تبدو تافهة تغوص في أعماق النفوس ليس لأنها تكون موضوعا للقيل والقال، والثرثرة الاجتماعية المثيرة بل لأنها تلامس الحيرة والقلق العميقين السائدين في زمن الشائعة. فقد حصل في سنة ١٩٧٨ مثلاً أن ظهرت شائعات حول بعض المنتجات الغذائية المشهورة، وتقول أحدها أن شركة ماكدونالد، تضيف الديدان إلى سندويشات الهامبرغر التي تنتجها لتقوي المحتوى البروتيني فيها. وتقول شائعة أخرى أنك إذا ما شربت الصودا وأكلت حلويات من ماركة بوب روكس فسوف تتفجر معدتك. وحدث أن ذكر مذيع احدى الإذاعات هاتين الشائعتين وسارع إلى القول بأن كلتا الشائعتين على خطأ ولكنهما انتشرتا في مناطق مختلفة من البلاد خلال تلك السنة.

وقد اضطرت شركة ماكدونالد وشركة جنرال فودز،منتجة بوب روكس، إلى إنفاق آلاف الدولارات في مجالات إعلانية ونشاطات أخرى لدحض الشائعات. وتعتقد شركة ماكدونالد أن قصة الديدان بدأت في الصيف السابق في مدينة تشاتانوغا في ولاية تينيسي.

وكانت الشائعة في البداية تقول بوجود عنصر غامض في سندويشات هامبرجر وهي شركة منافسة لماكدونالد. ويلاحظ أحد علماء النفس أن الخوف من وجود الديدان في الهامبرجر هو خوف معقول ومبرر لأن لحم الهامبرجر النيئ يفرم بشكل لولبي يشبه الديدان، ولكن سرعان ما لنتقلت الشائعة لإلصاق صورة الديدان بسندويشات ماكدونالد. وظهرت قصة حلويات بوب روكس في غضون أسبوع واحد من إطلاق هذه المادة في إحدى مناطق البلاد وتقول الشائعة أن أحد الأولاد في الجانب الآخر من المدينة أو أحد مشاهير التلفزيون قد أكل ثلاثة أكياس من تلك الحلويات بينما كان يشرب الصودا فمات من جراء الانفجار الذي حصل بعد ذلك في معدته.

وتستهوي هذه الشائعات حول ماكدونالد وبوب روكس أكثر ما تستهوي الأطفال الذين يحبون قصص الشقاوة والقصص الفظيعة. ونستطيع أن نتصور كيف أن الأطفال الذين يروجون مثل هذه القصص يباهون أمام رفاقهم بأنهم أكلوا من هذه المنتجات وبأنهم من المغامرين. لكن هناك ما هو أكثر وأعمق من ذلك فاستمرار هاتين الشائعتين في الرواج قد يفسره القلق والحيرة الشائعتين في المجتمع حول ما يضاف إلى المنتجات الغذائية والكولسترول والمخاطر الصحية في بعض أنواع الطعام الذي تتناوله والتوترات والمخاوف التي تنتقل من الأهل إلى الأطفال.

ويكفينا بالنسبة لهذه الدراسة أن نعرف الشائعة بأنها رواية منتشرة بين الناس دون أن يكونوا متأكدين من صحتها. وقد تعلم علماء النفس الكثير عن نشوء مثل هذه القصص وانتشارها منذ ظهور كتاب (علم النفس الشائعة) لغور ودون والبورت وبوستمان وهذا الكتاب هو أصل الأعمال في هذا الحقل.

هذا ويعتمدون قانون الشائعة الأساسي حسب هذا الكتاب،وهو القانون الذي كان مقبولا حتى وقت قصير مضى، يعتمد جزئيا على نظرية الجيشتالت في علم النفس. التي تؤكد على أن الإدراك الحسي للأشياء ينحو دائما نحو البساطة والانتظام والإحساس بالاكتمال. وبأن الشائعات تنبثق لتشرح المواقف المميزة التي تهمنا ولتريحنا من توتر الحيرة. ويفترض البورت وبوتسمان أيضا أن عدد الشائعات يتغير حسب أهمية موضوع الحدث ومقدار الغموض في الموقف.

بالرغم من القبول الواسع الذي لقيه هذا القانون الأساسي في علم النفس الاجتماعي فإنه لم يثبت تجريبياً. وتشير نتائج تحقيقات عديدة الآن إلى أن هناك متغيرات أخرى بالإضافة إلى الأهمية والغموض تؤثر على منشأ الشائعات ودوامها. فقد قامت الدارسة في علم النفس الاجتماعي سوازان انطوني،في كلية ثمالوديت في واشنطن، بإحدى هذه الدراسات. وهي قامت مؤخرا باختبار الفكرة المتضمنة في إحدى نظريات كارل يونغ والتي تقول: «إن الإثارة العاطفية ضرورية لاستمرار حياة الشائعة». وقد أجرت

أنطواني اختبارا قياسيا في القلق المزمن لعدد من الطلاب الثانويين في فيلادلفيا، وعلى أساس نتائج الاختبار قامت باختيار الطلاب الذين كانوا يتميزون إما بدرجة عالية من القلق أو بالهدوء النسبي. ثم إختارت بضعة طلاب من كل نوع وأخضعتهم لمقابلة مع مرشد توجيهي للتحدث حول النوادي التي كانوا ينتمون إليها. وخلال تلك المقابلة قام المرشد،بطلب من الباحثة، بإطلاق شائعة تقول بأن صعوبات مالية قد تجبر النوادي على وضع حد لبعض أنشطتها ثم ذهب المرشد بعد ذلك تاركاً الطلاب مع أعضاء آخرين في النوادي.

عندما سئل الطلاب فيما بعد إذا كانوا قد ناقشوا الشائعة فيما بينهم وجدت انطوني أن الطلاب ذوي الدرجة العالية من القلق نشروا الشائعة بحماس أكثر كثيرا مما فعله الطلاب الآمنون.

وقد قام الباحث روسنو بالعمل مع أنطوني والعالمة النفسية ماريان جايفر بيريان من مدرسة لندن لاقتصاد في تجربة كان من شأنها أن أثبتت ووسعت ما اكتشفه أنطوني في تجربتها. وقام هؤلاء بإجراء دراسة في ثمانية من صفوف الكلية فنشروا شائعة تقول إن طلاباً في صفوف أخرى قد ضبطوا وهم يدخنون الماريجوانا في امتحان نهائي. وكانوا قد قاموا قبل بضعة أيام بقياس درجات القلق المزمن عند الطلاب متبعين المثل الذي وضعته أنطوني في تجربتها السابقة، وبعد أسبوع سأل الطلاب إذا ما كانوا قد نشروا القصة.

وكانت النتائج التي توصل اليها الباحثون بالإضافة إلى الأبحاث التي نشرت في كتاب (الشائعة والقيل والقال، وعلم النفس الاجتماعي والشائعة) الذي ألفه روسنو بالاشتراك مع العالم الاجتماعي غاري ألان) إن هذه الأبحاث تدعم النظرية التي تقول إن الشائعة ننتج عن الامتزاج الأقصى بين الحيرة والقلق. وباختصار، فإن الشائعة تعيش إما لتحقيق الحاجات والتوقعات التي إثارتها أو حتى تخفض مستوى القلق.

كان القانون الأساسي لدى البورت وبوتسمان يتفاعل مع الشائعات القصيرة الأمد التي تنتعش في غياب الأدلة التي تنقضها. ولكنها سرعان ما تحدث عندما تجد ما يدفعها

أو عندما تصب في نواح ذات مغزى بالنسبة لحاجات الجمهور. وهناك حاجات وتوقعات لا تسكن ولا تهدأ ومن بينها الحاجة لفهم الوضع الإنساني والجوع لما هو فوق الطبيعة. مما يجعل من الشائعة حاجة إنسانية واجتماعية. لذلك فإن أهم الشائعات هي تلك التي تستجيب لهذه الحاجات فتعاود الظهور تكراراً وتتجذر في بنية المجتمع الإيمانية والفلكلورية.

وقد كان الناس منذ قرون ولا يزالون يتبادلون الشائعات غير المألوفة التي كان أبطالها غالباً من المخلوقات الأسطورية أو الوحوش أو من القادمين من كواكب أخرى.

وكان يونغ يسمي هذه الحكايات بالشائعات التخيلية أو بالأساطير الحية، وكان يعتقد بأن الشائعات العادية تعتمد على الحشرية والسعي وراء الأشياء غير العادية أما الشائعات التخيلية فتحتاج إلى شيء غير ذلك إذ تحتاج إلى عاطفة عميقة مشتركة بين العديد من الناس. وكان يونغ ينظر إلى حكايات الصحون الطائرة كشائعات تخيلية ناجمة عن توتر عاطفي وكرب جماعي من حالة العالم. إضافة إلى رغبة لا واعية بمجيء قوة خارقة من ما وراء الطبيعة للتخفيف من المخاوف. فمشاهدات من نوع الصحون الطائرة يبلغ عنها منذ القرن السادس عشر. إلا أن هناك تزايداً في الإبلاغ عن هذه المشاهدات عم العالم كله منذ الأربعينيات من هذا القرن. ويبدو أن حكايات معاصرة عن الصحون الطائرة وركابها تدعم تفسير يونغ. ومعظم هذه الحكايات تتركز إما حول مخلوقات عليا طيبة أتت لإنقاذ الإنسانية أو حول مخلوقات شريرة بتهديها أهل الأرض بأجمعهم وتلعب دوراً في توحيد أصحاب العقائد المختلفة ضد عدو مشترك.

ومن أقدم الشائعات التي راجت في الولايات المتحدة مجموعة من الروايات حول الأطفال الشيطانين. وأول هذه الروايات المذكورة تدور حول طفل افترض أنه ولد لامرأة تدعى السيدة ليذر من ليدزيونيت في ولاية نيوجرزي في عام ١٧٣٥. وتقول الرواية إن السيدة لم تكن راضية بعيشها في الحياة، وأنها كانت أماً لإثني عشر طفلا وأنها لذلك دعت إبليس لأن يلعن حملها الثالث عشر. وتمضي الرواية قائلة إن الطفل نبتت له

مع مرور الوقت أجنحة وذيل كذيل السحلية وحوافر ووجه كوجه الحصان. وكما يمكننا أن نتوقع فإن شيطان ليدز، المعروف أيضا باسم شيطان جرزي لا يموت. وكان يشاهد لسنوات عديدة في النواحي الجنوبية لنيو جرزي. وخاصة في المستنقعات في منطقة باينباريتز. وفي القرن التاسع عشر سرت شائعة مفادها أن أحد القضاة المحليين قد عقد صداقة مع ذلك الوحش. وكان الاثنان يتناولان طعام الإفطار سوية ويتباحثان في الشؤون السياسية. ويبدو أن ذلك الشيطان كان لا يزال حياً حتى عام ١٩٦٦ وبصحة جيدة. فقد روى أحد جنود الولاية أنه شاهد أثر حافر أكبر من كف الإنسان، وقد أطلق هذا الكلام موجة جديدة من التكهنات حول ذلك الوحش الشيطاني. ويمكن تفسير بعض الشائعات القديمة أيضا بكونها انعكاسات للصور الخطية الأصلية وموت الأبرياء. وهي فكرة تتناقلها الأجيال المتعاقبة في تراثها وتشكل أحد الموضوعات التي تستمر في العيش في التراث والأساطير الشعبية.

ولقد سرت شائعة من هذا القبيل في الولايات المتحدة في أواخر عام ١٩٦٩ تقول إن بول ماكارثي عضو فرقة البتلز الغنائية قتل في حادث سيارة وأن بديلا له أخذ مكانه. وسرت الشائعة كالبرق عبر البلاد وتناقلتها صحف الجامعات والأحاديث بين الطلاب تغذيها الهمزات والتلميحات. وتشبه شائعة ماكارثي أسطورة الإله الإغريقي ديونيزيوس، الذي قيل إنه لقي مصرعه بعنف ثم أعيد إلى الحياة. هذا ويؤكد دارسو الكوارث أن المواقف الكارثية تنتج نوعا غريباً من الشائعات الدائرية التي تبدو في ظاهرها مثيرة للقلق ولكنها في الواقع قد تؤدي إلى خفضه. فالناس الذين يتجمعون مصادفة في أعقاب كارثة ما، مثلا قد يتناقلون بعض الشائعات التي يمكن أن تؤدي إلى التخفيف من القلق حول المشاكل المشتركة. فبعد الزلزال الذي حصل في الهند في عام ١٩٣٤ مثلا سمع الناجون شائعات بوقوع كوارث أسوأ. ويفترض عالم النفس ليون فيستنفر في كتابه (**نظرية التفاوت المعرفي**) أن الشائعات ساعدت في تخفيض التفاوت العاطفي الناجم عن شعورهم بالذنب لبقائهم على قيد الحياة بعد الزلزال. ويمكننا القول بأن إعطاء الناجين من الزلزال شائعات ترعبهم فإن هذه الشائعات سوف تساعد في

صرف انتباههم عن القلق الذي ينتابهم لكونهم نجوا من الكارثة بينما هلك أصدقاؤهم وأقرباؤهم. وبما أن الشائعات تفسر الأحداث وبذلك تخفف من التوتر الذي ينجم عادة عن الغموض، فهي تنتعش في أجواء السرية والتنافس. ويعلم العاملون في المكاتب مثلا، كيف تسري الشائعات، بسرعة عبر ممرات المكاتب عندما يستلم رئيس جديد أو عندما تنتقل المكاتب إلى بناء آخر...الخ. والشيء نفسه يحصل عندما يتفاوض رؤساء الدول فتنتج المفاوضات طوفاناً من الشائعات عن سير المفاوضات.

ونعطي مثالاً على ذلك شائعة عالمية خطيرة سرت عام ١٩٧٧ عندما ألقي القبض في موسكو على المراسل الصحفي الأميركي روبرت توث من صحيفة لوس أنجلس تايمز بتهمة الحصول على أسرار رسمية حول الأبحاث السوفيتية في حقل الإدراك الحسي. وعقب ذلك نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً في صفحتها الأولى ألمحت فيه إلى احتمال وجود علاقة بين حادثة إلقاء القبض على المراسل وبين تصريح أدلى به رئيس الحزب الشيوعي السوفياتي بريجينيف (أشار فيه إلى سلاح جديد غامض أكثر هولاً من أي سلاح عرفه العالم حتى الآن. وهناك دليل على أن بريجينيف كان يشير إلى الأبحاث حول الإدراك فوق الحسي). ولكن بالنظر إلى العلاقة السوفياتية الأميركية المتوترة في ذلك الحين. فإن تصريح بريجنيف كان غامضاً بما فيه الكفاية ليطلق شائعات مفادها أن الاتحاد السوفياتي هو في سبيله للتحضير لشيء ما يمكن تسميته ب « حرب العقل ». وقد تختفي مثل هذه الشائعات لسنوات ثم تظهر في يوم ما وتجتاح البلاد.

ومن الأمثلة المثيرة على مثل هذه القصص قصة مزحة الملفوف الكبرى. وهي شائعة انطلقت في واشنطن في الأربعينيات من القرن الماضي كردة فعل على حملة ضبط الأسعار خلال الحرب العالمية الثانية. وتقول القصة إن مكتب ضبط الأسعار أصدر مذكرة حول تحديد أسعار الملفوف. ولم يكن هناك شيء غير عادي في المذكرة سوى أن المذكرة كانت تتألف من ٢٦٩١١ كلمة. وانتشرت قصة المذكرة في الأوساط الحكومية لفترة من الزمن مسببة الإحراج الذي سببته لأهل البيروقراطية الإدارية ثم اختفت وعادت القصة إلى الظهور عام ١٩٥١ في مؤتمر عقدته رابطة صانعي الألبسة الجنوبية، عندما قدم عريف

المؤتمر مدير مكتب تثبيت الأسعار وقال مازحاً أن خطاب غيتيسبيرغ كان يتألف من ٢٩٩٧ كلمة وكانت الوصايا العشر تتألف من ٢٦٦ كلمة. وتضمن إعلان الاستقلال ١٣٤٨ كلمة بينها تضمنت مذكرة مكتب تثبيت الأسعار ٢٦٩١١ كلمة. وظهرت القصة خلال الأشهر التالية في عشرات الصحف مع بعض التحريف أحيانا. فقد قالت بعض الصحف أن مكتب تثبيت الأسعار أصدر مذكرة من ٢٦٩١١ كلمة لضبط أسعار أبواق الضباب. وقد عاشت كلتا الروايتان عن مذكرة الملفوف لبضع سنوات ثم اختفت لتعاود الظهور في نيسان ١٩٨٨ عندما عادت الشائعة إلى ظهور ثانية. وكان ظهورها هذه المرة في إعلان لشركة موبيل نشر في صحف مشهورة ويظهر في الإعلان شكل كرتوني يدعى بابيلدني بيت وهو يعد كلمات الصلاة وخطاب غيتيسبرغ وإعلان الاستقلال ثم تساءل كيف إذن تحتاج الحكومة الاتحادية إلى ٢٦٩١١ كلمة لتصدر مذكرة لضبط أسعار الملفوف؟!.

وكان للصحافة دورها إذ ذكر والتر كرونمكايت، الرواية في نشرة الأخبار المسائية في أحد التلفزيونات المحلية التابعة لشبكة سي بي أس، وفي هذه المرة اتخذت الشائعة أبعاداً دولية ومرت بتحول جديد. وقد نقلت جريدة لندن كلاماً لأحد الخطباء في مؤتمر غذائي جاء فيه « إن في الصلاة ٥٦ كلمة وفي الوصايا العشر ٢٩٧ وفي إعلان الإستقلال الأميركي ٣٠٠ كلمة أما في التوجيه الإداري للسوق الأوروبية المشتركة حول تصدير بيض البط فهناك ٢٦٩١١ كلمة.

إن هذا النط الدائري لشائعة الملفوف يعكس المد والجزر في الحيرة والقلق اللذان ينتابان المجتمع الأميركي. فحيثما يكون هناك شعور بالقلق من الحكومة وحيرة حول نواياها ومصداقيتها تعود الشائعة إلى الظهور وهذا ما حصل بعد فضيحة ووترغيت. حيث قصة الملفوف تعزز المخاوف القديمة من عدم كفاءة الأجهزة الحكومية ومن الأسلوب البيروقراطي في إصدار التعليمات ذات الكلمات الجوفاء الغامضة وتكرار سماع الشائعة يعزز إمكانية تصديقها في بداية الأمر، ولكن هذا التكرار يؤدي إلى عكس ذلك عندما تنخفض حدة الحيرة والقلق. وعندما يصل القلق إلى نقطة دنيا تختفي الشائعة ولكن مؤقتا.

في العادة تتراجع الشائعات عندما يصبح المجهول معلوماً وتزول أسباب الغموض. ولكن المواضيع والأفكار العميقة المتضمنة في بعض الشائعات تبدو كأنها لا تموت وهي تصبح جزءا من البنية الاعتقادية للمجتمع وانعكاساً لما يشغل بال الناس ولما يحلمون به. إن طرفة الملفوف شائعة حديثة العهد نسبياً ولكن أمثالها من الشائعات تعمر طويلا. ومن المحتمل أن تعيش طالما كان هناك بيروقراطيون وكان توماس كارلايل وقد وصف التاريخ بأنه عملية تقطير للشائعات: وإن أوهامنا تتفاعل مع احتياجاتنا وآمالنا وينتج عن هذا التفاعل ظروف خصبة تعيش فيها الشائعات التي تنتشر الآن بسرعة أكبر من ذي قبل بواسطة الراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام المتطورة. فحينما يتم الإبلاغ عن مشاهدة صحن طائر مجهول الهوية في مكان ما من البلاد نجد أن ذلك ينتج سلسلة من البلاغات عن مشاهدات مماثلة في أنحاء أخرى. وعندما يصل الناس في نفاذ الصبر من البيروقراطية الحكومية إلى حد ما تعود قصة الملفوف إلى الظهور من جديد وتأخذ الصحف والتلفزيون والراديو في نقلها من أقصى البلاد إلى أقصاها في ظرف ساعات معدودة.

إن فعالية وسائل الأعلام قد أوجدت طاحونة شائعات متمادية من شأنها إما أن تقرب الناس من بعضهم البعض أو ترفع من حدة قلقهم وأوهامهم وفي كلتا الحالتين نجد أن تكرار الشائعات التي لها جذور ممتدة في القرون الماضية يرينا أن الناس لم يتغيروا كثيرا عبر التاريخ. قد تكون أساليب حياتهم مختلفة الآن عما مضى إلا أن قلقهم وأوهامهم لا تزال كما هي. خاصة بعد أن تحول العالم إلى صراعات أكثر مثاراً للقلق وبعد أن اضيفت عوامل اجتماعية وبيئية (ثقب الأوزون) وسياسية كمصادر جديدة للقلق...

* * *

توماس المصري

محدودة جداً.. شبكات الجاسوسية الإسرائيلية في مصر، قياساً بعدد الجواسيس الذين يعملون بمفردهم. وأشهر هذه الشبكات التي نعرفها ولاقت شهرة واسعة.. شبكة التخريب التي تكونت من يهود مصر وفجرت «فضيحة لافون» عام ١٩٥٤ فأحدثت أزمة طاحنة في إسرائيل حينذاك.

أما شبكة توماس - التي لم تأخذ ولو قدراً ضئيلاً من الشهرة - فتعد من أكبر الشبكات التي ضُبطت، وحجّمت كثيراً من شأن الموساد، وألقت الضوء مبهراً على براعة المخابرات المصرية.

وخطورة هذه الشبكة تكمن في تنوع أنشطتها وأهدافها، وكثرة عدد أعضائها من المصريين والأجانب، وكثافة المعلومات الحيوية التي نقلتها لإسرائيل، وأيضاً.. عمرها القصير جداً الذي يقابله انتشار شرس محموم في أكثر من دولة.

إنها بحق.. أشهر شبكات الجاسوسية التي سقطت في مصر.. ولا يعرفها أحد..!!

الصياد والفريسة

في فبراير عام ١٩٥٨ دخلت سوريا مع مصر في اتحاد اندماجي، وعرفت الدولتان باسم «الجمهورية العربية المتحدة» وكانت سوريا هي الاقليم الشمالي، ومصر هي الاقليم الجنوبي. ورأت إسرائيل في هذا الاتحاد خطراً عظيماً يتهدد أمنها في الشمال والجنوب ومن الشرق أيضاً.

وحوصرت الدولة اليهودية بالجيوش العربية، ولم يتبق لها سوى البحر الأبيض

المتوسط - المنفذ الوحيد الآمن، فحصنته بالسفن وبالمدمرات، وزرعت غواصاتها بطول الساحل خوفاً من حصار هذه الجبهة بالقوات البحرية العربية، وأصبحت إسرائيل تعيش في حالة طوارئ دائماً لا تدري من أية جهة تأتيها الضربة الفجائية القاضية.

لذلك حرص ساستها - بواسطة أجهزة المخابرات - على عرقلة نمو هذا التطويق العربي من الشمال والجنوب، ولعبت على كل الأوتار لإفشاله والقضاء عليه. ولم يكن بمستطاعها وقف الزحف العربي لإنقاذ فلسطين المغتصبة، سوى باللجوء إلى كل الحيل القذرة والتصرفات الوحشية لإرهاب العرب، وبث الدعايات المسمومة لإخافتهم، وتصوير الجندي الاسرائيلي والعسكرية الاسرائيلية كأسطورة في الأداء والمهارة والقوة.

لذا فقد عمدت إلى ترسيخ هذا الاعتقاد لدى العرب بمحو ما يقرب من «٢٩٣» قرية فلسطينية وإزالتها من فوق الأرض والخريطة، وارتكاب أبشع المذابح في التاريخ دموية وبربرية ضد العرب العزل في فلسطين. هذا بجانب التكثيف الإعلامي والنشاط الدبلوماسي للحد من يقظة روح الجهاد، التي جاهدت قوى الاستعمار على إسكاتها بالضغط على العرب وسد أفواههم.. ومنع السلاح عنهم وإغراقهم في مشاكل داخلية معقدة.. كالجهل والتخلف والفقر والمرض.. وإثارة الثورات الداخلية طمعاً في شهوة الوصول إلى الحكم.

كل ذلك أدى إلى إضعاف الجيوش العربية في حين كانت إسرائيل تتشكل وتقوى، وتغدق عليها الدول الاستعمارية الكبرى الأسلحة المتطورة الحديثة التي صنعت إسرائيل، وزراعتها في قلب المنطقة العربية لتقسمها إلى نصفين - أفريقي وآسيوي - لا أمل في التقائهما إلا بفناء إسرائيل.

من هنا كان الرعب الأكبر لإسرائيل حينما قامت الوحدة في فبراير ١٩٥٨ بين الشطرين المنفصلين في الشمال والجنوب، وربطهما اتحاد اندماجي وحكومة واحدة على رأسها الزعيم جمال عبد الناصر، خاصة بعدما فشل زعماء اتفاق «سيفر» بفرنسا في العدوان الثلاثي الغاشم على مصر في أكتوبر ١٩٥٦، والذي انتهى بخيبة أمل انجلترا

وفرنسا وإسرائيل، وانسحابهم يملأهم الخزي والعار.

لذلك كان على إسرائيل أن تراقب اتحاد الشطرين، بل وتسعى إلى معرفة أدق الأسرار عنهما.. لكي تحتاط إلى نفسها من مغبة تقويضها واجتياح الأرض السليبة فجأة.

وكانت أن أرسلت إلى مصر وسوريا بأمهر صائدي الجواسيس.. للبحث عن خونة يمدونها بالمعلومات وبالوثائق السرية، فجندت مصرياً خائناً من أصل أرمني اسمه «جان ليون توماس» استطاع تكوين شبكة تجسس خطيرة في مصر، وأرسلت إلى سوريا - إيلياهو كوهين - داهية الجواسيس على الإطلاق، وأسطورة الموساد الذي ظل جسده معلقاً في المشنقة لأربعة أيام في دمشق. والأرمن..جالية أقلية استوطنت مصر هرباً من الاضطهاد والتنكيل الذي تعرض له الشعب الأرمني.. وتعدادهم بالآلاف في مصر.. امتزجوا بنسيجها الاجتماعي وتزاوجوا فيما بينهم في البداية.. ثم اختلطت دماؤهم بالمصريين في مصاهرة طبيعية تؤكد هذا الامتزاج والاستقرار، واحتفظوا فيما بينهم بعاداتهم وتقاليدهم وبلغتهم الأصلية.

وتشير بعض المصادر أن تعدادهم في مصر يصل إلى مائة ألف أرمني، يتمتعون بالجنسية المصرية وبكامل الحقوق، وسمحت لهم السلطات بإصدار صحيفة باللغة الأرمينية، تدعم ترابطهم وتذكرهم بجذورهم.

اشتهر عن الأرمن أنهم أناس درجوا على العمل والكفاح والاشتغال بالتجارة، لذلك.. فأمورهم الحياتية والمادية ممتازة.. خاصة بعدما هيأ لهم المناخ المستقر في مصر فرص الانطلاق والنجاح.

وكان «جان ليون توماس» أحد ابناء هذه الجالية، وقد عمل بالتجارة والاستيراد والتصدير، واستطاع بعد عدة سنوات أن يجمع ثروة طائلة تؤمن له مستقبلاً رائعاً.. تدفعه إليه زوجته الألمانية «كيتي دورث» فتغلغل داخل أوساط المجتمع الراقي يزهو بثمرة كده واجتهاده. ولظروف عمله وقرابته تعددت سفرياته إلى ألمانيا الغربية لإنجاز أعماله.

هناك.. اقترب منه أحد صائدي الجواسيس المهرة، واشتم فيه رائحة ما غالباً هي

نقطة ضعف من خلالها يستطيع الالتفاف حوله.. وتجنيده، لا سيما بعد تأكده من أن له علاقات واسعة في مصر.

ولم تخب حاسة الشم لدى ضابط المخابرات الاسرائيلي الذي يتستر وراء شخصية رجل أعمال. إذ اكتشف هواية خاصة جداً عن توماس.. وهي عشقه للجنس مع الأطفال الصغار. ففي غمرة مشاغله وأعماله، سرعان ما ينقلب إلى ذئب شره يبحث عن فريسة تشبع نهم شذوذه.

كان توماس بالفعل يعاني من هذا الداء، ويصاب أحياناً بتوترات عصبية وتقلبات مواجية حادة، تظهر عادة في صورة ثورة على زوجته الجميلة.. التي لم تكن تدرك السبب الحقيقي في هروب الخادمات صغيرات السن من بيتها، ولا يعدن إليه مرة ثانية؟ وفشلت كثيراً في الوصول إلى إجابة منطقية لذلك.

بياتريشيا اللذيذة

ولكي يزجوا به داخل دائرة الجاسوسية من أوسع الأبواب.. قذفوا إليه بطفلة يهودية يتيمة في العاشرة من عمرها، طرقت باب شقته في فرانكفورت، ولأنهم زرعوا الكاميرات والأجهزة السرية بها واتخذوا من الشقة المجاورة مكمناً لتسجيل ما سيحدث.. أذهلتهم أغرب مطاردة بين جدران الشقة الصغيرة، بين توماس الذئب الجائع.. والطفلة الضعيفة التي كانت تبكي متوسلة إليه، فيتوسل هو إليها ألا تتركه يعاني أكثر من ذلك.

كان عارياً تماماً، يتصبب منه العرق الغزير وترتجف خلجات وجهه، وبدا في قمة ضعفه عندما هجم على الطفلة، وصفعها في عنف فانخرست من الخوف، وشرع في الحال في تجريدها من ملابسها حتى تعرت تماماً، وبدا واضحاً ارتجاف أطرافها واضطراب أنفاسها اللاهثة، فتحرر بسرعة من ملابسه كأنه لا يصدق أن فريسة بين يديه، واحتضنها في لهفة الجائع وهو يأمرها ألا تصده، أو تعترض على ما يفعله بها.

وفوجئ بهم من حوله، انتزعوا الطفلة من بين يديه فانزوت ترتجف.. بينما أخذ يرجوهم ألا يصحبوه عارياً للشرطة. وأطلعوه على ما لديهم من أدلة شذوذه، فانهار..

ووقع في لمح البصر على عقد يقر فيه بتعاونه مع الموساد، وأنه على استعداد تام لتنفيذ ما يكلف به.

هذه هي الموساد.. تتبع أقذر الحيل للسيطرة على عملائها وإخضاعهم، وهذا ليس بأمر جديد على المخابرات الاسرائيلية، فلا شيء يهم طالما ستحقق مآربها وتجند ضعاف النفوس في كل زمان ومكان.

في قمة مذلته وشذوذه لم تكن لديه القدرة على أن يفكر أو يقرر، إذ أن إرادته قد شلت.. وانقلب إلى شخص آخر بلا عقل.. فقد خلفته المحنة وأزهقته الصدمة، وبسهولة شديدة استسلم لضباط الموساد يتحكمون بأعصابه.. وابتدأوا في تدريبه وإحكام سيطرتهم عليه، وكتب في عدة صفحات بيده كل ما لديه من معلومات اقتصادية يعرفها بحكم عمله وعلاقاته، وأحاطوه بدائرة الخوف فلم يستطع الإفلات، وهددوا بقتل أفراد أسرته إذا ما عاد إلى مصر وأبلغ السلطات.. فقد كان من السهل إقناعه بوجود عملاء لهم في القاهرة ينتظرون إشارة منهم ليقوموا باللازم مع عائلته هناك.

وتأكيداً لذلك.. أرسلوا باقة زهور إلى منزله بمناسبة عيد ميلاد ابنته.. وكم كان فزعه شديداً عندما اتصل بالقاهرة فتشكره ابنته على باقة الزهور التي أرسلها.. وأصيب رجل الأعمال المذعور بصدمة عنيفة، وصرخ في هلع مؤكداً بأنه سيقوم بالعمل لصالحهم.. وتركوه يسافر ملتاعاً ومرعوباً يحمل تكليفات محددة وأسئلة مطلوب إجاباتها، وكانوا على يقين أنه سقط في شباكهم ولن يمكنه الإفلات أبداً.

وفي الطائرة استغرقه تفكير عميق فيما صار إليه حاله، وهل يستطيع النجاة من هذا المأزق أم لا؟ واتصل فور وصوله بصديقه محمد أحمد حسن الذي يشغل منصباً حساساً في مدرسة المدفعية بالقاهرة، وسأله عدة أسئلة تتصل بعمل جهاز المخابرات المصري. وهل بالإمكان حماية شخص ما تورط مع المخابرات الاسرائيلية؟ وكانت إجابات محمد حسن إجابات قاطعة، تؤكد ان المخابرات المصرية من أنشط أجهزة المخابرات في العالم بعد استحداثها وتدريب كوادرها بأقسامها المختلفة، وحسبما يقال فهي تحمي المتورطين إذا ما

تقدم بالإبلاغ عما وقع لهم بالخارج.

لكن توماس لم يثق بكلامه، وظن انها دعاية يروجها لا أكثر.. فتملكه الخوف من الانسياق وراء دعاية لن تفيد، وحرص على المضي في طريق الخيانة حتى آخره. بينما انشغل صديقه بالهدايا الثمينة التي جلبها له ولم يسأله عن تفاصيل الأمر. أو عن ذلك الشخص المتورط مع الموساد.

لم يضيع توماس وقته في إثارة أعصابه بالتفكير والقلق.. وشرع كما دربوه في دراسة أحوال المحيطين به ليستكشف نقاط ضعف تمكنه من النفاذ اليهم، وكان أول من نصب شباكه حوله - محمد أحمد حسين - الذي كان يدرك جيداً أن المخابرات المصرية أضافت اختصاصات وتكنولوجيا حديثة تمكنها من تعقب الجواسيس والخونة.

تناسى الرجل العسكري كل ذلك وعاش في وهم ابتدعه. ولم يعد يفكر سوى في نفسه فقط.. وقد طغت هدايا صديقه على أنسجة عقله. كان ذلك في شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ عندما نام ضميره نوم الموات بلا أدنى حياة أو رعشة من شعور.. وأسلم مصيره بل حياته كلها لمغامرة طائشة قادته إلى الهلاك.

وكانت «بياتريشيا» خطوة أولى في سلم الموت الذي لا مهرب منه ولا منجي على الإطلاق.. وبياتريشيا هذه راقصة ألمانية مقيمة بالقاهرة.. تربطها بتوماس علاقة قديمة قبل زواجه من كيتي، وفي حين انشغل عنها بعمله اضطر لتجديد علاقته بها بمجرد عودته، لتساعده في تجنيد محمد حسن الذي كان يعرف عنه ميله الشديد للخمر والنساء.

فرحت الراقصة المثيرة بعودة توماس اليها وتقابلت الأغراض والنوايا.. وبعد سهرة ممتعة بأحد النوادي الليلية.. ارتسمت بخيالات محمد حسن صور متعددة لعلاقته ببياتريشيا، أراد ترجمتها إلى واقع فعلي لكن راتبه الضئيل لم يكن ليكفي للإنفاق على بيته.. وعلى راقصة مثيرة تجتذب من حولها هواة صيد الحسناوات. وتكررت السهرات الرائعة، التي أصبحت تشكل شبه عادة لديه لم يكن من السهل تبديلها أو الاستغناء عنها، وأغرقته الراقصة في عشقها فازداد اندفاعاً تجاهها، ولم يوقفه سوى ضيق ذات اليد.

عند ذلك لم يكن أمامه سوى الالتجاء إلى توماس ليستدين منه، وتضخم الدين حتى توترت حياة محمد حسن.. وانتهزها توماس فرصة سانحة لاستغلاله والضغط عليه فرضخ له في النهاية وسقط مخموراً في مصيدة الجاسوسية.. مستسلماً بكامل رغبته مقابل راتب شهري - خمسين جنيهاً - خصصه له توماس لينفق على الفاتنة التي أغوته وأسكرته حتى الثمالة.

في المقابل لم يبخل محمد حسن بالمعلومات الحيوية عن مدرسة المدفعية.. كأعداد الطلاب بها وأسماء المدربين والخطة الاستراتيجية للتدريب.. كل ذلك من أجل عيون الفاتنة الحسناء العميلة.

فيالها من سقطة.. ويالها من مأساة وخيبة!!

وفي الوقت الذي نشط فيه توماس كجاسوس يقوم بمهمته، تراءت له فكرة تجنيد عملاء آخرين تتنوع من خلالهم المعلومات التي يسعى للوصول اليها. فكان أن نصب شباكه حول مصور أرمني محترف اسمه جريس يعقوب تانيليان - ٤٣ عاماً، واستطاع أن يسيطر عليه هو الآخر بواسطة إحدى الساقطات وتدعى - كاميليا بازيان - أوهمته كذباً بفحولة لا يتمتع بها سواه.

ولأنه كان ضعيفاً جنسياً.. رأى رجولة وهمية بين أحضانها، فهي المرأة الوحيدة التي «أنعشت» رجولته، وبالتالي فقد كان لزاماً عليه إسباغ رجولة أخرى حولها، وهي الإنفاق عليها بسخاء.

وفي غضون عدة أشهر استنزفته كاميليا مادياً.. فاتبع مسلك محمد حسن باللجوء إلى توماس ليقرضه مالاً، فجنده في لحظات ضعفه وحاجته.

ولما اتسع نشاطه.. استأجر توماس شقة بمنطقة روكسي باسم محمد حسن كانت تزهر بأنواع فاخرة من الخمور، وتقام فيها الحفلات الماجنة التي تدعى اليها شخصيات عامة، تتناثر منها المعلومات كلما لعبت الخمر بالرؤوس فتمايلت على صدور الحسان وتمرغت بين أحضانها. وفي إحدى حجرات الشقة أقام جريس تانيليان معملاً مصغراً

لتحميض الأفلام وإظهار الصور والخرائط، حيث كان يجلبها محمد حسن من مقر عمله ويعيدها ثانية إلى مكانها.

وذات مرة.. عرض توماس على محمد حسن فكرة السفر إلى السويس بالسيارة.. ثم إلى بورسعيد لتصوير المواقع العسكرية والتعرف عليها من خلال شروحه.. ووافق الأخير ورافقتهما كيتي التي اطلعت على سر مهنة زوجها وشاركته عمله. وكان محمد حسن دليلاً لهما يشرح على الواقع أماكن الوحدات العسكرية.. فيقوم توماس بتصويرها من النافذة وتسجيلها على خريطة معه بينما تقود كيتي السيارة.

المشهد العجيب

وعندما تعثرت أحوال «جورج شفيق دهاقيان» - ٤٥ عاماً - تاجر الملابس، تدخل صديقه توماس بطريقته الخاصة لإنقاذه، وكان المقابل تجنيده للعمل معه في شبكة الجاسوسية.

لم يعترض جورج كثيراً في البداية.. فهو يعلم أنه لا يملك معلومات حيوية هامة تساوي مئات الجنيهات التي أخذها من توماس مقابل إيصالات ورهونات. وقد كان توماس الخائن ينظر إلى بعيد.. إلى ضابط كبير يقيم أعلى شقة جورج وتربطهما علاقات وطيدة، وكان له دور فعال فيما بعد.

ولأن «بوليدور باب زوغلو» تاجر طموح يحلم بامتلاك محل كبير للمجوهرات بوسط القاهرة.. عرض الفكرة على توماس فأبدى موافقته وشجعه على المضي لتحقيق حلمه، والحلم تلزمه مبالغ كبيرة، والخمر تلتهم حصيلة مكسبه أولاً بأول إلى جانب السهرات الماجنة التي تستنزف الكثير من رأسماله. عند ذلك لم يجد توماس صعوبة تذكر في اصطياده أيضاً بعدما رسم له خطوط الحلم المرجو.

لقد رأى بوليدور أن لا شيء يجب أن يعوق تنفيذ حلمه الكبير.. حتى ولو كانت الخيانة هي الثمن.

هكذا مضى توماس يصطاد ضعاف النفوس.. فيمدهم بالمال ويغرقهم في الخمر والجنس ويحصل على مبتغاه من خلالهم.. وانتعشت بذلك شبكة توماس في جمع المعلومات، لا يوقفها خوف من السقوط أو من حبل المشنقة. فالمخابرات الاسرائيلية كانت تؤكد له في كل مرة يزور فيها ألمانيا أن المخابرات المصرية خاملة ضعيفة. نشأت منذ سنوات قليلة ولم تنضج بعد، ومهما أوتيت من علم ومقدرة فمن المستحيل كشفه.

هذا الاعتقاد سيطر عليه فأظهر وفاءه لإسرائيل وكراهيته للعرب ولكل ما هو عربي. وكلما استدعوه إلى ألمانيا كانوا يعدون له وليمة يعشقها من الفتيات الصغيرات أو الغلمان. ولم يعد يهمهم تصويره في أوضاعه الشاذة مع الصغار بعد ذلك.. فلقد سقط حتى أذنيه وتوسعت شبكته توسعاً مذهلاً حير خبراء الموساد أنفسهم، إذ تعدت الشبكة حدود مصر إلى دول عربية أخرى.. بعدما ازداد توماس علماً بأدق فنون التجسس.. وكيفية السيطرة على شركائه بسهولة بواسطة نقاط ضعفهم التي استغلها بمهارة، وبالأموال الطائلة التي ينفقها عليهم، وقد اشتدت حاجتهم اليها، وقد عرفوا أن لكل معلومة ثمناً وقيمة.

وذات مرة عاد توماس من إحدى رحلاته في ألمانيا وفي ذهنه صورة «جورج استماتيو» الموظف بمحلات جروبي بالقاهرة.

كان استماتيو يشرف على حفلات العشاء التي كانت تقيمها رئاسة الجمهورية للضيوف، ومن خلال دخوله لقصر الرئاسة بشكل رسمي، فقد كان يعد بمثابة سلة معلومات طازجة، تحوي كل ما يدور في الحفلات الرسمية من أسرار وأخبار، ويمكن استخدام هذه المعلومات بشكل أو بآخر، إضافة إلى الاستعانة باستماتيو في تنفيذ أية مخططات مستقبلية.

لذلك.. وجدها توماس فرصة لا تعوض.. وكان عنده إصرار متوحش لتجنيده هو الآخر ليحصل منه على معلومات تدر عليه مبالغ خيالية.. خاصة وأن استماتيو - ٥٣ عاماً - يعيش مأساة عجيبة جداً. إذ كان مصاباً بالعنة المؤقتة أو عدم القدرة على الجماع إلا بعد أن يجامعه رجل مثله. حينئذ تعود إليه رجولته ويأتي المرأة بمهارة.

اكتشف توماس هذا السر وأخذ يدبر للسيطرة عليه والدخول به لوكر الجواسيس الذي صنعه. وعندما عرض الأمر على ضباط الموساد.. تهللت أساريرهم وأمدوه بأجهزة حساسة دُرب عليها لتسجيل هذا المشهد الشاذ العجيب.. وعاونه جريس تانيليان في مهمته إلى جانب بياتريشيا التي واقت على تصوير المشهد للسيطرة على استماتيو.

كيرلس الوطني الشريف

في شقة روكسي تحولت إحدى حجرات النوم في شقة روكسي إلى بلاتوه، وقام أحد الشباب بدور الرجل مع استماتيو المخمور. وكان المشهد الغريب الذي تم تصويره - سبباً لخضوعه.. وسقوطه في دائرة الجاسوسية غصباً عنه. ومن خلاله.. تدفقت أسرار قصر الرئاسة وما يجري بين أروقته، وما يتلقطه من أخبار وأسرار وحكايات لا تنشرها الصحف أو يعلم بها أحد.

داس توماس على كل القيم والمبادئ لتحقيق أغراضه.. ووصل به الأمر أنه قدم زوجته كيتي دورث هدية إلى بعض المحيطين به لتستخلص منهم أسراراً معينة.. ولم يبخل بها على صديقه محمد حسن الذي حمل إليه ذات مرة وثيقة هامة تحوي أسراراً غاية في الخطورة، أراد توماس تصويرها فطلب منه محمد حسن الثمن.. زوجته، وأمام رغبته وتصميمه لم يجد بداً من تحقيق مطلبه، وعلى فراشه.

ونعود مرة أخرى إلى جورج شفيق دهاقيان.. التاجر الذي أنقذه توماس من الإفلاس، لقد كانت تربطه جيرة وصداقة بضابط كبير بالقوات المسلحة اسمه «أديب حنا كيرلس» لاحظ كيرلس تردد جاره دهاقيان على منزله كثيراً في مناسبات عديدة وبدون مناسبات أيضاً. وكان في كل مرة يناقشه في أمور عسكرية حساسة ويحاول الحصول على إجابات لاستفساراته.. بل وإطلاعه على لوحات ووثائق عسكرية تؤكد شروحه.

لاحظ كيرلس أيضاً أن جاره يعيد طرح أسئلة بعينها سبق أن أجابه عليها. وشك الضابط في الأمر، فهذا التاجر يريد إجابات تفصيلية لأمور عسكرية حساسة.. وكلما أعرض عنه يزداد إلحاحاً عليه.. عندئذ.. انقلب شكه إلى يقين.. وبلا تردد حمل شكوكه

إلى جهاز المخابرات المصرية وأطلعهم على كل ما دار من حوارات.

وبعد مراقبات دقيقة لدهاقيان.. أمكن التعرف على توماس والمترددين عليه، وكانت مفاجأة غاية في الغرابة.. إذ تكشفت شبكة جاسوسية خطيرة كان لا بد من معرفة كل أعضائها. وفي خطة بالغة السرية والحذر.. أمكن الزج بعناصر مدربة إلى الشبكة فاتضح أن لها أذرعاً أخطبوطية تؤلف شبكة جاسوسية تمتد لتشمل دولاً عربية أخرى.. تكونت بها خلايا على اتصال بفروع للموساد في كل من ألمانيا وفرنسا وسويسرا وهولندا وإيطاليا.. وكلها تعمل في تناسق مدهش، وتكوّن في مجملها ست شبكات للجاسوسية في القاهرة والاسكندرية ودمشق.

وبالقبض على الخونة في ٦ يناير ١٩٦١ اتضحت حقائق مذهلة.. فغالبية الجواسيس سقطوا في بئر الخيانة بسبب الانحراف والشذوذ. وكانت أدوات التجسس التي ضبطت عبارة عن خمس آلات تصوير دقيقة، وحقيبة سفر ذات قاع سري، وعلبةسجائر جوفاء تخبئ به الوثائق والأفلام، وجهاز إرسال متقدم وجد بسيفون الحمام بشقة خاصة بتوماس في جاردن سيتي.

وبموجب القرار الجمهوري رقم ٧١ لسنة ١٩٦١ شكلت محكمة أمن دولة عليا.. يشمل اختصاصها كل وقائع التجسس في مصر وسوريا «كانت الوحدة لازالت قائمة» وخلال ستة أشهر.. بلغت جلسات المحاكمة ٨٣ جلسة، وبلغ عدد صفحات ملف القضية حوالي ستة آلاف صفحة، وأدلى ٩٥ شاهداً بأقوالهم منهم الخبراء والفنيون والمختصون، أما عدد المتهمين من المصريين فكان ١١ متهماً ومن الأجانب ٦ ودافع عنهم ٣٣ محامياً، وجرى ندب طابور طويل من خبراء مصلحة التزيف والتحليل بالطب الشرعي، وخبراء اللاسلكي والإلكترونيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الفنيين الذين انتدبوا بمعرفة المحكمة، وعدد من المترجمين بالجهات الرسمية.

وفي ٢٥ أكتوبر ١٩٦١ أصدرت المحكمة حكماً بإعدام جان ليون توماس شنقاً، ومحمد حسن رمياً بالرصاص، وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على الآخرين.

أما كيتي دورث فقد أفلتت من العقاب في مصر لأنها سافرت لألمانيا قبل القبض على أفراد الشبكة بعدة أيام، لكن عقاب السماء كان أسرع. إذ صدمتها سيارة مسرعة وقتلت.. في الحال بأحد شوارع فرانكفورت.. بينما باتريشيا التي عوقبت بالسجن لمدة عامين، فقد أصيبت بسرطان في الثدي امتد إلى صدرها النافر المثير.. والتهم هذا الجمال الرائع الذي استغل أسوأ استغلال في اصطياد الخونة والجواسيس.

وفي إسرائيل تشكلت لجنة «قعادات» وهو اختصار لاسم «قعادات راشيل هاشيرو تيم» والمؤلفة من رؤساء أجهزة المخابرات في إسرائيل ومستشاري رئيس الوزراء.. لدراسة أسباب سقوط هذه الشبكة.. التي كانت تمثل مصدراً حيوياً يتدفق بالمعلومات الاستراتيجية في الجمهورية العربية المتحدة.

لقد كان هذا السقوط المفاجئ سبباً في صدمة عنيفة لكبار قادة الاستخبارات الاسرائيلية. إذ تبين لهم بشكل قاطع أن هناك عقولاً عربية تستطيع إرباكهم.. وتدمير مخططاتهم القذرة في المنطقة العربية بحيث يجدّون دائماً في البحث عن أساليب جديدة متطورة، تذكي ذلك العالم السري الغامض.. عالم المخابرات والجاسوسية.

* * *



رفعت الجمال
«رأفت الهجان»

لم يتوقع أحد تلك العاصفة التى هبت داخل إسرائيل بحثا وسعيا لمعرفة حقيقة الشخصية التى اعلنت المخابرات العامة المصرية عام ١٩٨٨ بانها قد عاشت داخل إسرائيل لسنوات طوال امدت خلالها جهاز المخابرات المصرى بمعلومات مهمة كما انها شكلت وجندت داخل المجتمع الاسرائيلى نفسه اكبر شبكه تجسس شهدتها منطقة الشرق الاوسط.

وكان اسم (رأفت الهجان) هو الاسم المعلن البديل للمواطن المصرى المسلم (رفعت على سليمان الجمال) ابن دمياط والذى ارتحل إلى إسرائيل بتكليف من المخابرات المصرية عام ١٩٥٤ حاملا روحه على كفة.

ولد رفعت الجمال فى الأول من يوليو ١٩٢٧ بمدينة طنطا وكان الأبن الأصغر للحاج على سليمان الجمال تاجر الفحم وكان له اخوين أشقاء هما لبيب ونزيهه اضافة إلى أخ غير شقيق هو سامى، وكان والده يحمل لقب (أفندي) أما والدته فكانت من أسرة عريقة وكانت تتحدث الإنجليزية والفرنسية.

وحقق الجمال نجاحات باهرة وبه استطاعت المخابرات المصرية أن تثبت عمليا كذب أسطورة التالق التى تدعيها إسرائيل لجهاز مخابراتها.

وفور إعلان القاهرة لهذة العملية المذهلة طالبت الصحفية الاسرائيلية «سمادر بيرى» - فى موضوع نشرته بجريدة يدعوت احرونوت الاسرائيلية - آيسر هريتيل مدير المخابرات الاسرائيلية فى هذا الوقت أن ينفى ما أعلنته المخابرات المصرية وأكدت لمدير

المخابرات الاسرائيلية أن هذة المعلومات التى أعلنتها القاهرة تثبت تفوق المخابرات العربية المصرية فى أشهر عملية تجسس داخل إسرائيل ولمدة تقرب من العشرين عاما.

واستهدفت الصحفية من نشر هذا الموضوع عرض الحقيقة كاملة، حقيقة ذلك الرجل الذى عاش بينهم وزود بلاده بمعلومات خطيرة منها موعد حرب يونيو ١٩٦٧ وكان له دور فعال للغاية فى الإعداد لحرب اكتوبر ١٩٧٣ بعد أن زود مصر بادق التفاصيل عن خط برليف، كما انه كون امبراطورية سياحية داخل إسرائيل ولم يكشف أحد أمره.

وجاء الرد الرسمى من جانب المخابرات الاسرائيلية: ان هذة المعلومات التى اعلنت عنها المخابرات المصرية ما هى الا نسج خيال وروايه بالغة التعقيد.. وان على المصريين ان يفخروا بنجاحهم!

وبينما يلهث الكل وراء أي معلومة للتأكد من الحقيقة عن هذا المجهول المقيد فى السجلات الاسرائيلية باسم «جاك بيتون» بصفته اسرائيلى ويهودى، نشرت صحيفة «الجيروزاليم بوست» الاسرائيلية موضوعا موسعا بعد ان وصلت إلى الدكتور «ايميرى فريد» شريك الجمال فى شركتة السياحية «سي تورز» وبعد ان عرضوا علية صورة الجمال التى نشرتها القاهرة شعر بالذهول واكد أنها لشريكة «جاك بيتون» الذى شاركه لمدة سبع سنوات وانه كان بجواره مع جمع كبير من صفوة المجتمع الاسرائيلى عندما رشح لعضوية الكنيست الاسرائيلى ممثلا لحزب «مباى» الاسرائيلى «حزب عمال الارض» ولكنه لم يرغب فى ذلك.

وفور أن فجرت صحيفة «الجيروزاليم بوست» حقيقة الجاسوس المصرى وأنه شخصية حقيقية وليست من نسج خيال المصريين كما أدعى مدير الموساد حصلت الصحيفة أيضا على بيانات رسمية من السجلات الإسرائيلية مفادها أن «جاك بيتون» يهودى مصرى من مواليد المنصورة عام ١٩١٩ وصل إلى إسرائيل عام ١٩٥٥ وغادرها للمرة الاخيرة عام ١٩٧٣.

ولأضافت الصحيفة بعد التحرى أن «جاك بيتون» أو «رفعت الجمال» رجل الأعمال الإسرائيلى استطاع أن ينشئ علاقات صداقه مع عديد من القيادات فى إسرائيل منها «جولدا مائير» رئيسة الوزراء، و«موشى ديان» وزير الدفاع.

وخلصت الصحيفة إلى حقيقة ليس بها أدنى شك:

«جاك بيتون» ما هو إلا رجل مصرى مسلم دفعت به المخابرات المصرية إلى إسرائيل واسمه الحقيقى «رفعت على سليمان الجمال» من أبناء مدينة دمياط بمصر.

وفور هذة المعلومات الدقيقة التقطت الصحف العالمية أطراف الخيط فقالت صحيفة «الاوبزرفر» البريطانية الواسعة الانتشار: أن «الجمال» عبقرية مصرية استطاع أن يحقق أهداف بلاده.. ونجح فى أن يعود إلى وطنه سالما ويموت طبيعيا على فراشه.

***

. الجاسوس الذي قتلته نزوة

شاكر فاخوري.

قليلون جداً.. أولئك الخونة الذين أسلموا أنفسهم.. برغبتهم.. إلى مخابرات دولية معادية من أجل شهوة المال.. والتاريخ الطويل الحافل بالصراع بين المخابرات العربية والمخابرات الإسرائيلية، يحفظ لنا تفاصيل هذه القصص القليلة جداً، التي يطرق أبطالها أبواب السفارات الإسرائيلية في الخارج، ويعرضون «خدماتهم» ويكتبون بأيديهم وثيقة خيانتهم للوطن دون رغبة في الانتقام من نظام، أو تعويض خسائر معنوية، اللهم فقط – الحصول على المال الحرام بأسلوب سهل، دون أن يحسبوا حساباً لعيون المخابرات العربية التي ترصد ولا تنام.

وكان شاكر فاخوري، أحد هؤلاء الخونة الشواذ الذين قتلتهم النزوة..!!!

أساطير الوهم

.. في أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ .. اشتد نزف الجرح العربي.. وخيمت قتامة قاسية وعم إحساس مرير بالمهانة. ولم تستطع وسائل الدعاية والإعلام العربية التغلب على سطوة هذا الشعور لفترة وطويلة.

فإسرائيل لم تكف عن اختراق حاجز الصوت بقاذفاتها كل يوم فى السماء العربية، دون رادع يوقفها.. وكأنما هي في رحلة ترفيهية آمنة، فتسخر بذلك من أجهزة الدفاع، ومن قوات العرب الت ياندحرت لاهثة أمام ضربات اليهود الفجائية. وتؤكد للعالم أن ادعاءات القوة العربية ضرب من الوهم والخيال.

وفي سكرة الصدمة القاتلة.. أصيبت الأمة العربية بصدمة أخرى يومي ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ وصفها في مذكراته الفريق أول محمد فوزي قائلاً:

«الإحساس بالضياع النفسي يملأني طوال إقامتي بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة بمدينة مصر. طوال هذين اليومين كانت مصر بلا قيادة فالقيادة السياسية غير قائمة بإعلان جمال عبد الناصر عن قرار التنحي، والقيادة العسكرية العليا أيضاً غير موجودة باعتزال المشير عبد الحكيم عامر وشمس بدران في منزليهما، بالإضافة إلى قادة أفرع القوات المسلحة الرئيسية الذين قدموا استقالاتهم».

هذا هو الجو النفسي المحزن الذي خلفته الهزيمة.. التي أجبرت العرب على تنكيس أعلامهم حداداً على قتل الكرامة والعزة والكبرياء. وفي خضم هذه المأساة.. كانت إسرائيل على جانب آخر تراقب مراحل سقوط العرب.. وتعن بغطرسة استحالة قيامهم ثانية.. ولو حدث.. وقاموا.. فقيام مريض أشل يجر أعضاءه زاحفاً.

ومن هنا.. نشطت المخابرات الاسرائيلية وأعدت العدة جيداً لمراقبة الجسد العربي الصريع ومحاولات النهوض من جديد.

لذا.. فقد بثت العيون والجواسيس والأجهزة.. ترصد وتحلل وتحسب.. وتتوقع ما ستنبئ عنه الخطوة القادمة.. وكان رأي خبراء المخابرات الإسرائيلية الذي لم يحيدوا عنه.. أن هذه الضربة التي أفقدت العرب قوتهم وتوازنهم.. بل وصوابهم.. لا بد لها من رد فعل حتمي سيتأكد حدوثه في لحظة ما.

وهكذا لم يجلس رجال الموساد في انتظار الضربة المفاجئة.. بل عملوا على كشف تحركات واستعدادات العرب العسكرية والدبلوماسية للتكهن بنواياهم التي يضمرونها.. وكان لا بد من تلافي الضربة القادمة.. بالعمل على عدة محاور استراتيجية.. أهمها الإسراع بالبرنامج النووي الإسرائيلي لإرهاب العرب.. وإخضاعهم بالتخويف.. وإحباط عزيمتهم بالدعاية التي تصورهم كأنهم الأساطير. وكذلك بالعمل على تزويد الجيش اليهودي بأحدث مبتكرات تكنولوجيا السلاح العالمية.. لإظهار التفوق الكبير على جيوش عربية لا تستوعب السلاح الحديث. وأيضاً.. تنشيط الأقسام المختلفة في جهاز الاستخبارات الاسرائيلي بما يضمن الحصول على أدق الأسرار - العسكرية والاقتصادية

والصناعية – من خلال شبكات متعددة من العملاء والجواسيس المهرة.. الذين زرعوا في غالبية المدن العربية، ينقلون لتل أبيب كل مشاهداتهم وتقاريرهم.

لذا.. فلا عجب إن لاحظنا كثرة أعداد الخونة الذين سقطوا في مصيدة الجاسوسية الإسرائيلية بعد نكسة يونيو ١٩٦٧.. في ذات الوقت الذي نشطت فيه المخابرات العربية للكشف عن هؤلاء الخونة الذين توالى سقوطهم وشنقهم. وكان من أبرزهم – شاكر فاخوري – الذي سعى بنفسه للدخول إلى وكر الجواسيس طمعاً في المال..!

كلهم جون.. وروبرت

نشأ شاكر فاخوري نشأة أولاد الأثرياء. فهو لم يعرف يوماً طعم الفقر.. ولم يذق مرارته.. وبرغم ذلك ظهرت بوادر الفشل في حياته أثناء دراسته الابتدائية فكان تعثره الدراسي يرهق بال أهله ويحيرهم.

وفي المرحلة الاعدادية وصم في محيطه بالفاشل.. وأحاطته حكايات تداولتها الألسنة عن سرقاته المتعددة لأموال والده.. وتخوف الأقارب من يده الطويلة حين زيارته لهم.

وبعدما ضج أهله وصرخوا من تصرفاته الطائشة الغبية.. الحقوه بمعهد مهني في روض الفرج.. فخرج منه كأنه لم يدخله.. واستدعى لتأدية الخدمة العسكرية فتهللت أسارير أسرته التي نكبت به.. ولحق بها الأذى من سلوكه المعوج.

وما إن أمضى مدة تجنيده في الدفاع الجوي.. حتى وجد نفسه بلا عمل.. ونظرات الحيرة والقلق تنهش جلده ممن يحيطون به. فحمل حقيبته المليئة بالفشل وسافر إلى الكويت.. وعمل بإحدى الشركات الأجنبية في جزيرة فيلكه الواقعة بمدخل خليج الكويت.

كانت إقامته في كرافان معدني صغير مع فني أمريكي فرصة له ليتقرب من خلاله إلى إدارة الشركة الأجنبية.. التي رأت عدة مرات الاستغناء عنه لافتقاره إلى الخبرة الفنية.. وكان رفيق مسكنه – جون باليدر – مكلفاً بتدريبه على أعمال اللحام (ضغط عالي)

لذلك.. كاد شاكر أن يقبل قدمي جون.. عندما أخطأ خطأ فنياً من شأنه إحداث أضرار جسيمة بأحد الأجهزة الدقيقة. لكن جون تدارك الخطأ سريعاً ثم صفعه على وجهه وبصق عليه.. فانفجر الرعب في وحه شاكر خوفاً من تقرير جون.. الذي بسببه سيطرد فوراً من الشركة ويعود إلى مصر بفشله.

وحاول جاهداً استمالة جون والاعتذار له. لكن جون ظل لأكثر من ساعتين يكتب تقريره المفصل.. وبعدما فشلت محاولات شاكر.. بكى في ضعف فقام جون إليه وقال له:

أستطيع أن أمزق تقريري عنك ولكن في حالة واحدة فقط.

في ضراعة نظر شاكر إليه قائلاً:

لن أنس لك ذلك أبداً مستر جون.. ماذا تريد مني؟

اتجه جون إلى مفتاح الإضاءة وأطفأ أنوار الكرافان.. وسمع شاكر حفيف ثياب تخلع وأنفاس تتلاحق.. فارتعش وانكمش في مكانه وقد ولت جرأته.

التصق به جون وقال له في صراحة:

لكي تستمر في العمل لا بد وأن تستجيب لي. لقد ألحقت تحت إمرتي بعد فشلك في عدة أقسام أخرى. وعدم رضائي عنك معناه الطرد. هيا.. هيا قرر الآن فوراً..!!!

وعندما لم يلق جون رداً.. امتدت يده تتحسس شاكر الذي تفصد منه العرق.. وارتعدت «مفاصله» والجمه الخجل والخوف.

لم يطل الموقف المخزي كثيراً.. إذ قام شاكر «بالمطلوب» واستراح إليه جون.. وكتب فيه التقارير الكاذبة التي حسنت من وضعه أمام إدارة الشركة.. وجعلته يشعر بالأمن في جزيرة فيلكة إلى حين.

لقد اشترى برجولته سكوت جون عن أخطائه في العمل ولم يكن ليتخيل أن يقوده الخوف من الطرد إلى هذا الفعل الشائن.. وحاول أن ينسى ما حدث معتقداً أن جون سيتركه لحاله.. ولكن خاب اعتقاده وتكرر الأمر في اليوم التالي أيضاً.. وازدادت مطالب

الشاذ الأمريكي يوماً بعد يوم.. بل وحدثت كارثة جديدة وضعت شاكر في مفترق طرق وخيار صعب يكاد يقضي عليه.

جاءه جون بمهندس قبرصي يدعى «روبرت هوب» يشغل وظيفة كبيرة في الشركة.. وطلب منه أن «يتعامل» معه بحرية.. ووجد شاكر نفسه مطالب بتلبية شذوذهما دون اعتراض.. بل أسفرت علاقته بالمهندس روبرت عن إحساسه بمهانة ما بعدها مهانة. إذ فوجئ به يريد «مبادلة المواقع» فتأفف شاكر ثائراً ورفض أن يقوم بدور الأنثى حتى ولو خسر عمره. فزجره روبرت وتهدده بالرفد من الشركة التي رفعت من راتبه كثيراً بتوصيات دائمة منه ومن جون. ولم تمر عدة أيام حتى استدعاه مدير شؤون العاملين وأخبره بنبأ الاستغناء عنه، وواجه شاكر المفاجأة بخوار واهن وحاول أن يشرح للمسؤولين بالشركة حقيقة الأمر.. لكن صمتهم أخافه.. وكانت اللامبالاة إجابة للتساؤلات التي بعقله..فكل الأمريكان بالشركة كانوا جون.. وروبرت. وبعد خمسة أشهر من العمل في الجزيرة حمل حقائبه ولكن إلى بيروت لا إلى القاهرة.

بنات لبنان

كانت بيروت في تلك الفترة تموج بالفن وبالانفتاح وبالحياة. إنها تختلف كلية عن سائر العواصم العربية بما فيها عواصم دول المغرب العربي المتحررة. فهي أكثر تحرراً وتحضراً. وصفعه إعلان غريب جداً في إحدى المجلات البيروتية لكازينو مشهور.. يعلن عن وجود «كبائن» خاصة للزبائن.. لقضاء أوقات «الراحة» بعيداً عن عيون المتطفلين. فترك حقائبه بحجرته ببنسيون «دعلون» بشارع بعلبك.. واستقل أول سيارة صادفته إلى الكازينو.

هناك وجد ضالته. فتيات شبه عاريات يتبخترن في دلال، قدودهن ممشوقة وضحكاتهن كأنها أغنيات تصدح في ليل لبنان.

اقتربت منه إحداهن فأغرقته بعطرها وجمالها في بحور من الأحلام والسحر.. وأغدقت عليه بدلالها فيضاً من الرغبات تفاعلت بأعماقه.. وقد تشوقت رجولته لطعم

أنثى.. وجسد أنثى.. وصت أنثى ناعم كالنسيم.. بعدما مقت رائحة البترول وجسدي جون وروبرت.. وكره تأوهات الذكر.. وبعد تعارف سريع سحبته إلى إحدى الكبائن التي تعمل بنظام «التايمر».

غرق شاكر بين أحضان الحسان في بيروت مستهلكاً مدخراته التي وفرها في الكويت.. فالضياع الذي توج حياته كان مدعاة لأن يحس بالخواء وينزلق إلى حالك في اندفاع غير محسوب.. وثمالة تغشاه بلا روية.. وتصادف أن تعرف على فتاة اسمها «أوفيليا» قالت له أنها يوغسلافية وإن كانت أمها في حلب.

كانت أوفيليا ذات جمال يسبي العقول.. وأنوثة طاغية تربك عمليات الفكر.. وتسري بجسدها البض دماء حارة تزيد من لسعات الرغبة. صادقته الفتاة ودارت به نهاراً بين جبال لبنان.. وليلاً بمواخيرها حتى نفذت نقوده. فتركته إلى قبرص حيث تعمل في «لارنكا» بإحدى شركات التجارة الدولية. ومن هناك اتصلت تليفونياً به.. وأطلعته على صعوبة عثوره على عمل في قبرص وهو لازال ببيروت. فسافر إليها وأخذت تطوف معه أنحاء المدينة بحثاً عن عمل له وباءت محاولاتها بالفشل. فقالت له مازحة: «ليس لك إلا اللجوء لسفارة إسرائيل في نيقوسيا».

اندهش شاكر لعبارتها وفوجئ بها تخبره بأن سفارة إسرائيل بالفعل ستحل مشكلته.. كما حدث مع آخرين أغلقت في وجوههم أبواب الرزق في قبرص. فرتبت لهم أعمالاً مختلفة تتفق وميولهم، تأكيداً لنوايا إسرائيل الحسنة تجاه العرب. وعندما قال لها في استغراب: هل يعد هذا السلوك خيانة لمصر؟

ضحكت عميلة الموساد وقالت في دلال:

أيها المغفل.. أنت خدمت في القوات الجوية في مصر. ولو أنك ذكرت ذلك للعاملين في سفارة إسرائيل فسيحملونك على أعناقهم.. لأنهم يريدون أصدقاء لهم في مصر على دراية بأوضاع الجيش. ولكنك لا تصلح لأن تكون جاسوساً أيها «الأبله».

وضحك شاكر وقال لها:

ولماذا لا أكون جاسوساً؟ إنني فشلت في كل حياتي ولم أفلح في أي عمل قط..

وفي بنسيون «جونايكا» تمدد شاكر على ظهره.. وسلط عينيه إلى نقطة وهمية بسقف الغرفة وقال لنفسه:

نعم.. أنا إنسان فاشل.. منذ صغري وتطاردني الخيبة تلو الخيبة.. حظي العاثر أوقعني في شرك الشواذ الأمريكيين في الكويت.. وطردت من العمل لأنني رفضت أن أمثل دور المرأة مع روبرت القذر. كنت أرحب بكوني «الرجل» والآن.. الآن ياليتني وافقت على ألعب «الدورين» معاً طالما وافقت على الاشتراك في تلك المهزلة.. وها أنا أعيش على «إعانة» من أوفيليا بعدما أبيعها رجولتي كل ليلة.. إعانة؟ ياليتها تكفي مصروفي هنا.. إنها تمنحني بمقدار ما أنفقه لأعيش بالكاد. حتى رجولتي شح نبعها وجف معينها أمام هذا النزف المستمر.

وقفز شاكر من فراشه يضمر أمراً.. وسحب حقيبته من الدولاب وأفرغ بها ملابسه وغادر لارنكا إلى الشمال حتى نيقوسيا العاصمة.

من فوره قصد مبنى السفارة الإسرائيلية.. وعلى الباب الرئيسي تقدم إلى موظف الاستعلامات وسأله عن ضابط المخابرات في السفارة.. دهش الموظف وطلب منه إبراز جواز سفره ليتأكد من جنسيته.. ورفع سماعة التليفون ولم تمض عدة دقائق إلا وكان بمكتب الضابط المسؤول الذي سأله عما يريد بالضبط. فقال له شاكر أنه مر في حياته بظروف صعبة.. وعانى كثيراً من جراء حظه السيء الذي صادفه في مصر والكويت.. وأنه الآن لا يملك ثمن تذكرة العودة إلى مصر ويريد أن «يبيع» لإسرائيل معلومات عسكرية هامة قد تحتاجها وفي ذات الوقت إنه على استعداد للعمل معهم في المستقبل لإمدادهم بما يحتاجونه من معلومات عن مصر.. بالمقابل، بل وحدد شاكر نوعية المعلومات التي يستطيع إمدادهم بها بالتفصيل.. وهي معلومات تتعلق بالقوات الجوية التي خدم بين صفوفها لمدة طويلة.

أصيب الضابط بالدهشة وتركه يكتب بخط يده كل ما عنده من بيانات ومعلومات

واستغرق شاكر في الكتابة ستة ساعات استطاع أن يكتب خلالها اثنتي عشرة صفحة فولسكاب تضمنت كل ما لديه. فطلب منه الضابط أن ينتظر بفندق واطسون حتى يستدعيه.

احتضان خائن

لازم شاكر حجرته بالفندق لمدة خمسة أيام.. اشتعلت بداخله أثناءها كل أنواع الظنون. وكان لبقائه بمفرده طوال هذه الأيام الخمسة سبب لا يعلمه بالطبع.. فالمخابرات الاسرائيلية لكي تدعم مدى صدق العميل الجديد.. تبحث في حياة العميل وشخصيته وتاريخ حياته.. ويترك العميل لفترة ما يقطع فيها الاتصال به.. وتتم في هذه الفترة أعمال التحريات والمراقبة والتحليل للتأكد من صدق النوايا.. وعندما استدعوه غمرته سعادة كبيرة.. وأسرع إلى السفارة الاسرائيلية فاستقبله ضابط آخر اسمه «هيدار» وهو الضابط المسؤول عن التجسس في «الجمهورية العربية المتحدة».

استعرض معه هيدار تفاصيل ما جاء بتقريره. ولعدة ساعات أخرى خضع شاكر لامتحان صعب من الضابط الاسرائيلي الذي تعامل معه بلطف شديد وقال له «مرحباً بك في سفارة بلد صديق» وعليك أن تعلم جيداً أن الفن العسكري والسياسي.. يستقي قوته من المعلومات التي يوفرها جهاز المخابرات الفعال في شتى الميادين في زمن الحرب أو السلم.

فالمعلومات المستقاة من قبل دوائر المخابرات هي أهم ما يعتمد عليه واضعو السياسة.. والقادة العسكريون في كل دولة. تلك الخطط التي تكفل وتؤمن المفاجأة وإرباك العدو في المجالين العسكري والسياسي.

ومن أهم نجاحات رجال المخابرات.. وورود المعلومات في الوقت المناسب.. وبالقدر الكافي قبل بداية الالتحام. وقياساً عليه.. فإسرائيل لا يمكن لها أن تخطط لأي عملية دفاعية مع العرب.. إلا إذا تجمعت لديها كل المعلومات المطلوبة عن الدول العربية عامة.. والدول المجاورة لها خاصة.

واضاف «هيدار» بأن القسم الخاص بالدول العربية في المخابرات الاسرائيلية.. قد انتهج مناهج عديدة.. وطبق وسائل مختلفة لتحقيق انتصار دائم على العرب. وما حدث في يونيو ١٩٦٧ هو نتاج المعلومات الغزيرة.. التي تجمعت وتسربت من البلاد العربية عن طريق عملاء إسرائيل المخلصين.

وأشد هيدار بدور هؤلاء العملاء موضحاً لشاكر صراحة أن إسرائيل دولة مزروعة في قلب الوطن العربي.. نتيجة لإرث قديم في أراضي فلسطين.. وأن المخابرات الاسرائيلية لا تترك عملاءها نهباً للمخاوف وللمخاطر.. بل تضحي بالكثير من أجلهم وتعمل جاهدة على استردادهم بشتى السبل.. ولا تبخل عليهم بشيء طالما هم مخلصون لإسرائيل محبون لها.

وأكد ضابط المخابرات المحنك.. أن الكثيرون يعتقدون بطريق الخطأ أن إسرائيل إنما تهدف فقط إلى الحصول على معلومات عسكرية لها اتصال مباشر بالعمليات القتالية. ولكن المعركة العسكرية تعتمد على نواح كثيرة جداً لا تقل أهمية عن القوات. بل لها الأثر الفعال على كفاءتها مثل قدرة الدولة على الصناعة.. وتوافر الطاقة الانتاجية، والحالة الاقتصادية العامة للدولة، والحالة التموينية والاحتياطي العام والمخزون السلعي.. ومدى تماسك الجبهة الداخلية وصمودها.. وقدرة الدولة ومدى استعدادها لظروف الحرب.

كانت الظروف النفسية السيئة مضافاً إليها الحاجة الماسة إلى المال سبباً مهماً في جلوس شاكر فاخوري أمام ضابط الاستخبارات الإسرائيلي.. فقد جلس أمامه لأوقات طويلة وعلى مدار أيام عدة كتلميذ ينتبه لإرشادت أستاذه.. وبرأسه تدور عشرات الأسئلة حول معاناته.. والمشكلات التي يمر بها..

ووسوس له الشيطان أن إسرائيل تعرف كل شيء عن مصر.. وأن المعلومات التي قدمها لن تقدم أو تؤخر.. إنها مجرد معلومات عامة هامشية لا تحمل ضرراً ما لأمن وطنه.. أو تدينه أمام الجهات الأمنية إذا ما انكشف أمره.

وظلت تلك الأوهام تسيطر عليه حتى استحالت إلى حقيقة.. يؤكدها ما كان يلقيه عليه هيدار بثقة.. واطمئنان.

لقد كانت جل أمانيه أن يخرج من بوتقة الفقر.. ويعيش بمصر آمناً معيشياً لا يسأل أحد أو يمر بضائقة مالية ترهق باله.

وأمام رغبته الملحة في الإثراء السريع المريح.. ونقص الدافع الوطني.. إضافة إلى الإغراءات الخيالية التي صبت في أذنية صباً.. وتملكت منه.. وافق على أن يكون صديقاً للعدو.. أميناً في إمداده بكل ما يطلب منه من معلومات أو مهام. هكذا دخل شاكر برجليه وكر الجاسوسية راضياً قانعاً.. غير عابئ بالعواقب أو نهاية الطريق المظلم الحالك.. ووجدها رجال الموساد فرصة لا تعوض جاءتهم بلا تعب.. فاستغلوها وأجادوا تلقينه فنون اللعبة الخطرة.. وكانوا قانعين بأن من رضي باللعب مع الثعابين فحتماً - سيلدغ شر لدغة.

استوعب العميل الجديد مهامه التجسسية جيداً.. وامتلأت جيوبه الحاوية بأموال الموساد القذرة. وحمل حقائبه إلى القاهرة لمدة شهر.. وعاد ثانية إلى قبرص وأبلغ الضابط المسؤول بالسفارة الاسرائيلية بنتائج رحلته السريعة.

إخلاص جاسوس

كتب شاكر في تقريره أنه لم يضيع وقتاً في القاهرة. بل شرع في الحال في ممارسة عمله بصدق.. وكون صداقات عديدة مع رجال ونساء من فئات مختلفة من رواد الملاهي والبارات. وأهم صداقاته كانت مع ضابط مصري يدعى (م. ش. أ) تعرف عليه بأحد الفنادق. وأغدق عليه بكثير من الهدايا دون سؤاله عن أي شيء حتى لا يثير مخاوفه.

وكان التقرير الذي سلمه شاكر لضابط الموساد متخماً بالمعلومات التي أذهلت الضابط.. فأرسله بدوره إلى تل أبيب.. وجاءت الأوامر العاجلة بضرورة سفر شاكر لإسرائيل.

وتأكيداً لإخلاصه للموساد وافق شاكر بدون مناقشة، وتسلم جواز سفر إسرائيلي باسم (موشي إبراهام).. وطار بطائرة العال الإسرائيلية إلى مطار (اللد).. ليجد الضابط هيدار بانتظاره.. وكانت إقامته بتل أبيب في إحدى الشقق المعدة لأمثاله من الخونة.. وهي في العادة مجهزة بأحدث ميكروفونات التنصت والكاميرات الدقيقة.

وكعادة المخابرات الاسرائيلية لكي يضمنوا السيطرة على الجواسيس.. صوروه عارياً مع مديرة المنزل.. وهي فتاة في الثانية والعشرين خمرية اللون قالت له إن جذورها عربية. وأقامت معه الفتاة إقامة كاملة لخدمته ولراحته.

وفي مبنى المخابرات الاسرائيلية، اجتمع به عدة ضباط وخبراء ناقشوا معه التقرير المفصل الذي سلمه في قبرص، وكان بينهم الضابط هيدار.. وضابط آخر اسمه أبو يوسف.. وآخر مسؤول عن التجسس في لبنان، وبعد مناقشات طويلة، قال له كبير الخبراء:

لقد سعيت إلينا بنفسك في قبرص، والآن.. نريد أن نتأكد من إخلاصك للموساد.. وأنك لست ضابط مخابرات مصري مدسوس علينا.. وهذا ليس ببعيد على المخابرات المصرية التي زرعت خبراء لها في جهازنا مرات عديدة.

صراخ شاكر محتجاً، وأكد لهم أنه لا يعرف أين يقع مبنى المخابرات المصرية، وأنه بالفعل ذهب بنفسه إلى سفارتهم في قبرص.. رغبة منه في إثبات أهميته ووجوده بعدما أحاطه الفشل من كل جانب.. وأيضاً ليحصل على أموال كثيرة تعينه على مجابهة أهله ومعارفه في مصر.

قال هيدار:

أنت هنا في تل أبيب لتثبت لنا ذلك، ولكي نعمل معاً بأمان، فسنفحصك بواسطة «جهاز كشف الكذب».

ولم يحتج شاكر هذه المرة.. بل أبدى رغبة جادة في تأكيد «إخلاصه» لهم بكل الطرق التي يرونها.

وأخضع بالفعل للفحص بواسطة الجهاز الامريكي.. الذي أكد صدق خيانته لوطنه وانتمائه للموساد قلباً وعقلاً.

عند ذلك.. ابتدأ تدريبه على أيدي أمهر ضباط المخابرات.. الذين صنعوا منه جاسوساً خبيراً بفنون التصوير، وتشفير الرسائل، والكتابة بالحبر السري، ومسح الأراضي «الطوبوغرافيا» وكيفية التعرف على الأسلحة الحربية برية وبحرية وجوية، وتحديد قدرة تسلحها وطاقتها ومداها المجدي، وأعطى عنواناً في روما ليبعث برسائله المشفرة.

ومن المعروف أن المخابرات الاسرائيلية تخصص لكل جاسوس يعمل لحسابها شفرة خاصة به.. باستخدام «رواية» عربية معروفة أو أجنبية متداولة.. تكون أساساً للإشارات الرمزية المتبادلة بينه وبين المخابرات الإسرائيلية.. ويجري تبديل هذه الرموز بين آن وآخر.

أيضاً تحدد المخابرات الاسرائيلية نوعية الحبر السري لكل جاسوس، فلكل حبر سري ميزات خاصة تؤكد أن مسكر الرسالة هو العميل نفسه المسلم إليه الحبر.

خريج الموساد في القاهرة

بعدما حصل شاكر فاخوري على دورات في التجسس، عاد ثانية إلى نيقوسيا ثم إلى القاهرة. وبدأ في الحال جمع معلومات وافية عن الجيش المصري والقوات الجوية بالذات.. وكذلك عن النشاط السوفييتي في مصر والخبراء العسكريين السوفييت، والأحوال عامة بعد غارات إسرائيل المستمرة على ضواحي القاهرة، وكان يستقي معلوماته من أفواه العامة من الناس.. على المقاهي وفي المواصلات العامة والنوادي الليلية في شارع الهرم.. حيث ترتادها كافة المستويات.

أما المعلومات العسكرية وأخبار الاستعدادات الحربية، ونشاط الخبراء السوفييت فكان يحصل عليها من العسكريين الذين يمتون إليه بصفة القرابة أو الجيرة. وأيضاً من خلال الضابط (م. ش. أ) الذي حمل إليه بعض الهدايا من قبرص على سبيل الذكرى.

لقد ركز شاكر كثيراً على هذا الضابط الذي استجاب له بسرعة.. وتبسط معه في الحديث وسرد الأخبار مما استتبع ملازمته لفترة طويلة طوال وجوده بالقاهرة، وعمل على

منحه الدعوات المجانية للحملات.. وبعض الهدايا الذهبية الثمينة في المناسبات المختلفة، والتي لا تتناسب وحجم علاقتهما.

كل ذلك أدى إلى تخوف الضابط المصري من سلوك الشاب، فبادر على الفور بإبلاغ جهاز المخابرات بشكوكه.. ونقل إلى المسؤولين بالجهاز كل ما دار بينه وبين الشاب من أحاديث وما تسلمه منه من هدايا مختلفة.

تم عمل الترتيبات الأمنية اللازمة.. وكان هناك حرص زائد على ضبطه ومعه أدلة إدانته.. وطلبوا من الضابط أن يتظاهر بصداقته، وألا يجعله يشك في نواياه.. وأن يطلعهم أولاً بأول على مجريات الأمور.

وبعدما اعتقد شاكر أنه اشترى الضابط المصري بهداياه.. انتهز فرصة مروره بضائقة مالية «مفتعلة»، وعرض عليه إمداده ببعض المال.

وحسب الخطة وافق على طلب شاكر بجلب بعض الوثائق العسكرية.. بحجة الاطلاع على استعدادات الجيش للحرب، ولبس الخائن ثياب الوطني المخلص الذي يحلم بيوم الثأر من إسرائيل، وبأن رؤية هذه الوثائق وشروحه عليها تسعده كثيراً. وتشعره بمدى قوة الجيش المصري، خاصة والطيران الاسرائيلي، قد بدأ يتساقط كالعصافير بعد اكتمال حائط الصواريخ، ولم تعد لديه الشجاعة على اختراق المجال الجوي المصري. وأمده الضابط بمعرفة جهاز المخابرات ببعض الوثائق، ولما تضخمت لدى شاكر الوثائق المعدة سلفاً حملها سريعاً إلى نيقوسيا، وامتلأت جيوبه عن آخرها بأموال الموساد، فعاد بها إلى القاهرة يحمل رغبة الموساد في تجنيد الضابط المصري، وكل مهمته منحصرة في إقناعه بالسفر إلى قبرص لعلاج ابنته، وهناك.. سيتولى رجال الموساد اصطياده بالسيطرة عليه بتصويره عارياً مع عميلة إسرائيلية، وبمنحه آلاف الجنيهات.

عندما عرض شاكر على الضابط فكرة السفر إلى قبرص.. تظاهر بالموافقة، وأخذ يماطله وفقاً لطلب المخابرات متحججاً بدراسة الطلب في قيادة الجيش، حيث كانت طلبات السفر خارج مصر تخضع لظروف عدة بالنسبة للضباط.

ولما طالت مدة الانتظار، أراد شاكر أن يذهب بالضابط إلى قبرص مجنداً.. وترتفع بذلك مكانته في جهاز الموساد.. وبالتالي يتعاظم رصيده المالي.. فمنح الضابط مبلغاً كبيراً لقاء بعض الخرائط العسكرية، موضحاً عليها مواقع صواريخ «سام ٦»، وكذلك المواقع التبادلية، وخرائط أخرى تبين محطات الرادار الهيكلية والصواريخ، وأيضاً خطط السوفييت لحماية المواقع الحيوية، وخطط اصطياد الطيران الاسرائيلي المتسلل إلى العمق المصري.

بل إن الخائن الذي اعتقد بالفعل أنه اشترى الضابط.. طلب منه تصوير مواقع عسكرية، وإمداده بوثائق عن الخطط الدفاعية والهجومية العسكرية والأسلحة الحديثة، واستأجر الجاسوس الخائن شقة جديدة من أموال الموساد، خصصها للقاءاته مع الضابط و«تخزين» المستندات والخرائط بها.

وبعد عدة سفرات إلى قبرص بالمعلومات التي سربتها المخابرات المصرية إليه لينقلها إلى الموساد.. يعود شاكر بالأموال الطائلة، ينفق منها على ملذاته، ويشتري الهدايا للضابط ولأسرته.

وذات مساء عاد مخموراً من سهرة فسق، وعندما امتدت يده بالمفتاح إلى كالون الشقة، فوجئ بالباب ينفتح فجأة.. ويقف بالداخل عدة أشخاص كانوا بانتظاره ويترقبون مجيئه.. جذبه أحدهم إلى الداخل، وعلى المكتب رأى الأوراق التي جمعها.. خرائط.. ووثائق.. وتقارير كتبها بخط يده، وصور لبعض المواقع العسكرية، وعدة أفلام خام لم يجر تحميضها..

وبينما كانت الأيدي تمسك به، ويتجه الركب إلى حيث ينتظره مصيره الذي خطه بنفسه.. أحس باندفاع بوله الدافئ بين ساقيه.. وقال لمرافقيه: إلى أين ستأخذونني؟

فقال أحدهم: لتدفع ثمن خيانتك.. هذه الأرض التي تبولت عليها الآن رعباً.. منحتك الأمن والأمان فبعتها.. بعتها لأقذر كلاب الأرض نجاسة وخسة.. فتعال إلى مصيرك المحتوم حيث لن ينقذك أحد من حبل المشنقة..!!

***

أصغر جاسوس فى العالم...... مصرى!!!!

قصة هذا الجاسوس قصة فريدة بالفعل فهي تجمع بين جنباتها الغرابة والطرافة والإثارة في وقت واحد.. هي قصة طفل مصري كان يرعى الأغنام ويقوم بتربية الدجاج في صحراء سيناء.. اندفع في طريق المخابرات العامة المصرية التي كانت وقتها تدير حربا من نوع خاص مع العدو الإسرائيلي بعد نكسة ١٩٦٧ حققت فيها انتصارات ساحقة لم يفق منها العدو إلا على انتصار اكبر في أكتوبر١٩٧٣م..

الطفل صالح واحد من أبطال عالم الجاسوسية والمخابرات الذين خدموا وطنهم في الصغر والكبر فكما كان صالح وقتها اصغر جاسوس في العالم وأكبر من اذاق العدو الصهيوني مرارة الهزيمة، الآن هو يحتل موقعا حساسا في أحد الأجهزة الأمنية المصرية وكأنه أخذ على عاتقه خدمة الوطن وحمايته في الكبر والصغر.

في العام ١٩٦٨ وبينما تلقي النكسة بظلالها على الجميع وتعيش إسرائيل في زهو بأنها ألحقت الهزيمة بالجيش المصري، واحتلت شبه جزيرة سيناء، وأقامت الحصون والمواقع المنيعة بطول القناة وداخل الأراضي المصرية التي سيطرت عليها كانت هناك بطولات على الجانب الآخر أسفرت عن نتائج باهرة كانت في طي الكتمان إلى وقت قريب حتى تم الكشف عنها ومنها قصة الطفل المصري «صالح» أصغر جاسوس في العالم... فبينما كان مكتب المخابرات المصرية في شغل لا ينقطع لجمع المزيد من المعلومات عن العدو، وعدد قواته، ونوعية الأسلحة التي يمتلكها وطبيعة معيشة جنوده، والحراسات الليلية، وطبيعة حصونهم، كان «صالح» يعمل في جو الصحراء المحرقة على رعي الأغنام وتربية الدجاج محاولا الاحتماء بظل الكوخ الصغير الذي يقطنه والده الشيخ «عطية» وأمه «مبروكة علم الدين» وذلك بالقرب من بئر قليل المياه داخل سيناء.

كان الطفل يداعب طفولته مع الأغنام والدجاج، ويتأمل الفضاء الواسع بخياله

المتطلع إلى السماء، لم يسرح خياله إلى أن يكون علامة مضيئة أمام القوات المصرية وهي تعبر قناة السويس لتحقق النصر وترفع القامة العربية عاليا في كل مكان، ولم يفكر يوماً في أنه سيكون مساعدا للمخابرات المصرية خلف العدو الإسرائيلي، ويقوم بزرع أدق أجهزة للتصنت داخل مواقع الجيش الإسرائيلي ليصبح أصغر جاسوس عرفه التاريخ.

تجنيد الطفل

ظلت المخابرات تفكر في كيفية الحصول على المعلومات من خلف وداخل مواقع العدو، وكيف تحقق درجة الأمان العالية لمن يؤد هذا الغرض؟ وفي ظلمات الليل الدامس والرياح الشديدة تسلل ضابط مخابرات في ذلك الوقت ويدعى «كيلاني» إلى أرض سيناء، وكان متنكرا في زي أعرابي يتاجر في المخدرات، تحدى الضابط صعوبات الصحراء حتى وصل إلى بئر المياه، وأخذ يتناول جرعات منه، وشاهده والد الطفل صالح، وكعادة العرب ضايفه في كوخه الصغير، ودار حوار بين الضابط المتنكر في زي تاجر، وعطية والد صالح انتهى بتكوين صداقة، أراد الضابط تجنيد الأب لصالح المخابرات المصرية ولكن حدث أثناء استضافة والد صالح للضابط الذي كان حريصا في معاملاته وسلوكه حتى، يتعود الأب عليه أن أقنعه أنه بانتظار عودة شحنته التجارية.

وفي اليوم التالي ترك الضابط مجلس الأب عطية وأخذ يتجول حول بيته يتأمل السماء حتى وصل إلى الطفل وأخذ يداعبه حتى لا يشك الأب في سلوكه، وإثناء ذلك خطر ببال ضابط المخابرات المصرية أغرب فكرة وهي تجنيد الطفل صالح بدلا من الأب وتعليمه وتلقينه دروسا في التخابر، وكيفية الحصول على المعلومات من العدو الصهيوني، وأخذ الضابط يدرس هذه الفكرة مع نفسه خاصة أنه من الصعوبة الشك في طفل، كما أن الطفل نفسه يحمل روحا وطنية وهذا ما لاحظه الضابط، الذي ظل أياما معدودة ينفرد بالطفل بحذر شديد حتى استطاع تجنيده، وعندما اطمأن إليه وإلى قدرته على استيعاب ما طلبه منه، وقدرته على تحمل المهمة الصعبة قرر الرحيل. وبعدها اجتمع مع والد الطفل على مائدة الطعام وشكره على استضافته ثم طلب الرحيل لتأخر قافلته التجارية، وعندما ذهب ليقبل الطفل اتفقا سويا على اللقاء عند صخرة بالقرب من الشاطئ.

السر في الدجاجة

كان اللقاء الأول عند الصخرة لقاء عاصفا فقد تأخر الطفل عن الموعد واعتقد الضابط أن جهده قد ضاع، ولكن من وقت لآخر كانت الآمال لا تفارق الضابط في الحصول على أسرار مواقع العدو، كانت الثواني تمر كأنها سنوات مملة حتى ظهر من بعيد جسد نحيف لقد كان الطفل «صالح» الذي جاء يبرر تأخيره بأنه اختار الوقت المناسب حتى لا يلمحه أحد، كان الطفل يعرف أن مهمته صعبة، ودوره خطير، وأن حياته معلقة على أستار أي خطأ يحدث، تلقى الطفل بعض التعليمات والإرشادات التي تجعله في مأمن وذهب ليترك الضابط وحيدا شارد الفكر يفكر في وسيلة تسمح «لصالح» بأن يتجول في مواقع الإسرائيليين بحرية كاملة حتى جاء اليوم التالي لموعد اللقاء مع الطفل صالح الذي كان يحمل معه بعض البيض من إنتاج الدجاج الذي يقوم بتربيته وما أن شاهد الضابط الطفل حتى صاح وجدتها انها الدجاجة التي ستمكنك من الدخول إلى مواقع العدو بدون معاناة أو شك فيك، إنها الدجاجة مفتاح السر لم يع الطفل شيئا، واندهش لصراخ الضابط الذي كان دائما هادئا، وجلسا على قبة الصخرة ليشرح له الفكرة التي ستكون الوسيلة لدخوله مواقع العدو والحصول على المعلومات بدون صعوبة أو شك في سلوكه.

صداقات

تركزت الفكرة في قيام «صالح» ببيع البيض داخل المواقع للجنود الإسرائيليين، وبالفعل تمت الفكرة بنجاح وبدأ الطفل يحقق صداقات داخل المواقع ومع الجنود لقد كان صديقا مهذبا وبائعا في نفس الوقت، وكان يبيع ثلاث بيضات مقابل علبة من اللحوم المحفوظة أو المربى، وداومت المخابرات المصرية على الاتصال به وتزويده بما يحتاج من البيض لزيارة أكبر قدر من المواقع حتى يمكن جمع المعلومات منها.

وبعد شهر تقريبا بدأت مهمة الطفل في جمع المعلومات بطريقة تلقائية من خلال المشاهدة والملاحظة وبعد أشهر معدودة جذب عددا من الجنود لصداقته فكان يجمع المعلومات بطريقته البريئة من خلال الحديث معهم، كان في كل مرة يحمل مجموعة قليلة

من البيض يبعها ثم يعود إلى منزله يحمل مجموعة أخرى إلى موقع آخر تعود على المكان وتعود عليه الجنود حتى أنهم كانوا يهللون فرحا حينما يظهر.

ومع الأيام تكونت الصداقات واستطاع الطفل التجول بحرية شديدة داخل مواقع العدو بدون أن يحمل معه البيض كان يتعامل بتلقائية شديدة وبذكاء مرتفع لم تكن أبدا ملامحه تظهر هذا الذكاء. وظل يداعب الجنود، ويمرح معهم ويمارس الألعاب معهم، يستمع لما يقولون وكأنه لا يفهم شيئا وما أن يصل إلى الضابط حتى يروي له بالتفاصيل ما سمعه من الجنود، وما شاهده في المواقع بدون ملل.

معلومات قيمة

وبعد أربعة أشهر بدأ حصاد الطفل يظهر في صورة معلومات لقد استطاع أن يقدم للمخابرات المصرية ما تعجز عنه الوسائل المتقدمة، وتكنولوجيا التجسس وقتذلك.

فقد نجح في التعرف على الثغرات في حقول الألغام المحيطة لأربعة مواقع مهمة بها المدافع الثقيلة بالإضافة إلى مولدات الكهرباء، ووضع خزانات المياه، وبيان تفصيلي عن غرف الضباط، وأماكن نوم الجنود وأعداد الحراسة الليلية، وكل التفاصيل الدقيقة حتى الأسلاك الشائكة، وكان يستطيع الطفل رسمها، ومع تعليمات ضابط المخابرات استطاع الطفل التمييز بين أنواع الأسلحة ظل الطفل يسرد للمخابرات ما يحدث داخل المواقع من كبيرة وصغيرة وبناء على ما تجمعه المخابرات من الطفل نرسم الخطط المستقبلية لكيفية الاستفادة القصوى من الطفل مع توفير أكبر قدر من الأمان والرعاية له

مضايقات

كثيرا ما كان يتعرض الطفل أثناء احتكاكه بالجنود الصهاينة للمضايقات والشتائم وأحيانا الضرب من بعضهم لكن دون شك فيه، وكان ضابط المخابرات المصرية «كيلاني» يخفف عنه الآلام، ويبث فيه روح الصبر والبطولة وكان أصدقاؤه من الجنود الإسرائيليين أيضا يخففون عنه الآلام، وينقذونه من تحت أيدي وأقدام زملائهم، وكان من أبرز أصدقاء الطفل «صالح» ضابط يهودي من أصل يمني يدعى «جعفر درويش» من مواليد

جيحانه في اليمن وكان قائداً للنقطة ١٥٨ المسماة بموقع الجباسات، ظل الطفل يتحمل مشقة المهمة حتى جاء شهر سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب بشهر واحد.

وبعد اختباره في عملية نفذها الطفل بدقة عالية قام ضابط المخابرات المصرية بتزويد الطفل بقطع معدنية صغيرة، وتم تدريبه على كيفية وضعها في غرف قادة المواقع التي يتردد عليها وطريقة لصقها من الوجه الممغنط في الأجزاء الحديدية المختفية كقوائم الأسرة وأسقف الدواليب الحديدية، وكانت هذه العملية مملوءة بالمخاطر والمحاذير، وكان هناك تردد من قيام الطفل بها حتى لا يتعرض للمخاطرة، ولكن الطفل رغب في القيام بهذه المهمة وذهب وترك الضابط في قلق شديد.

قلق وحيرة

كانت تراوده الظنون التي لا تنقطع، ظل الضابط ناظرا إلى السماء لا يستطيع الجلوس في مكان حتى قاربت الشمس على المغيب فزاد القلق والحيرة والتساؤل:

هل تم القبض على الطفل؟ لابد أنه يذوق ألوان العذاب الآن وما العمل؟ وكيف الخلاص إذا تم اكتشاف الطفل؟ كيف يمكن تخليصه من هذا العدو الصهيوني؟ ووسط هذه التساؤلات ظهر الطفل ليغمر وجه الضابط فرحة لا يمكن تصورها. لقد عاد بكامل صحته حاملا لعلامة النصر واستطاع إنجاز أصعب عملية في حياته ليسجل التاريخ اسمه، لقد مكنت العملية الأخيرة التي قام بها الطفل باقتدار المخابرات المصرية من الاستماع من خلال هذه القطع المعدنية التي بداخلها جهاز إرسال دقيق إلى كل ما يدور داخل حجرات القيادة من أحاديث وأوامر من كيفية التعامل مع هذه المواقع أثناء العبور، كما استطاع المصريون التعامل مباشرة أثناء المعركة مع هذه المواقع بتوجيه إنذارات إليهم للاستسلام.

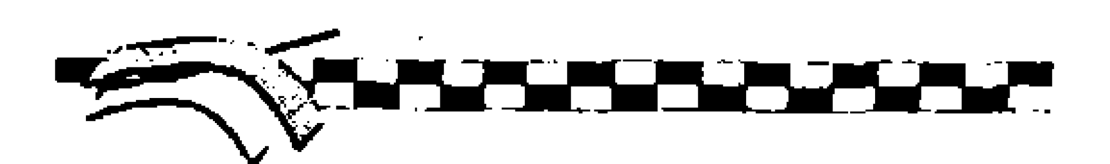
كل هذا ولم يكشف الضابط في زيه الإعرابي عن شخصيته للطفل وقبل الحرب بعشرين يوما صدرت الأوامرمن المخابرات المصرية بنقل الطفل وأسرته إلى القاهرة، ولم يكن الأمر سهلا خاصة فقد نقل صالح وعائلته من الصحراء إلى القناة وتم عبورهم

للقناة ومنها إلى «ميت أبو الكوم» حيث كان الرئيس الراحل محمد أنور السادات في استقبالهم وبعد أيام من نصر أكتوبر أدرك الطفل صالح مدى أهمية ما قام به من أعمال خارقة ساهمت في انتصارات أكتوبر ودخل صالح مبنى المخابرات المصرية فوجد الإعرابي المهرب مرتديا زيا مدنيا لتملأ الدهشة وجه الصغير، ويقوم الضابط «كيلاني» برعايته في التعليم ويدور الزمان ليجلس الطفل مكان «الرائد كيلاني» على مقعده وفي غرفته

***

أصطادته زينب لحبل المشنقة في مصر

الجاسوس محمد ابراهيم كامل الشهير بماريو



سؤال محير مازلنا نبحث عن إجابته.. وننقب بين الصفحات لعلنا نعثر على تعليل منطقي يحل هذا اللغز الشائك.. **لماذا الاسكندرية؟**

عشرات من الجواسيس الخونة أنجبتهم المدينة الجميلة فعاشوا تحت سمائها واستنشقوا نسائمها وتمددوا على شواطئها الباسمة وبذرت بداخلهم فجأة بذور الخيانة.. فمدت جذورها تقتلع الحب الخصيب وتغتال خلايا الانتماء؟؟..

لماذا..؟!!

عشرات الملفات عن جواسيس الإسكندرية.. كلما قرأت سطورها تأخذني الدهشة ولا أجد إجابة شافية عما يدور بخلدي من تساؤلات. فالاسكندرية تختلف كثيراً عن كل مدن مصر.. وتتميز عنها بتنوع مصادر الرزق ووفرتها.. سواء أكانت مشروعات إنمائية وصناعية مصرية.. أو شركات أجنبية متعددة كلها خلقت مهناً جديدة فتحت مجالات أوسع للاسترزاق والتعيش. ولا يمكننا بأي حال أن نقارن بينها وبين مدينة العريش مثلاً.. التي برغم احتلالها عام ١٩٦٧ ومعاناة أهلها من جراء تحكم المحتل وتضييق منابع الرزق.. إلا أن جواسيسها الذين عملوا لصالح العدو - اضطروا - بسبب الضغوط المادية والمعنوية إلى السقوط.. تدفعهم مشاكل لا قبل لهم بها.

هؤلاء الجواسيس يقل عددهم كثيراً عن جواسيس الإسكندرية.. بل إن جواسيس العريش لم ينفذ حكم الإعدام إلا في قلة منهم أشهرهم على الإطلاق إبراهيم شاهين زوج انشراح موسى.. بينما نجد ملفات الجاسوسية في الإسكندرية تحف بعشرات القضايا التي انتهت غالبيتها بإعدام الخونة.. فتتفوق بذلك عن سائر مدن مصر بما فيها القاهرة. وهذا أمر يدعونا للبحث عن جذور الجاسوسية في الإسكندرية.. وعمقها داخل البنية

الاجتماعية التي اختلت بعد النكسة عام ١٩٦٧.. وأيضاً نتيجة لعدم مواكبة ركب حضارة أشرقت علاماته.. ودوت بيارقة لتهرب أحاجي التخلف وأسانيده.

جاسوس الاسكندرية «ماريو» أو «محمد إبراهيم فهمي كامل» الذي يعد من أشهر عملاء إسرائيل في مصر الذين يتم تجنيدهم بسهولة يكاد العقل لا يستوعبها أو يصدقها. وأيضاً كانت قصة سقوطه في قبضة مخابراتنا أكثر سهولة.. أما نهايته البشعة فلم يكن ليصدقها هو أو يتخيل خطوطها السوداء..

جذور متاكلة

منذ تفتحت عيناه على ضجيج الحياة في حي محرم بك المزدحم ذاب عشقاً في جرس الترام.. الذي كلما ملأ أذنية خرج إلى الشرفة يبتسم في انبهار وحيرة.. فنشأت بينه - منذ طفولته - وبين الترام قصة غرام دفعته للهرب من مدرسته.. والسعي وراءه راكباً لجميع خطوطه المختلفة ومحطاته.

ولم يدم هذا الحب كثيراً إذ اندفع فجأة نحو السيارات فالتصق حباً بها.. والتحم عقله وقلبه الصغير بموتور السيارة مستغرقاً وقته كله.. حتى أخفق في دراسته الابتدائية.. وأسرعت به خطاه إلى أول ورشة لميكانيكا السيارات يمتلكها إيطالي يدعى الخواجة «روبرتو» الذي اكتشف هذا الحب الجارف بين الولد والموتور فعلمه كيف يتفاعل معه؟! ويفهمه ويستوعبه. ولم تكد تمضي عدة أشهر فقط إلا وكان محمد أشهر صبي ميكانيكي في ورشة الخواجة روبرتو.

كانت السيارات تقف موازية للرصيف بجوار الورشة بأعداد كبيرة.. تنتظر أنامل محمد الذهبية وهي تداعب الآلة المعدنية الصماء.. وتمر بين أجزائها في تناغم عجيب فتعمل بكفاءة ويتحسن صوت «نبض» الموتور.. ويزداد الصبي شهرة كل يوم. ورغم محاولات البعض استدراجه واستثمار خبرته وشهرته في عمل ورشة «مناصفة» بعيداً عن روبرتو، أجبروا على أن يتعاملوا معه كرجل لا كصبي في الخامسة عشرة من عمره. وكثيراً ما كان ينزعج عندما كان يخرج إلى الكورنيش مع أقرانه بسبب توقف السيارة ودعوة

أصحابها له ليركب حتى منزله، فكبرت لدى الصبي روح الرجولة وارتسمت خطوطها المبكرة حيث كان مبعثها حبه الشديد للعمل والجدية والتفكير الطويل.

وبعد عدة سنوات كانت الأحوال والصور قد تغيرت.

صار الصبي شاباً يافعاً خبيراً بميكانيكا السيارات. تعلم اللغة الإيطالية من خلال الخواجة روبرتو والإيطاليين المترددين على الورشة وأصبح يجيد التعبير بها كأهلها.. فأطلق عليه اسم «ماريو».

وعندما لسعته نظرات الإعجاب من «وجيدة».. دق قلبه بعنف وانتبه لموعد مرورها أمام الورشة حين عودتها من المدرسة. فواعدها والتقى بها ولم يطل به الأمر كثيراً.. إذ تقدم لأسرتها وتزوجها بعدما اقنعتهم رجولته وسمعته ا‍ا ميدة وشقته الجميلة في محرم بك.

ثمانية أعوام من زواجه وكانت النقود التي يكسبها تستثمر في ورشة جديدة أقامها بمفرده. ومنذ استقل في عمله أخذ منه العمل معظم وقته وفكره حتى تعرف على فتاة قاهرية كانت تصطاف مع أهلها بالإسكندرية وأقنعها بالزواج.. ولأنها كانت ابنة أسرة ثرية فقد اشترى لها شقة في الدقي بالقاهرة وأثثها.. وأقام مع عروسه «تغريد» لبعض الوقت ثم عاد إلى الاسكندرية مستغرقاً في عمله متنقلاً ما بين وجيدة وتغريد ينفق هنا وهناك. وعندما توقف ذات يوم على الطريق الصحراوي بالقرب من الرست هاوس بجوار سيارة معطلة.. أعجبته صاحبة السيارة ودار بينهما حوار قصير.. على أثره ركبت معه السيارة الرائعة إلى القاهرة.. وفي الطريق عرف أنها راقصة مشهورة في شارع الهرم سهر معها في الكباريهات وتنقل معها هنا وهناك.. ثم جرجرته معها إلى شقتها..واعترف ماريو أن هذه الراقصة كانت أول من دفعه والخطوة الأولى نحو حبل المشنقة.. ويقول في اعترافاته التفصيلية..

الجسد ينادي

في تلك الليلة شربت كثيراً وكلما رأيت جسد الراقصة المثير يرتعش أمام الزبائن

ترتعش في جسدي خلجات الرغبة، وبعدما انتهت من فقراتها الراقصة في أربعة كباريهات.. عدنا إلى شقتها في المهندسين وبدلاً من أن أنام أو أذهب لشقتي حيث تنتظرني تغريد.. وجدتني أطوق خصرها بشدة وأطلب منها أن ترقص لي وحدي، فأبدلت ملابسها وعادت لي بلباس الرقص الشفاف الذي سلب عقلي وأفقدني الصواب.

وذهبت إلى تغريد التي وجدتها تشتاق إلى جيوبي قلما تشتاق الي.. فافتعلت مشاجرة معها وعدت ثانية إلى الراقصة التي استقبلتني فرحة.. ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكاد أفارقها أو أبتعد عنها لأواصل عملي في الورشة.

لقد استعنت ببعض الصبية الذين دربتهم على القيام بالعمل بدلاً مني.. فكنت أتغيب لعدة أيام في القاهرة وأعود لأجمع ما ينتظرني من مال لديهم.. وسرعان ما أرجع لأنفقه على الداعرات والراقصات.. ونساء يبعن بناتهن ورجال يبيعون لحم زوجاتهم من أجل جنيهات قليلة.

ولأن للفلوس مفعول السحر فقد كنت أعامل كملك.. لأنني أصرف ببذخ على من يحطن بي من فتيات ونساء أشبعنني تدللاً.. وصورنني كأنني الرجل الأول لديهن، فأطلقت يدي ومددتها إلى مدخراتي في البنك شيئاً فشيئاً حتى أصبح رصيدي صفراً وتحولت الورشة إلى خرابة بعدما سرق الصبيان أدواتها وهرب منها الزبائن.

حاولت أن أثوب إلى رشدي وكان الوقت قد فات، وخسرت سمعتي بعدما خسرت نفسي.. وأصبحت مصاريف وجيدة وتغريد تمثل عبئاً قاسياً على نفسي وأنا الذي لم يعضني الجوع أو تثقلني الحاجة من قبل.. فتألمت لحالي وقررت أن أخطو خطوة سريعة إلى الأمام وإلا.. فالمستقبل المجهول ينتظرني والفقر يسعى ورائي بشراسة ولا أستطيع مجابهته.

استخرجت جواز سفر وحصلت على عناوين لبعض زبائني القدامى في إيطاليا وركبت السفينة الإيطالية «ماركو» إلى نابولي.. وبعدما رأيت أضواء الميناء تتلألأ على صفحة المياه صحت بأعلى صوتي تشاو.. تشاو نابولي.

وفي بنسيون قديم حقير وقفت أمام صاحبه العجوز أسأله هل زرت مصر من قبل؟ فقال الرجل لا.. ضحكت وقلت له أنني رأيتك في الاسكندرية منذ سنوات فجاءتني زوجته تسبقها حمم من الشتائم قائلة:

ماذا تريد أيها المصري من زوجي؟ أتظن أنك فهلوي؟ انتبه لنفسك وإلا.. ففي نابولي يقولون: إذا كان المصري يسرق الكحل من العين.. فنحن نسرق اللبن من فنجان الشاي. وكان استقبالاً سيئاً في اول أيامي في إيطاليا.

في اليوم التالي حاولت أن أتعرف على السوق وبالأخص أماكن بيع قطع الغيار المستعملة.. ولكن صديقاً إيطالياً توصلت إليه أخبرني أن في «ميلانو» أكبر أسواق إيطاليا للسيارات القديمة والمستعملة.. وثمنها يعادل نصف الثمن في نابولي. فاتجهت شمالاً إلى روما وقطعت مئات الكيلو مترات بالقطار السريع حتى ميلانو.. وبالفعل كانت الأسعار هناك أقل من نصفها في نابولي.. والتقيت في ميلانو بأحد زبائني القدامى الذي سهل لي مهمتي.. ولفت انتباهي إلى أماكن بيع منتجات خان الخليلي في ميلانو بأسعار عالية.

ابتعت طلباتي من قطع غيار سيارات الفيات ١٢٥ غير المتوفرة في السوق المصرية وعدت إلى الاسكندرية وخرجت من الجمرك بما معي من بضائع بواسطة زبائني الذين يعملون في الدائرة الجمركية.. وقمت ببيع قطع الغيار بأضعاف ثمنها وذهبت إلى خان الخليلي واشتريت بعضاً من بضائعه وسافرت مرة ثانية إلى إيطاليا.. واعتدت أن أنزل ببنسيون «بياتريتشي» في روما ثم أتجه إلى ميلانو لعدة أيام.. أنجز خلالها مهمتي وأعود ثانية إلى روما ونابولي ثم إلى الاسكندرية.

اعتدت السفر كثيراً وبدأت الأموال تتدفق بين أصابعي من جديد.. واتسعت علاقاتي بإيطاليين جدد بالإضافة للأصدقاء القدامى الذين يكنون لي كل الود.

وفي ذات مرة وبينما كنت في خان الخليلي أنتقي بعض المعروضات التي أوصاني صديق إيطالي بشرائها.. سألتني فتاة تبيع في محل صغير عما أريده.. وساعدتني في شراء بضائع جيدة بسعر رخيص وتكررت مرات الذهاب للشراء بواسطتها ولما عرفت أنني

أسافر إلى إيطاليا بصفة مستمرة عرضت علي أن تسافر معي ذات مرة.. لتشتري سيارة فيات مستعملة لتشغيلها تاكسياً في القاهرة. واطمأنت «زينب» وهذا هو اسمها - عندما أخبرتها أنني أعمل ميكانيكياً وأقوم بالإتجار في قطع الغيار. وتركتها لتجمع المبلغ المطلوب ثم أرسل لها من إيطاليا لأنتظرها هناك.

أراد أصدقائي الإيطاليين أن أظل بينهم وأمارس عملاً ثابتاً أحصل بمقتضاه على إقامة في إيطاليا. وقد كان.. إذ سرعان ما وجدوا لي عملاً في شركة «راواتيكس».. وبعدما حصلت على تصريح عمل وإقامة.. لم تتوقف رحلاتي إلى الاسكندرية.. فالمكسب كان يشجع على السفر بصفة مستمرة لكي أعرف احتياجات سوق قطع غيار السيارات في مصر.. والذي كان يمتصها بسرعة فائقة.

وفي إحدى هذه السفريات وبينما كنت في مطار روما تقابلت بالصدفة مع صديق إيطالي قديم - يهودي - كانت بيننا «عشرة» طويلة واسمه «ليون لابي» فتبادلنا العناوين، وبعد عدة أيام جاءتني مكالمة تليفونية منه وتواعدنا للقاء في مطعم مشهور في ميلانو.

أشفق «لابي» كثيراً على حالي بعدما شرحت له ظروفي وتعثراتي المالية وزواجي من امرأتين

وسألته أن يتدبر صفقة تجارية كبيرة أجني من ورائها أموالاً طائلة.. فضحك «لابي» وقبل أن يقوم لينصرف ضربني على ظهر يدي وقال لي:

«لا تقلق ماريو.. غداً سأجد لك حلاً، لا تقلق أبداً».

القتيـــــل المصيدة

في اليوم التالي وفي الثامنة مساء

وقفت مرتبكاً للحظات أمام الباب المغلق.. ثم نزلت عدة درجات من السلم وأخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة.. وعندئذ سمعت وقع خطوات نسائية بمدخل السلم فانتظرت متردداً.. وعندما رأيت الفتاة القادمة كدت أسقط على الأرض.

كانت هي بنفسها الفتاة التي واقعتها في شقة «لابي» لكن ابتسامتها حين رأتني مسحت عني مظاهر القلق وهي تقول:

بونجورنو

فرددت تحيتها بينما كانت تسحبني لأصعد درجات السلم ولا زالت ابتسامتها تغطي وجهها وقالت في دلال الأنثى المحبب:

أنا لم أخبر سنيور لابي بما حدث منك..

قلت في ثقة الرجل:

لماذا؟ ألم تهدديني بالانتحار من النافذة؟

بهمس كأنه النسيم يشدو:

أيها الفرعوني الشرس أذهلتني جرأتك ولم تترك لي عقلاً لأفكر.. حتى أنني كنت أحلم بعدها بـ «أونالترا فولتا»، لكنك هربت!!

قلت لها:

ياليتني فهمت ذلك.

وانفتح الباب وهي تقول:

هل ترفض دعوتي على فنجان من القهوة الايطالية؟

ووجدت نفسي في صالة القنصلية الاسرائيلية والفتاة لا زالت تسحبني وتفتح باب حجرة داخلية لأجد «لابي» فجأة أمامي. قام ليستقبلني بعاصفة من الهتاف:

ميو أميتشو.. ماريو.. أهلاً بك في مكتبك.

وهللت الفتاة قائلة:

تصور.. تصور سنيور لابي أنه لم يسألني عن اسمي؟

قهقه لابي واهتز كرشه المترهل وهو يقول بصوت جهوري:

شكرية..شكرية بالمصري سنيور ماريو تعني: جراتسيللا.

واستمر في قهقهته العالية وصرخت الفتاة باندهاش:

أيكون لاسمي معنى بالعربية؟ اشرحه لي من فضلك سنيور ماريو.

وكانت تضحك في رقة وهي تردد:

شوك.. ريا.. شوك.. ريا. جراتسيللا شوك.. ريا.

ولم يتركني لابي أقف هكذا مندهشاً فقال للفتاة:

أسرعي بفنجانين من الـ «كافي» أيتها الكافيتيرا جراتسيللا.

واستعرض لابي في الحديث عن ذكرياته بالاسكندرية قبل أن يغادرها إلى روما في منتصف الخمسينيات.. وأفاض في مدح جمالها وشوارعها ومنتزهاتها.. ثم تهدج صوته شجناً وهو يتذكر مراتع صباه وطال حديثنا وامتد لأكثر من ساعتين بينما كانت سكرتيرته الساحرة جراتسيللا لا تكف عن المزاح معي وهي تردد:

شوك.. ريا.. سنيوريتا شوك.. ريا..

وعندما سألتني أين أقيم فذكرت لها اسم الفندق الذي أنزل به.. فقالت وكأنها لا تسكن ميلانو:

لم أسمع عن هذا الفندق من قبل.

رد لابي قائلاً:

إنه فندق قديم غير معروف في الحي التاسع «الشعبي».

قالت في تأفف:

أوه.. كيف تقيم في فندق كهذا؟

قال لابي موجهاً كلامه اليها:

خذيه إلى فندق «ريتزو» وانتظراني هناك بعد ساعتين من الان.

وربت لابي على كتفي في ود وهو يؤكد لي أنه يحتاجني لأمر هام جداً لن أندم عليه وسأربح من ورائه الكثير.

ليوباردو.. ماريو

وركبت السيارة إلى جوار جراتسيللا فانطلقت تغني أغنية «بالوردو بيلفا» أي «أيها الوحش الضاري» وفجأة توقفت عن الغناء وسألتني:

هل تكسب كثيراً من تجارتك يا ماريو؟

قلت لها:

بالطبع أكسب.. وإلا.. ما كنت أعدت الكرة بعد ذلك مرات كثيرة..

كم تكسب شهرياً على وجه التقريب؟

حوالي ستمائة دولار.

قالت في صوت مشوب بالحسرة:

وهل هذا المبلغ يكفي لأن تعيش؟ إن لابي يشفق لحالك كثيراً سنيور ماريو.

سنيور لابي صديقي منذ سنوات طويلة.. وأنا أقدر له ذلك.

إنه دائماً يحدثني عن الإسكندرية.. له هناك تراث ضخم من الذكريات..!!

وفي فندق ريتز.. صعدنا إلى الطابق الثاني حيث حجزت لي جراتسيللا جناحاً رائعاً وبينما أرتب بعض أوراقي فوجئت بها تقف أمامي في دلال وبإصبعها تشير لي قائلة:

«أونالترا فولتا» أيها المصري وهذه المرة «للإيطاليا نيتا».. «محبة الوطن الإيطالي».

وغرست أظافرها بجسدي بينما كنت أرتشف عبير أنوثتها وأتذوق طعمها الساحر

وكانت لا تكف عن الهتاف:

ليوباردو..ليوباردو.. ماريو إيجتسيانو.

وعندما جاء لابي كان من الواضح أننا كنا في معركة شعواء انتهينا منها تواً.. أخرج من جيبه مظروفاً به خمسمائة دولار وقال لي إنه سيمر علي صباح الغد..

وأوصاني أن أنام مبكراً لكي أكون نقي الذهن. وانصرفا بينما تملكتني الأفكار حيرى..، ترى ماذا يريد مني؟ وما دخلي أنا فيما يريده لابي؟؟

وفي العاشرة والنصف صباحاً جاء ومعه شخص آخر يتحدث العربية كأهلها اسمه «ابراهيم».. قال عنه لابي إنه خبير إسرائيلي يعمل في شعبة مكافحة الشيوعية في البلاد العربية.

رحب ابراهيم بماريو وقال له بلغة جادة مفعمة بالثقة:

إسرائيل لا تريد منك شيئاً قد يضرك..فنحن نحارب الشيوعية ولسنا نريدك أن تخون وطنك.. مطلقاً.. نحن لا نفكر في هذ الأمر البتة. وكل المطلوب منك.. أن تمدنا بمعلومات قد تفيدنا عن نشاط الشيوعيين في مصر وانتشار الشيوعية وخطرها على المنطقة.

وأردف ضابط المخابرات الاسرائيلي: كل ذلك لقاء ٥٠٠ دولار شهرياً لك.

وعندما أوضحت له أنني لا أفهم شيئاً عن الشيوعية أو الاشتراكية. وأنني أريد فقط أن أعيش في سلام. ذكرني لابي بأحوالي السيئة بالاسكندرية والتي أدت إلى تشتتي هكذا بعدما كنت ذا سمعة حسننة في السوق. واعتقدت أنني يجب ألا أرفض هذا العرض.. فهي فرصة عظيمة يجب استغلالها في وسط هذا الخضم المتلاطم من الفوضى التي لازمتني منذ أمد.. وتهدد استقرار حياتي.

الحصار في روما

عندما تسلمت زينب الرسالة الوافدة من إيطاليا، لم تكن تصدق أن يهتم بها هذا

العابر المجهول إلى هذا الحد. كانت قد نسيته بعدما مرت عدة أشهر منذ التقت به في خان الخليلي حيث تعمل بائعة في محل للأنتيكات والتحف. وبعدما تردد عليها عدة مرات عرضت عليه السفر معه إلى إيطاليا لتشتري سيارة لتشغيلها سيارة أجرة في القاهرة.. فوعدها بأن يساعدها ثم اختفى فجأة ولم يعد يذهب اليها.. حتى جاءتها رسالته تحمل طابع البريد الايطالي وعنوانه وتليفونه هناك.

أسرعت زينب بالخطاب إلى خالها الذي يتولى أمرها بعد وفاة والديها، ولكنه عارض الفكرة وعندما رأى منها إصراراً رضخ للأمر ووافقها..

سنوات وزينب تحلم بالسفر إلى الخارج للعمل. لقد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها، ولم ترتبط بعد بعلاقات عاطفية تعوق أحلامها. لذلك تفوقت في دراستها بكلية الآداب - جامعة عين شمس وعشقت اللغة الإنجليزية عشقاً كبيراً.. والتحقت بعد الجامعة بالعمل في خان الخليلي بالقرب من بيتها في شارع المعز لدين الله بحي الجمالية.. حيث مسجد الحسين ورائحة التاريخ تعبق المكان وتنتشر على مساحة واسعة من الحي القديم العريق.

حجزت زينب تذكرة الطائرة ذهاباً وإياباً على طائرة مصر للطيران.. وبحقيبتها كل ما لديها من مال وفرته لمثل هذه الفرصة. وفي مطار روما كان ماريو بانتظارها يملؤه الشوق لأول الضحايا الذين سيجندهم للعمل لصالح المخابرات الاسرائيلية.

وعندما رأته كانت كمن عثر على شيء ثمين. إذ صدمتها اللغة الإيطالية التي لا تعرف منها حرفاً واحداً.. وسرت كثيراً عندما وجدت ماريو يتحدث بها «كالطليان» أصحاب البلد. اصطحبها إلى فندق رخيص في روما ثم تركها لتستريح وذهب هو إلى مسكنه ليرتب خطة تجنيدها التي رسم خطوطها عدة مرات..

وفي الصباح ذهب إلى الفندق حيث كانت الفتاة تنتظره فأخذها في جولة رائعة بسيارته لمتنزهات روما وأماكنها السياحية. ثم ذهب بها في اليوم التالي إلى أماكن بيع السيارات المستعملة. معتمداً أن يرفع لها أسعار السيارات مستغلاً جهلها باللغة

الايطالية.. واعتمادها عليه أولاً وأخيراً.

وتعمد أيضاً أن تطول مدة إقامتها في روما للبحث عن فرصة شراء سيارة أفضل وأرخص وأقنعها بشراء فيات ١٢٥ دفعت فيها معظم ما تملكه من مال.. وما تبقى معها كان يكفي بالكاد مصاريف الشحن إلى الاسكندرية.

وصدمت الفتاة بعدما تبين لها أن فاتورة الفندق امتصت النصيب الأكبر من نقودها.. ولم تعد تملك مصاريف الشحن كاملة. لقد خدعها ماريو عندما ذكر لها أرقاماً تقل بكثير الحقيقة عند شحن السيارة.

صيد الغزلان

تركها ماريو لعدة ايام دون أن يتصل بها بحجة أنه كان في ميلانو. وبكت زينب في حرقة وهي تحكي له عن حالها.. وكيف انها لم تعد تملك أية أموال لتعود إلى مصر بالسيارة الواقفة أمام الفندق ومتوسلة أن يساعدها فوعدها بذلك.

ومرت ثلاثة أيام أخرى كانت زينب قد باعت حليها ولم تتبق معها سوى ساعة يدها الجوفيال التي لا تساوي شيئاً يذكر.

حاصرها ماريو جيداً وأفقدها التفكير واستعمل معها أسلوب «صيد الغزلان» بأن أغلق أمامها كل الطرق.. وترك لها فتحة ضيقة لتنفذ منها إلى شبكته لتقع فيها ولا تخرج. وظهر لها فجأة بعد غياب عدة أيام معتذراً بشدة.. واصطحبها للعشاء بأحد المطاعم الراقية.. وبعد أن جلسا عزفت الموسيقى مقطوعة إيطالية شهيرة عنوانها «مولتي جراتسي ميو أميتشو» أي «شكراً جزيلاً يا صديقي» فقالت زينب لماريو:

طلبت منك قرضاً أرده لك في مصر فلم تجبني.

اعتدل ماريو في مقعده وقال بسرعة:

نعم.. نعم.. لا مشكلة إذن.. بعد غد سأتولى شحن سيارتك إلى الاسكندرية.

ولم بعد غد؟

مشغول أنا غداً.. ولا أملك وقتاً مطلقاً «قالها ماريو وتعمد ألا ينظر لوجهها».

لقد وعدتني أن تدبر لي عملاً هنا في روما. فإن ذلك سيعفيك من إقراضي أية أموال.

ماذا تقولين؟ ألم أخبرك أنني أبحث بالفعل عن عمل مناسب لك؟

أنت تقول «قالتها زينب مليئة بالحسرة والإحساس بالندم»

فما كان من ماريو إلا أن أجاب:

عموماً.. بعد غد ستكون سيارتك على ظهر السفينة. أفهمت؟

وفي تلك اللحظة.. اقترب منها رجل وسيم تعدى الخمسين بقليل وقال بالإنجليزية بأدب جم: أتسمحان لي بأن أطلب من إدارة المعطم إغلاق جهاز التكييف الحار حتى لا نصاب جميعاً بالبرد عند الخروج؟

ردت زينب في حماس بالغ ممزوج بالعرفان:

تفضل.. وشكراً يا سيدي

أردف الرجل قائلاً:

معذرة.. هل أنت تونسية؟

أجابته بأن لكنتها تدل على ذلك وضحكت وقالت في افتخار:

أنا من الجمهورية العربية المتحدة. من القاهرة.

هتف الرجل سعيداً:

أوه..ناسر.. يا له من زعيم عبقري.

وفي حركة مسرحية سريعة مد الرجل يده إلى محفظته.. وأخرج منها صورة لعبد الناصر يشرب من «القلة» ويجلس على الأرض بجوار صلاح سالم وأردف قائلاً:

تمنيت أن أراه وأصافحه ذات يوم. فهل يتحقق لي ذلك؟

تعال إلى القاهرة يا سيدي وأعتقد أن ذلك ليس بالشيء الصعب.

هكذا قالت زينب بفخر، وهي تتكلم الانجليزية بطلاقة... وتكلم ماريو يخاطب الرجل بالإيطالية:

أنتم تكرهون ناصر في الغرب.. وفي الشرق تتوقف الحياة تماماً حينما يتكلم.. تناقض غريب.

أجاب الرجل في بشاشة:

نعم يا سيد..؟

ماريو.. ماريو إيجتسيانو «ماريو المصري».

نعم.. نعم سنيور ماريو هذه حقيقة لا ننكرها.. فمنذ أزمة القناة والغرب لا ينسى ذلك لناصر أبداً.

واعترضت زينب على حوارهما بالإيطالية فقال لها ماريو إن لغته الإنجليزية ضعيفة جداً.. وجاءت فاتورة الحساب ففوجئت زينب بالرجل الغريب يصر على دفعها.. وعندما تمسك ماريو بأريه قال الرجل:

إذن.. هلا قبلتما دعوتي على العشاء غداً؟

أجاب ماريو موافقاً بينما تحرجت زينب ثم فاجأهما ماريو بإعلان اعتذاره لارتباطه طوال الغد.. فأبدى الرجل الأنيق تفهمه ونظر إلى زينب فتراجعت الكلمات على لسانها.. عندها لم يمهلها وقتاً طويلاً لتفكر وقال موجهاً حديثاً اليها أنه سيلتقي بها في الثامنة مساء الغد في مطعم «فريسكو».. فقالت زينب في اضطراب «بعدما نظر اليها ماريو موافقاً» إنها لا تعرف الأماكن جيداً. وبدأ الرجل سيلاً من الأسئلة عن جوانب حياتها فأجابته زينب بحسن نية وأخيراً قال لها في دبلوماسية شديدة تدل على خبرة عالية في إدارة حوار:

لقاء الغد ستترتب عليه أشياء كثيرة مهمة لكلينا..!!

وبعد انتهاء السهرة صحبها بسيارته الفارهة وأنزل زينب أمام فندقها وانصرف.. وقضت هي وقتاً طويلاً تفكر فيما يقصده بعبارته الأخيرة. وماذا سيترتب عليها من أشياء مهمة؟؟

وفي مساء اليوم التالي كان في انتظارها بالفندق كما اتفقا بالأمس.. وأخذها في جولة ليلية بنوادي روما وشوارعها ثم ذهبا معاً إلى مطعم فريسكو الشهير.. حيث الأنواع الغريبة من الأسماك والمحار وكائنات بحرية مدهشة.

كان الرجل قد التمس مكاناً هادئاً في ركن بعيد وتوقعت زينب بأنه من زبائن المطعم المعروفين، للاحترام الجم الذي قوبل به. ولكنه انتشلها من حيرتها وقال لها بحرارة:

آنسة زينب.. منذ الأمس وأنا في حيرة شديدة.. وكما تعلمين فأنا رجل أعمال بريطاني معروف.. والذي لا تعرفينه أنني انفصلت عن شريك لي منذ مدة قصيرة.. وكنت أنوي توسيع أعمالي في لندن لكن أشار علي البعض باستثمار مشاريع إنمائية في جنوب أفريقيا.. وقمت بالفعل بالسفر إلى جوهانسبرج وزيارة كيب تاون وحصلت على بعض تقارير اقتصادية لتساعدني في اتخاذ قراري. حتى كان لقاء الأمس الذي سبب لي حيرة شديدة فبرغم حبي لناصر إلا أنني لم أفكر من قبل في السفر إلى القاهرة لدراسة السوق المصرية وإقامة بعض مشروعاتي بها.

وتنهد الرجل فيما يشبه إحساساً بالندم وأردف:

إنني الآن - وبإصرار وثقة - أريد اقتحام السوق العربية من خلال مصر. ومن خلالك أنت.

قالت له زينب في دهشة:

من خلالي أنا؟

نعم.. فأنت مصرية وجامعية طموحة.. تملكين اللغة العربية والإنجليزية والثقافة.. ويمكنني الاعتماد عليك في أعداد تقرير اقتصادي عن أحوال مصر الاقتصادية ومشاكل

التنمية بها ومعوقات السوق. ومن خلال هذا التقرير سأقرر ما إذا كنت أستطيع إقامة مشاريع إنهائية في مصر من عدمه. ولذلك فهذا الأمر مهم بالنسبة لي ولك.. لأنك ستكونين مديرة لفرع القاهرة وتملكين حق اتخاذ قرارات لصالح مؤسستنا.

حلم اليتيم

انفرجت أسارير زينب وهللت بشراً وسعادة لهذا الخبر المنهمر الذي أغدق عليها فجأة. كانت تجلس أمامه ولا تملك بحقيبة يدها سوى ستة وعشرين دولاراً وبضع ليرات إيطالية لا تكفي ليوم آخر في روما.. واغرورقت عيناها بدموع الفرح عندما فاجأها قائلاً:

ومنذ اليوم سيكون راتبك ثلاثمائة دولار شهرياً.

صرخت بأعماقها لا تصدق أن غيمة النحس قد انقشعت.. وأن الحياة عادت لتضحك من جديد.. لقد مرت بها سنوات من الجوع والحرمان والحاجة.. وكلما ارتقت درجة من درجات الأمل انزلقت إلى الوهم وأحلام الخيال. الآن جاءت أحلام الواقع لتزيح أمامها الأوهام.

كانت تبدو من قبل وكأنها تغرق في لجج من ماء ذي قوام.. الآن تطير في سماوات من الصفو اللذيذ. أخيراً تحقق الحلم الذي طال انتظار اليتيم له. حلم ليس بالمستحيل ولكنه كان المستحيل نفسه.

يا الله.... قالتها زينب وهي تتنهد فتغسل صدرها الصغير من تراكمات اليأس وخيوط الرجاء.

أوصلها الرجل إلى الفندق بعدما منحها ٦٠٠ دولار مرتب شهرين ودفع عنها حساب الفندق. وفوجئت زينب **بماريو** يسرع بشحن سيارتها ودفع مصاريفها ويودعها بالمطار.

وفي مقعدها بالطائرة أغمضت عينيها وجلست تفكر في أمر ماريو. لقد أخبرته بأمر الرجل فأظهر موافقته. وبرغم كونه تاجراً لم يأخذ منها مصاريف الشحن.. بل ألح عليها

كثيراً لكي تأخذ منه مائة دولار في المطار. وسلمها حقيبة هدايا بها علبة ماكياج كاملة وزجاجتا بارفان وحزام جلدي أنيق.

تشككت زينب في هذه الأمور وأخذت من جديد تستعرض شريط ما مر بها في روما. وتذكرت الدورة الارشادية التي حضرتها في أحد مدرجات جامعة القاهرة قبل سفرها بأيام. كان المحاضر يشرح أساليب الموساد في اصطياد المصريين في الخارج. ولأن ماريو مصري مثلها ومجريات الأمور كلها كانت شبه طبيعية.. فقد طردت وساوسها التي تضخمت إلى حين.. وقررت أمراً في نفسها.

. وفي اليوم التالي.. كانت تستقل سيارة صحبتها إلى مقر جهاز المخابرات المصرية.. قالت كل شيء بدقة وسردت تفاصيل رحلتها إلى ايطاليا وكيف خدعها ماريو لتنفق كل ما لديها من نقود. وحكت ظروفها النفسية السيئة التي مرت بها وكيفية تقرب رجل الأعمال البريطاني منها في تلك الظروف. وكيف شحن ماريو سيارتها إلى الاسكندرية على نفقاته.. وهو التاجر الذي يسعى للكسب..؟ بل إنه عرض عليها مائة دولار أخرى. ولماذا لم يعطها رجل الأعمال عنوانه في بريطانيا لتراسله وتبعث إليه بالتقارير التي طلبها؟ لقد أخبرها أن ماريو سيسافر إلى القاهرة عما قريب وعليها أن تسلمه التقرير الاقتصادي الوافر الذي ستعده عن مصر.

وتذكرت زينب أيضاً كيف أن ماريو طلب منها في المطار أن تهتم جيداً بالعمل الذي أوكل اليها ولا تهمله. وعندما سألته هل لديك عنوان مكتب رجل الأعمال؟!! أجاب بنعم في حين أنه من المنطقي أن يكون معها عنوانه. لقد سلمها ٦٠٠ دولار وهي بلا شك لقاء قبولها التجسس على وطنها.

صراع العقول

وفوجئت زينب بما لم تتوقعه على الإطلاق..صور عديدة لها مع ماريو..قال ضابط المخابرات المصري أن المخابرات العربية على علم بأمره.. وتراقب تحركاته وتنتظر دليل إدانته وقال لها أيضاً:

إن إسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨ وهي تسعى بشتى السبل لمعرفة كل ما يجري في البلاد العربية من نمو اقتصادي وتسلح وما لديها من قوات وعتاد.. ولذلك لجأت لشراء ضعاف النفوس والضمائر وجعلتهم يعملون لحسابها.. وينظمون شبكات التجسس المتعددة في العواصم العربية.. حتى إذا كشفت واحدة تقوم الأخرى مكانها وتتابع نشاط جواسيسها. وتنفق إسرائيل الملايين على هذه الشبكات للصرف عليها.

وأن السبب الرئيسي لسقوط بعض الأفراد في مصيدة المخابرات الإسرائيلية هو ضعف الحالة المادية. وبالإضافة إلى الأموال الطائلة التي تنفقها الموساد على عملائها.. فإنها تغرقهم أيضاً في بحور الرغبة وتشبع فيهم نزواتهم.. وبذلك تتم له السيطرة عليهم.

لذا.. فقد أعلنت المخابرات المصرية في يناير عام ١٩٦٨ بأنها ستساعد كل من تورط مع العدو.. ووقع في فخ الجاسوسية بالإغراء أو التهديد. وأنها على استعداد للتغاضي عن كل ما أقدم عليه أي مواطن عربي.. إذا ما تقدم بالإبلاغ عن تورطه مع الموساد مهما كان منغمساً في التجسس.. وذلك لتفويت الفرصة على المخابرات الإسرائيلية.

ووعد الزعيم جمال عبد الناصر صراحة بحماية كل من تورط بالتجسس لأي سبب. وقد أسفرت هذه الخطة عن تقدم سبعة مصريين إلى جهاز المخابرات المصرية يعترفون بتورطهم ويشرحون ظروف سقوطهم.

وأضاف الضابط:

لقد تكلمنا مع ماريو عدة مرات من قبل.. وأفهمناه بطريقة غير مباشرة بأننا على استعداد لمساعدة المتورطين دون أن يعاقبوا. لكن يبدو أنه استلذ أموال الموساد. وسيسقط على يديك يا زينب لأننا سنحصل على دليل إدانته من خلالك.

ووضعت المخابرات المصرية خطة محكمة لاصطياد ماريو..

وفي أول اتصال هاتفي من روما بعد أيام من وصولها.. أخبرته زينب بأنها مشغولة «بترجمة الكتاب» - وهو مصطلح سبق لهما أن اتفقا عليه - وعندما سألها عن المدة التي

تكفي لإنجاز «الترجمة» لأنه ينوي المجيء لمصر بعد يومين طلبت منه - حسب الخطة - أن يتأخر عدة أيام حتى تنجز العمل.

اطمأن ماريو وصديقه لردود زينب.. وقنعا بأنها منهمكة في أعداد التقرير.. فلو أن هناك شيء ما يرتب في الخفاء لما ترددت في إيهامه بأنها أنجزت ما طلب منها..

وفي مكالمة أخرى بعدها بثمانية أيام.. زفت إليه النبأ الذي ينتظره.. وينتظره أيضاً رجال الموساد في روما.. وعلى ذلك أكد لها بأنه سيصل إلى القاهرة عما قريب.

سقوط الخائن

وبعد اللقاء المسجل بالصوت والصورة. اتجه الخائن إلى شارع نوال بالدقي حيث شقة زوجته تغريد. فمكث معها يوماً واحداً وحمل كاميرته الخاصة التي تسلمها من الموساد وركب إلى الاسكندرية بالطريق الزراعي.. يصور المنشآت الجديدة التي تقوم على جانبي الطريق.. ويراقب أية تحركات لمركبات عسكرية أو شاحنات تحمل المدرعات.. وأمضى مع زوجته وجيدة عدة ساعات ثم عاد إلى القاهرة مرة ثانية بالطريق الصحراوي.. وكرر ماريو هذا السيناريو لمدة أسبوع بشكل متصل..

كان إخلاصه للموساد قوياً كعقيدة الإنسان أو إيمانه بمبدأ ما.. فآلاف الدولارات التي حصل عليها من الموساد بدلت دماءه وخلايا مضريته وأعمته عن عروبته.. وجعلت منه كائناً فاقد الهوية والشعور.. بل كان لأموال إسرائيل الحرام فعل السحر في قلبه وزعزعة ثوابت إسلامه. فلقد نسي أن اسمه محمد ابراهيم فهمي كامل.. مسلم.. من مصر.. وأن ماريو ليس اسمه الحقيقي الذي ينادى به. وفي إيطاليا كثيراً ما مر على مساجد روما - دون قصد - فكان يتعجب ويتساءل: ماذا يعني الدين والأنبياء والرسل؟ إن الدين هو «البنكنوت»..

وعندما اتصلت به معشوقته جراتسيللا - عميلة الموساد - تستقصي أخباره وأخبار ضحيته زينب أجابها بأن كل شيء على ما يرام. وحدد لها ميعاد سفره إلى إيطاليا. وبعدما أنهت زينب إجراءات الإفراج الجمركي عن سيارتها.. استعدت «هكذا ادعت له» للسفر

معه.. فأخبرها بموعد الطائرة وأنه سيمر عليها ليصحبها إلى المطار.

وقبل السفر بعدة ساعات كان ماريو قد أعد أدواته.. وخبأ الأفلام التي صورها بجيوب سرية داخل حقائبه ونزع البطانة الداخلية لها وأخفى التقارير السرية التي أعدها بنفسه ثم أعاد إلصاقها مرة ثانية بإحكام فبدت كما كانت من قبل. ومن بين تلك التقارير كان تقرير زينب الذي كان لدى المخابرات المصرية صورة عنه.

وبينما كان ماريو يغادر منزله بالدقي في طريقه إلى زينب ثم إلى المطار.. فوجئ بلفيف من الأشخاص يستوقفونه.. وأقتيد إلى مبنى المخابرات وأمام المحقق أنكر خيانته لكن الأفلام والتقارير التي ضبطت كانت خير دليل على سقوطه في وكر الجاسوسية.. فاعترف مذهولاً بعمالته للموساد.. وأمام المحكمة العسكرية وجهت إليه الجرائم الآتية:

الحصول على أسرار عسكرية بصورة غير مشروعة وإفشاؤها إلى المخابرات الإسرائيلية.

الحصول على مبلغ «٧ آلاف دولار» مقابل إفشاء الأسرار لدولة معادية «إسرائيل».

التخابر مع العدو لمعاونته في الإضرار بمصر في العمليات الحربية.

تحريض مواطنة مصرية على ارتكابها التخابر.. والحصول على أسرار هامة بقصد إفشائها للعدو.

وبرئاسة العميد أسعد محمود إسماعيل وعضوية المقدم فاروق خليفة والمقدم أحمد جمال غلاب بحضور ممثل النيابة العسكرية والمقدم عز الدين رياض صدر الحكم في مايو ١٩٧٠ بإعدام ماريو شنقاً بعد أن كرر الخائن اعترافه بالتجسس على وطنه.. وبيه لأسراره العسكرية مقابل سبعة آلاف دولار. وصدق رئيس الجمهورية على الحكم لعدم وجود ما يستدعي الرحمة بالجاسوس.

لم تنس المخابرات المصرية الدور الكبير الذي لعبته زينب للإيقاع بالخائن ماريو واصطياده إلى حيث غرفة الاعدام ومشنقة عشماوي في أحد سجون القاهرة.

وكانت زينب بالفعل – أول مصرية – تصطاد جاسوساً محترفاً في روما.. لإعدامه في القاهرة.

القبض على جاسوس مصرى كندى لصالح إسرائيل
والد المتهم لـ«المصري اليوم»: نفسي أشنقه بيدي

كشف جهاز الأمن القومي، شبكة تجسس وتخابر لصالح إسرائيل، تضم طالباً مصرياً و٣ ضباط في «الموساد» الإسرائيلي. قرر المستشار عبدالمجيد محمود النائب العام إحالة المتهم محمد عصام غنيمي حسن العطار «محبوس» إلي محكمة جنايات أمن الدولة طوارئ، وضبط وإحضار الضباط الإسرائيليين «هاربين» بتهم التجسس والرشوة والإضرار بالمصالح القومية للبلاد.

أوضحت تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا تحت إشراف المستشار هشام بدوي المحامي العام الأول، أن الأجهزة الأمنية رصدت المتهم منذ خمس سنوات في تركيا وكندا، وعلاقاته مع الضباط الإسرائيليين الذين استخدموه في تجنيد المواطنين المصريين والعرب في الخارج للعمل مع المخابرات الإسرائيلية.

وتوصلت «المصري اليوم» إلي والد المتهم، الذي أكد في اتصال هاتفي أنه وأسرته يتبرأون تماماً من «محمد»، وأنه شخصياً لا يعتبره ابنه، مشيراً إلي أنه انفصل عن والدته المهندسة الزراعية قبل حوالي ٢٩ عاماً، وعندما حاول احتضان «محمد» وعمره خمس سنوات، فوجئ بأنه تعرض للإفساد الكامل، فأعاده إلي والدته.

وقال عصام غنيمي - طيار بالمعاش، يقيم حالياً في مدينة طنطا - إنه التقي ابنه محمد لآخر مرة منذ خمس سنوات، عندما حضر للعزاء في وفاة جده، وعرف منه آنذاك أنه يعمل مهندس بترول في إحدي الشركات الأمريكية، وأضاف الأب أن صلة ابنه انقطعت تماماً بالأسرة منذ هذا التاريخ.

وأوضح الأب عصام غنيمي أنه وكل أفراد أسرته يتمتعون بسمعة طيبة، وأنه طيلة سنوات خدمته في أرفع جهاز أمني، كان - ولايزال - مثالاً للوطنية، وأكد أنه شخصياً

علي استعداد لأن يشنق ابنه بيديه إذا تأكد أنه عمل جاسوساً لصالح إسرائيل أو لغيرها من الدول الأجنبية.

وأضاف الأب أن الأجهزة الأمنية لابد أنها تحرت طويلاً عن كل أفراد أسرته، ولم تحصل علي شيء يدين أي فرد بها، بدليل عدم اتصال أي جهاز أمني بأحد من أسرة «محمد» خلال تحرياتهم عنه، أو بعد وقوعه في قبضة الجهات الأمنية.

في السياق ذاته، قال حاتم غنيمي - عم المتهم محمد عصام - لـ«المصري اليوم»، إن آخر رسالة وصلته علي الإيميل الخاص به من محمد، تعود إلي ثلاث سنوات تقريباً، وأنه تلقي منه علي «إيميله» الشخصي عدة صور تشير إلي أن «محمد» يعيش في شيكاغو، وأشار العم إلي أن صلة محمد بكل أفراد أسرته شبه منقطعة بسبب خلافاته الدائمة مع والده الذي اعتبره منذ سنوات خارجاً عن طوعه، وأسقطه من حسابه تماماً.

يذكر أن محمد عصام غنيمي، المتهم بالتجسس لصالح إسرائيل، هو حفيد الشيخ حسن العطار رائد النهضة المصرية الحديثة، وأستاذ رفاعة رافع الطهطاوي وغيره من مشايخ الأزهر الذين تُنسب إليهم كل أفكار التنوير والوطنية.

في غضون ذلك، كشف مصدر دبلوماسي رفيع المستوي لـ«المصري اليوم» أن هذا الجاسوس من فئة «الخطرين»، وأن إسرائيل حاولت في الفترة القليلة الماضية مبادلته بالسجناء المصريين الموجودين في السجون الإسرائيلية، لكن مصر رفضت، خاصة أن المصريين في سجون إسرائيل محكوم عليهم في قضايا جنائية تنتهي بنهاية فترة العقوبة.

وفي الوقت الذي أجرت فيه وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني، اتصالاً بأحمد أبوالغيط وزير الخارجية، أكد المصدر أن الاتصال تناول جهود السلام، ولم يتطرق إلي قضية الجاسوس.

وكشفت تحقيقات النيابة أن محمد غنيمي طالب في الفرقة الثالثة بكلية العلوم في جامعة الأزهر، وترك دراسته الجامعية وغادر إلي تركيا، محاولاً الحصول علي لجوء إنساني إلي إحدي الدول الأوروبية، ولما فشل توجه إلي السفارة الإسرائيلية في تركيا، وهناك تلقفه

ضباط إسرائيليون وسهلوا له الإقامة في تركيا، وبدأوا في تشغيله في جمع المعلومات عن المواطنين المصريين والعرب، ودراسة مدي استعدادهم للتعامل مع المخابرات الإسرائيلية.

وغادر غنيمي إلي كندا ليستقر هناك لبعض الوقت، مواصلاً نشاطه في تجنيد العرب والمصريين عبر تقديم معلومات كاملة عن تعاملاتهم وأرقام هواتفهم، وحساباتهم في البنوك، وعلاقاتهم الأسرية، لتسهيل عملية تجنيدهم.

وأوضحت التحقيقات أن المتهم حصل علي مبالغ مالية مقابل ذلك بلغت ٥٦ ألف دولار، وأثناء زيارة له إلي القاهرة أول يناير الماضي، ألقت أجهزة الأمن القبض عليه في مطار القاهرة، وبتفتيشه عثر معه علي خطة تحرك تقضي بالمكوث في مصر شهراً واحداً، ثم التوجه بعدها إلي الأردن، ومنها إلي إسرائيل لتلقي تدريبات علي أساليب التخابر.

وأكدت التحقيقات أن المتهم اعترف بجميع الوقائع المنسوبة إليه.

***

أبطال وخونة... أسرار العملية ٧٠٠

أسرار الجاسوسية في عالمنا العربي تضم حكايات غريبة وقصصاً واقعية في ذاكرة الأمة، لأنها جزء من التراث السياسي عندنا، وتدل على حجم التغلغل الصهيوني فوق أرضنا وبين أولادنا، وعلى قوة النضال ضد هؤلاء الذين يحاولون دائما التسلل إلينا عبر المنافذ السرية داخل الكيان الإنساني. والكاتب فريد الفالوجي في مؤلفه الجديد «العملية ٧٠٠» اغتيال الطيارين العراقيين الثلاثة وهروب أول طائرة حربية عربية إلى «إسرائيل» الصادر عن مكتبة مدبولي ضمن سلسلة «من ملفات الجاسوسية» يقدم لنا وقائع عن الأموال والاغتيالات والنساء والقوة الطامعة في أرضنا وحياتنا بأسلوب يتميز بمعالجة قضايا الجاسوسية بدراسة سيكولوجية للجواسيس والخونة عبر أسلوب قصصي شيق وتحليل درامي للأحداث مع صدق في التوثيق وطرح الرأي المستنير والفكرة العلمية الجديرة بالدراسة.

الكتاب يعرض أولا لفترة الستينات من القرن العشرين، حيث كان الصراع على أشده بين القوتين العظميين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، فلم تكن هناك فرصة ولو ضئيلة لالتقاط الأنفاس داخل أجهزة مخابرات البلدين، كما كان هناك سباق محموم في تكنولوجيا التسلح لأجل السيطرة والتفوق والتميز والهيمنة، فكان من المنطقي، تبعا للعبة المصالح، ان يتحول التنافس بينهما إلى حرب خفية يديرها رجال اذكياء مهرة، لاستكشاف نقاط الضعف والقوة وصنع المستحيل للوصول إلى أسرار الخصم.

ففي تلك المرحلة تم اعتماد ميزانية ضخمة وصلت إلى ستة مليارات دولار لجهاز المخابرات المركزية الأمريكية، سمحت لهذا الجهاز بالتوصل للتكنولوجيا المتطورة العالية واستيعاب ٢٥٠ ألف موظف وعميل انتشروا في سائر المعمورة لتحسين فاعلية الجهاز وقوة تأثيره بحيث استطاع اسقاط الحكومات في جواتيمالا والكونغو وقبرص واندونيسيا

وايران، والتصفية الجسدية لرؤساء الدول المعارضة لهذا التوسع حيث تم اعدام رئيس الدومينيكان رافائيل تروجيللو أمام قصر الرئاسة بوساطة متفجرات حوتها الحقائب الدبلوماسية المغلقة، واغتيال الرئيس الفيتنامي نجودين دييم بذات الوسيلة، ثم اغتيال الرئيس الأمريكي نفسه جون كينيدي بتخطيط مازالت أسراره شبه مكتومة حتى الآن، واغتيال المناضل ارنستوتشي جيفارا ونجاة الرئيس الكوبي فيدل كاسترو من عشرات محاولات الاغتيال، وتصفية عالمة الذرة المصرية سميرة موسى عام،١٩٥٠ والكاتب المكسيكي المشهور إلما بويل بويينديا، واغتيال الطيار العراقي النقيب شاكر محمود يوسف وزميله حامد ضاحي بالتعاون مع الموساد «الاسرائيلي».

أهمية الميج ٢١

تتميز الميج ٢١ بسرعة ٢٠٦٢ كلم/ ساعة في دائرة مغلقة طولها ٥٠٠ كلم، وبسرعة ١٢٩٨ كلم/ ساعة في دائرة مغلقة طولها ١٠٠ كلم وبلغ أقصى سرعة مستوية للطائرة ٢٣٧٥ كلم/ ساعة في حين كانت السرعة بمقدار النصف عند السكاي هوك في ذلك الوقت و١،٤ للفانتوم و١،٥ للميراج وكانت قياسات الطائرة محيرة إذ بلغ عرض أجنحتها ٧،٦٠م وطول جسمها ١٦،٧٥ وهذا ما لم يتوفر للطائرات الأمريكية الفرنسية وتحولت إلى لغز من الألغاز والأهم من ذلك كله أن كل هذه الميزات كانت موضوعة بين أيدي الطيارين العرب وتفتقد إليها «إسرائيل» فكانت الرغبة عارمة لكشف أسرارها عن قرب، فصارت هدفا للسعي الأمريكي «الاسرائيلي» لإختطاف إحداها للوقوف على خفايا قوتها.

وعندما تكتشف في نهاية القصة كيف أن المخابرات «الاسرائيلية» الموساد قامت بنقل عائلة الطيار الخائن بكاملها من العراق إلى إيران ومن هناك إلى «إسرائيل» لطمأنته للقيام بهروبه ندرك مدى أهمية هذه العملة وقوتها وحجم الميزانية التي وضعت لتحقيقها.

وفي ذلك الوقت، في نهاية العام ١٩٦١ ألقت المخابرات المصرية القبض على الجاسوس المصري جان ليون توماس وهو ارمني الأصل وأعترف خلال التحقيق أن

«الاسرائيليين» أغروه بمبلغ ضخم إذا استطاع تجنيد طيار مصري يقبل الهروب بطائرة ميج ٢١ إلى «إسرائيل» مقابل مليون دولار، فبات الأمر بعد انكشافه وإعدامه أكثر صعوبة.

ويذكر الكاتب أن مخابرات البلدين أمريكا و«إسرائيل» تدارستا مشاريع عدة لاختطاف الطائرة ومنها:

اعتراض طائرة مصرية أو سورية وإجبارها على الهبوط في «إسرائيل» ولكن الفكرة رفضت لأن «إسرائيل» لا تمتلك طائرة تماثلها قوة، ولأن قيام تشكيل «إسرائيلي» بالاعتراض في ظل مهارة الطيارين العرب سيؤدي إلى خسارة الطائرات «الاسرائيلية» وطياريها وفي ذلك رفع للمعنويات العربية.

أو زرع عميل طيار في أحد اسلحة الجو العربية ولكن رفض الاقتراح لأنه يستلزم فترة طويلة ليست في مصلحتهم ونسبة نجاحه لا تتعدى الواحد في المائة، ومن هنا اعتمد الخيار الأخير وهو تجنيد طيار عربي وإغراؤه بمبلغ كبير للهروب بطائرته إلى «إسرائيل» وكان الأمر يحتمل النجاح بنسبة ٢٥٪ ولذا بدأ التنسيق المخابراتي لمعرفة أي معلومة ولو كانت تافهة عن طياري مصر وسوريا والعراق من خلال العملاء في العواصم العربية ومن خلال ما تنشره الصحافة العربية في صفحات النعي والاجتماعيات.

الواقع «الإسرائيلي»

ويعرض المؤلف بعد ذلك لواقع المخابرات «الاسرائيلية» في تلك المرحلة والصراعات التي كانت قائمة بين اجهزتها، وخاصة بين أيسير هاريل رئيس الموساد المقرب جدا من رئيس الوزراء والمهيمن على جهاز المخابرات العسكرية «أمان» وهو الجهاز الذي تولى رئاسته اربعة جنرالات كان أولهم أيسير بيري الذي استبعد لانتهاكه الحقوق المدنية، ثم بنجامين جيبلي الذي أبعد اثر فضيحة لافون في مصر وياهو شافات هاركابي الذي أبعد لسوء ادارته في عملية تعبئة لاحتياطي الجيش وحاييم هيرتزوج الذي انسحب بعدما فشل في إبعاد سيطرة هاريل عن جهازه وباستقالته عام ١٩٦٢ واختار بن

جوريون مائير عاميت الجنرال في جيش الدفاع وذا النفوذ داخل الجيش والذي آثار اختياره تخوف هاريل من ان يكون بن جوريون اختاره لتهيئته خلفا له وهو ما حصل عام،١٩٦٣ عندما حصلت فضيحة القبض على عميلين للموساد في سويسرا هددا ابنة عالم الماني يعمل في القاهرة فأبعد هاريل وتولى عاميت رئاسة الموساد وكان حينها منشغلا بفهرسة قوائم الطيارين العرب وتحليل البيانات والمعلومات التي يتوصل اليها فاعتمد رئيساً للموساد مسؤولا عن التجسس في الخارج اما مكافحة التجسس في الداخل فاوكلت إلى جهاز «الشين بيت» فكان عاميت أول رئيس للمخابرات العسكرية يتولى رئاسة جهاز الموساد الأمر الذي أوقعه في مأزق الاستقالات الجماعية لاحضار هاريل من جهازه فدفع بدماء جديدة إلى جهازه وطار إلى اوروبا للتنسيق مع رجاله هناك حيث فوجىء باستقالة بن جوريون في غيابه وتولي ليفي اشكول مكانه إلا أن المفاجأة حملت إليه ميزانية اكبر للموساد لاستحداث المزيد من معداته وأدواته ومعامل البحوث الفنية وضم المزيد من الخبراء إلى الجهاز ونقل المقر إلى موقع أوسع وبعد مرور أقل من سنة على تولي عاميت أمر الموساد هرب الطيار المصري عباس حلمي إلى «إسرائيل» بطائرة تدريب سوفييتية قديمة من طراز «ياك ١٥» ذات مقعدين، وعلى الرغم من خيبة أمل «الاسرائيليين» من نوع الطائرة إلا ان العملية التي قام بها طيار مشوش العقل مصاب بانفصام في الشخصية استغلت للدعاية لجهاز المخابرات «الاسرائيلي» لتشجيع سواه على الهروب، في حين ثبت ان الطيار كان قد احب فتاة إلى درجة الجنون ثم فوجىء بها عند عودته من احدى اجازاته عارية في فراش صديقه الذي لم يكن يعرف انها خطيبته فرجع إلى قاعدته في حالة اكتئاب وعندما اقلع بالطائرة لتجريبها بعد صيانة أجريت لها هرب إلى «إسرائيل».

وفجأة.. توقعوا النجاح

في العام ١٩٦٥ تلقت المخابرات «الاسرائيلية» برقية من جون ميكون مدير جهاز المخابرات المركزية الأمريكية بوصول طيارين عرب من قادة الميج ٢١ في الولايات المتحدة الأمريكية في دورة تدريبية، وأن المطلوب التنسيق من أجل تجنيد أحدهم.

وفي تلك المرحلة وأثناء ابتهاج المخابرات «الاسرائيلية» بتباشير النجاح ألقي القبض على الجاسوس «الاسرائيلي» ايلي كوهين من قبل المخابرات السورية واعتقال الجاسوسين الأمريكيين فرحان الأتاسي وعبدالمعين حاكمي أيضا في سوريا وسقوط الجاسوس وولفجانج لوتز في القاهرة ومعه زوجته فكانت الضربة قاصمة ولذا عزم عاميت على اللعب بكافة السبل للوصول إلى الطيارين العرب وكانوا من العراقيين فتم اختيار ثلاثة منهم أولهما النقيب الطيار شاكر محمود يوسف وكان وفق معلوماتهم مغامرا ينتهز اجازاته لتصيد الفتيات، وثانيهم الملازم أول الطيار حامد ضاحي وكان متدينا خجولا لا يصاحب الفتيات ولا يقيم علاقات لكنه يرتاد البارات ونوادي الليل وإن كان لا يشرب الخمر، وثالثهم النقيب الطيار منير روفا وهو الطيار الوحيد المسيحي بينهم وكان المطلوب رقم واحد بسبب سهولة استغلال لعبة العقائد والاقليات في عالم الجاسوسية ولكن لوحظت ملازمته للقاعدة العسكرية حتى في اجازاته.

نهاية الحلم

في هذه المرحلة وصلت التقارير من الجاسوس «الاسرائيلي» في العراق عيزرا ناجي زلخا وزوجته روان تفيد بأن روان التقت الطيار شاكر يوسف خلال إحدى الحفلات وأنه تجاهلها رغم محاولتها الايقاع به ثم عاود الالتقاء بها وانقطع عنها فجأة بسبب سفره إلى أمريكا.

وهنا استدعيت العميلة الأمريكية اليهودية كروثر هلكر من فيينا وأرسلت إلى تكساس للإشراف على نادي الضباط بالقاعدة الجوية حيث التقت بشاكر يوسف وأوقعته في حبائلها وقادته إلى شقتها حيث اخضع لمراقبات مستمرة ولتصوير تفاصيل العلاقة بينهما في حين دفعوا بفتاة أخرى إلى الملازم أول حامد ضاحي الذي كان في السادسة والعشرين من العمر وقد أتم خطوبته على إبنة عمه قبل سفره إلى أمريكا وبدأت أسرته بإعداد العدة لتزويجه بعد عودته، فأبلغته الفتاة بأن والدها لبناني طلق أمها واختفت اخباره فتعاطف معها وأبلغها أن لديه صديقا في بيروت سيحاول من خلاله مساعدتها بالوصول إلى والدها، وهكذا اجتذبته إلى بيتها ومن ثم إلى فراشها ولما أفاق من نوبة

الغريزة ندم وبكى وأقسم ألا يعاود الخطأ ثانية مهما كانت الظروف.

وبعدما أفاق حامد من سكرته، ورفض اغراءات الفتاة التي سموها زينب بالزواج منه مقابل أن تقدم له كل ما تملك من مال وإملاك عرضت عليه البقاء والعمل في أمريكا مع المخابرات مقابل مبلغ كبير فأنكشفت لعبتها وغادر بيتها من دون أن يجيبها في حين رفض شاكر يوسف أيضا الزواج من العميلة الأمريكيةُ وتركها بعدما استمرت علاقته معها طيلة شهرين فجن جنود الموساد وقرروا القيام بخطوة أخرى أكثر تهديدا.

اغتيال حامد ضاحي

لكن حامد ضاحي سدد ضربة أخرى إلى الموساد إذ قصد قائده وأبلغه بما حدث معه وبأن الفتاة من أصل لبناني وتعرض عليه العمل مع المخابرات المركزية الأمريكية، فقرر نقله إلى العراق بعد ثلاثة أيام، إلا أن الموساد كان أسرع منه فاغتاله أثناء زيارته لأحد الأندية الليلية قبل سفره إلى العراق وأظهرت التحقيقات المدروسة من الأمريكيين بأن الحادث جاء قضاء وقدرا وغير متعمد إلا أن الملحق العسكري العراقي شك في الحادث وقرر بناء على تقرير القائد المباشر لحامد ضاحي إنهاء الدورة قبل انقضاء مدتها بشهر واحد وعودة الطيارين إلى العراق.

وهنا قررت المخابرات «الاسرائيلية» إرسال كروثر هلكر خلفهم إلى العراق للضغط عليه وقتله إن رفض، وهكذا وجد شاكر يوسف نفسه أمام كروثر هلكر في العراق التي جرته إلى إحدى شقق عيزرا ناجي زلخا حيث حاولت تهديده بالأشرطة التي تظهره معها في الفراش وبالتسجيلات التي يشتم فيها قيادته خلال حواره معها فسحب حزام بنطاله وبدأ بضربها بعنف وفي غمرة ثورته دخل عليه الجاسوس «الاسرائيلي» وقتله وترك في الشقة بعدما تركوا أجهزة التبريد والتكييف عاملة حتى لا تظهر رائحة الجثة بسرعة وغادرت هلكر إلى لندن حيث قامت المخابرات بالتخلص منها لكيلا تنكشف العملية، خاصة إن تلك المرحلة شهدت انكشاف الدور «الاسرائيلي» في الاشتراك بقتل ابن بركة في فرنسا.

اغتيال محمد رغلوب

وكعادتها، دفعت الموساد باحدى عميلاتها إلى الفندق لاغراء محمد رغلوب، حيث تعاونت مع السافاك الايراني على سرقة نقوده، فتلاعبت الفتاة به وعرفته على أحد العملاء بأنه رجل يقوم بمضاربات في البورصة وفي عملية تمثيلية قدم له العميل بعض المال للمضاربة واوهمه بالحصول على الربح فغرق في لعبة المال والجنس حتى أفلس من جديد، وهنا قاده العميل إلى «مصيدة العسل» وهي الغرف المجهزة بآلات التصوير والتسجيل وأوقع به مع احدى عاهراته فصور وهو يشتم قيادته وسلاح الطيران بكامله ثم اقتحم عملاء الموساد غرفته وهددوه بالأشرطة والتسجيلات ثم عرضوا عليه مليون دولار مقابل الهروب بالميج ٢١ إلى «إسرائيل» فوافق مشترطا وضع المبلغ في بنك سويسري باسمه أولا وبعد سلسلة من اللقاءات والمناقشات عرضوا عليه السفر لفرنسا للقاء قائدهم فغادر إلى باريس وهو يمني نفسه بمليون دولار يسلمها للمخابرات العراقية ترفع من قيمته وموقعه ويصبح بطلا في بلاده، لكنه في باريس وقع في الخطأ إذ هددهم بإبلاغ المخابرات العراقية ما لم يدفعوا له المليون دولار للهرب بالطائرة وعندما هددوه بالأشرطة والتسجيلات فأبدى عدم اهتمامه بها فأقنعوه بالموافقة على أن يغادر إلى ألمانيا أولا وفي القطار تم رميه أثناء انطلاق القطار بسرعته القصوى وعثرت الشرطة الألمانية على جثته، وقال التقرير إنه كان ثملا ووقع من القطار، وهكذا تم قتل ثلاثة من طياري الميج ٢١ من دون انتباه المخابرات العراقية إلى العملية إذ إن الأول قتل في ناد ليلي، والثاني لم تكن جثته قد اكتشفت بعد ولما ظهرت لم تكن أسرار الجريمة واضحة والثالث وقع من قطار، لكن جهاز الموساد كان مصرا على تجنيد أحد الطيارين.

الفرار والخيانة

كان الطيار منير حبيب روفا ابن لأسرة ارثوذكسية فقيرة تقيم في أحد الأحياء الشعبية وهو الثاني ضمن تسعة أبناء لموظف بسيط مدمن على الخمر طرد من عمله فترك أسرته وسافر إلى دبي حيث تزوج هندوسية وترك أسرته فعاشت الأسرة من عمل الأم التي سعت جهدها لدفع أحد أبنائها إلى كلية الطيران حيث استطاع بدخله المرتفع

مساعدة اخوته والزواج من حبيبته وانجاب ولدين إلا أنه كان يحب مطاردة الحسناوات الفاتنات اللواتي يبهرهن زيه العسكري لذا دفع الموساد إليه بعميلة انجليزية حسناء تعرف إليها من خلال صديقه اليهودي العراقي يوسف منشو الذي قدمها إليه كمندوبة تريد توقيع عقد عمل معه وهو لا يعرف الانجليزية لذا يطلب مساعدته في ذلك وهكذا تركه منشو في مكتبه بعد أيام ليتناول العشاء مع ليزا برات المندوبة المزعومة فاستطاعت اجتذابه إلى احضانها ثم دعته إلى باريس لزيارتها وغادرت بغداد، فافتعل حجة اصابته بصداع نصفي للحصول على إذن بالسفر إلى باريس للعلاج حيث كانت بانتظاره فأغرقته في الرذيلة، ثم عرضت عليه العمل براتب أعلى والهروب من العراق إلى «إسرائيل» مقابل مليون دولار اذا وافق على اللقاء «بالاسرائيليين» والتفاهم معهم فوافق بشرط أن تعيش معه في «إسرائيل» وهكذا التقى منير روفا «بالإسرائيليين» ووافق على الفرار بطائرته مقابل مليون دولار وفيلا ومنصب عسكري فدعي إلى زيارة «إسرائيل» حيث اشترط فقط إخراج عائلته من العراق وهو ما حققته له المخابرات «الاسرائيلية» بالتعاون مع السافاك الايراني.

***

الحب يصنع المعجزات..

فؤاد حمودة.. جاسوس الإسكندرية

الحب يصنع المعجزات عبارة طالما ترددت على الألسنة وعلى الأوراق باهتة المقصد، وإن كانت تعني أن الحب يدفع بالمحبين إلى صنع ما لم يخطر ببالهم ليعيش الحب قوياً.. لا ترهبه ضربات الزمن أو عضات الوهن..

لكن.. هل يدفع الحب بالمحبين أيضاً إلى طريق ضائع.. مظلم وأكثر رعباً من الرعب نفسه؟

وهل يقود الحب - أحياناً - والفقر..إلى مصيدة الجاسوسية؟..

هذا ما سنراه في مذكرات جاسوس الإسكندرية (فؤاد حسن علي حمودة) الموظف بشركة المضارب.. والذي دخل النفق المظلم - نفق المخابرات والجاسوسية - بسبب حب «نوسة».. وقاده الحب المدمر إلى النهاية الطبيعية لكل جاسوس خائن..!!

ضحية عشق نوسة

أفاق على صوت مزلاج باب زنزانته الحديدي فارتعد جسده النحيل، ونظر باتجاه الباب في رعب لتصطدم عيناه بوجه الشاويش حمدون يطل عليه بملامحه الجامدة وشاربه الكث، وكأنه تمثال قُد من صخر.

دفع «جراية» الطعام بعيداً وغاص في خوفه وهو يتأمل بزلته الحمراء فانتفض بدنه في رجفة لا إرادية.. ثم انكفأ بوجهه بين ركبتيه يحيطهم بيديه المرتعشتين وأجهش في بكاء مرير، وارتفع نشيجه يشق سكون الزنزانة الضيقة المعتمة، إنه يموت كل يوم آلاف المرات كلما سمع وقع أقدام تتحرك أو صوت مزلاج يفتح.

كان أمله الأخير ألا يصدق رئيس الجمهورية على حكم المحكمة ولكن خاب أمله

وضاع. فلماذا إذن لا ينفذون حكم الإعدام سريعاً؟ ولم هذا الموت البطيء؟ أيكون الانتظار عقاباً نفسياً قبل الشنق؟

هكذا تساءل فؤاد حمودة وهو حبيس الزنزانة الانفرادية في سجن مزرعة طرة.. وتحسس رقبته للمرة المليون وصرخ بأعلى صوته.. لا.. لا.. لست جاسوساً لإسرائيل.. أنا ضحية.. أنا ضحية الفقر.. وأخذ يضرب الأرض الباردة وهو يردد في وهن وضحية حب نوسة.

وسكنت حركته بعدما استسلم لواقعه ولمصيره وتمدد على «البرش» ثم تقلب وتكور متوسداً إحدى يديه ضاغطاً بالأخرى على أذنه.. فيسمع صوتاً يشبه هدير موج يتعاقب، وضربات قلبه اللاهثة تدق في اضطراب تعلن عن مدى الخوف الذي سكن بأعماقه.. والرعب الذي يخترق أفكاره ويشتتها.

ارتد إلى الوراء يتذكر بدايته وتسلسل حياته إلى أن صار جاسوساً لإسرائيل. مدفوعاً بحب نوسة العجيب.. حب دفع بالحبيب إلى حبل المشنقة.

وبعد إعدامه عثروا في زنزانته على لفافة من الأوراق سجل بها قصة حياته بإيجاز أحياناً.. وبتفصيل مطول أحياناً أخرى.

إنها قصته مع الحياة ومع الحب ومع الجاسوسية. يقول فؤاد في مذكراته التي خلفها وراءه.

كان والدي موظف بسيط في الحكومة وأمي لا تعمل. وكانت الأسرة كبيرة العدد قليلة الدخل والأفواه لا تكف عن المضغ والطلبات ترهق الأب. فتحيل نهاره إلى سعي وشقاء وليله إلى نوم متقطع وسعال.

كنت الإبن الثالث ومن بعدي ثلاثة آخرون. أنهيت تعليمي المتوسط وجلست أنتظر فرصة للعمل. ولم يخطر ببالي أنني كنت أنتظر نقطة البداية التي سأنطلق من خلالها إلى خط النهاية بسرعة البرق. مدفوعاً بقوة لا أستطيع مقاومتها.. ذلك أنني رفعت سماعة

التليفون ذات مساء ممل. فجاء صوتها كالنسيم رقيقاً حنوناً بعث الدفء بأعماقي. ودار بيننا حديث طويل امتد لقرب الصباح.

كان اسمها نوسة طالبة في الدبلوم. تسكن في سبورتنج.. تكرر أحاديثنا التليفونية لعدة أيام متصلة.. فالتهبت حرارة الأسلاك وهي تحمل جرعات الرغبات المتزايدة التي ترسلها نوسة بصوتها الأنثوي المسكر.. وكأنه خمر ينصب رقراقاً خلال سماعة التليفون. ونسيت مع مكالماتها وحدتي برغم الزحام والضجيج في شقتنا.. واتجهت لكتابة الشعر. تبدلت حياتي كلها. إذ أصبحت نوسة هي شاغلي ومشاغلي. أنام على صوتها وأصحو. وأحس معها بالمرارة التي تغلفها أحياناً رغم أنها وحيدة أبويها. وتقوم أمها على خدمتها وتعاملها كملكة على عرش قلبها.

كانت فتاة مرفهة إلى درجة الجنون رقيقة لا تتصنع. مثيرة لا تتركني أهدأ.. أو تخمد نيران رغباتي تجاهها برغم سنها الصغير وقلة خبرتها بالحياة.

لكنها برغم ذلك استطاعت أن تحكم قيدها حول حواسي. فأدور في فلكها كالمنوم. حتى وهي تحاول أن تستدرجني لأحاديث الجنس كنت أبدو كالأبله. فأنا لا أعلم شيئاً عنه. إلا أنها تمادت في استدراجي فتجاوبت معها عبر الأسلاك يشجعني صوتها الذي يحرك الجبل وهتفت في نفسي لأرفض وهي تضغط. أرفض وهي تقتل قوتي وتحصد مقاومتي ورفضي بتأوهات يفور لها جسدي كبوتقة تغلي. ولما فشلت معها أرقتني الرغبة المحبوسة فتأثرت لحالي.. وفوجئت بها تعرض علي أن أزورها بمنزلها بعد منتصف الليل. ثم تحول العرض إلى دعوة ملحة. وضايقها ترددي وخوفي. لقد كان عمها المحامي يسكن في الشقة العلوية وهذا الأمر أخافني. إلا أنها دبرت كل شيء في جرأة مدهشة.. فذهبت اليها بعد منتصف الليل في إحدى الليالي الباردة مدفوعاً برغبتي العنيفة. وكان هذا أول تدريب لي على عمل الجاسوسية.

وعندما جلست بجوارها على حافة السرير - على بعد خمسة أمتار من حجرة والدها - سألت نفسي: هل حبيبتي مومس تخدعني أم هي مراهقة تحب؟ وغادرت شقتها لا

أصدق أنني نجوت بحياتي من مصير مجهول. وأعترف أنه برغم سعادتي برجولتي. إلا أنني فقدت أشياء لذيذة كنت لا أريد مسها. وأهمها أنني فقدت بعض ثقتي بها. ولكن صديقي حاتم أكد لي أن الحب أعمى. وأن الفتاة تسلم كل شيء لحبيبها عن قناعة ورضا لأنها تحب.

وبعد عدة أيام دعوتها إلى شقة أختي المسافرة إلى الخارج مع زوجها فجاءت نوسة بسهولة.. وبسهولة أكثر جعلتني أخلع عنها ملابسها دون أن تصدني ولو كذباً وكأنما هي اعتادت ذلك من قبل. لكن الذي أذهلني بحق هو أنني فوجئت بها ليست بكراً..

صفعتني المفاجأة وتحطمت ثقتي بها وفي كل بنات جنسها وأغمضت عيني عن هذا الخطأ مؤقتاً. لقد كنت أحبها ولذلك تعمدت ألا أذكر هذا الأمر ثانية. لكنها هاجمتني بعنف واتهمتني بأني ضيعتها. أخذتها إلى أشهر دكتور في الإسكندرية فلم يصارحني بالحقيقة.. ونسينا الأمر برمته، وكنت لا أستطيع فراقها أو ابتعادها عني. فلقد صارت في دمي..!!

إفعلْ شيئاً لأجلي

وتصف لنا مذكرات جاسوس الإسكندرية أدق خلجاته وإحساساته. كتبها في لحظات صدق مع نفسه قبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبته. وكان قد تقدم بالتماس إلى الرئيس أنور السادات يطلب تخفيف حكم الإعدام ولم يصل الرد بعد على التماسه الذي كان هو الأمل الأخير له في إنقاذه.

ولأنه عاش كثيراً يحلم بتحقيق هذا الأمل.. فقد اتسمت مذكراته بالسرد الدقيق والوصف الرائع لكل جوانب حياته. صفحات بلغت أكثر من مائتي صفحة تحمل مشاعر جاسوس خائن.. اعتقد أن الحب كان السبب الرئيسي في وقوعه في جبّ الجاسوسية العميق المظلم. يقول الجاسوس:

في زنزانتي الرطبة الضيقة.. أنام يقظاً مع انسحاب الشمس وأصحو مع أول خيوطها. وما بين النوم واليقظة ترتعش حواليّ كل الصور.. وترهبني خطوات السجانين

طوال الليل. فأظل أنصت مرعوباً وهي تقترب فأحس باقتراب الموت. وتبتعد فأتنهد. ثم يتملكني الهلع. وهكذا كنت لا أنام ولا أهدأ.. أتخيل وجه نوسة الرائع وهي بين أحضاني..أرتشف من أنوثتها لذاذات جميلة. وأحسو شراباً مسكراً وأعيش معها أجمل لحظات عمري نخوض معاً بحور المتعة. ونجوب نبحث عن مشتقات أخرى للنشوة تغتال فينا الملل والكآبة.

ولم تكد تمر عدة أشهر. إلا وخطبت نوسة فجأة وانشغل تليفونها عني في المساء، فجن جنوني وأقسمت أن أفوز بها ولا أتركها لغيري بعدما أدمنتها.. لكنها كانت تتهرب من لقائي وجنوني.. وتملكني الشعور القاتم بالهزيمة وأنا أضرب رأسي بيدي وأرتجف غضباً وأردد: «أيتها المومس الحقيرة.. أحبك.. أحبك بوجهك الطفولي البريء وصوتك الساحر.. أحبك وأنت تصعدين ورائي إلى الطابق الخامس في شارع «الجلاء» ترتدين زي المدرسة وتحملين حقيبتك.. وتنشدين ما يكفيك من النشوة لعدة أيام قادمة.. أحبك يا عاهرة كاذبة.. ولن أنسى يوم خطبتك لهذا المغفل الذي نزف عليك مئات الجنيهات كما نزفت أنا معك رجولتي».

يومها.. طلبت مني والدتي أن أقرأ عليها عدة صفحات من رواية عاطفية.. فجلست أقرأ لا أدري أي سطور قرأت وقد اختنق صوتي وتلجلج لساني. وبكيت بكاء الضائع الذي فقد الطريق والأمان.

ثلاثة أشهر وعادت نوسة ذليلة يغشاها انكسار الهزيمة بعدما فشلت خطبتها. ولم تمهلني الوقت لأفكر فاستردتني سريعاً واحتوتني من جديد فقلت لها:

أنا لم أكرهك يوماً.. أحبك وإن كنت عاهرة تستأجر.

فؤاد – يا فؤادي.. يا حياتي.. اشتريني ولا تبخس الثمن.

اشتريتك.

سافر وكافح من أجلي.. سافر إلى أي مكان في الدنيا وعد بالثمن.

قلت لها:

لقد عينت في شركة مضارب الإسكندرية بسبعة عشر جنيهاً.

قالت في يأس:

لن نتزوج إذن قبل عشر سنوات.

أهلك يبالغون في المهر.

سافر لعام واحد وسأنتظرك.. سافر.. إنه الحل الوحيد لنا.

لا أملك مصاريف السفر.. أنت تعرفين كل الظروف.

ألم تخبرني أن شقيقتك ستعود عما قريب؟

نعم.. أرسلت لنا بأخبار عودتها بعد شهر ونصف.

اقترض منها مبلغاً وخذ مني هذه الإسورة.

وأضافت وأنفاسها تلهب وجهي: إفعلْ شيئاً لأجلي. وسأظل أنتظرك وأنسج ثوب عرسي كما كانت تفعل «بنيلوبي» قديماً.

في جوتـــن نخـــت

ومنذ تلك اللحظة.. قررت أن أسعى للسفر خارج مصر. كانت الأبواب مغلقة في وجهي.. وحرب الاستنزاف على أشدها بين مصر وإسرائيل.. وهناك مفاوضات من أجل الهدنة والأمور سيئة وتزداد سوءاً.

عادت شقيقتي من الخارج وعندما طلبت منها قرضاً أحالتني إلى زوجها الذي تهكم وسخر مني.. وعندما علم والدي عنفني بشدة.. وأشفقت والدتي على حالي فأعطتني آخر ما تملكه من حلي فلما قبلت يد شقيقتي مرة أخرى وقلت لها أنقذيني من جنوني منحتني سبعة وعشرين جنيهاً.. ولم تمر عدة أيام إلا وكنت أحمل في جيبي تذكرة طائرة إلى بون.. وسافرت إلى ألمانيا الغربية يملؤني إحساس بالمرارة والظلم والضعف.

كانت معي رسالة إلى أحد المعارف في مدينة دوسلدروف شمال بون.. وعندما التقيت به نظر إليّ كمن ينظر إلى كلب أجرب.. حتى صديقته الألمانية كانت تسخر مني وتضحك كأنها ترى بلياتشو برغم أنني لا أعرف كيف أكون مضحكاً فأُضحك الناس. وكنت قد مررت في طريقي بمدينة ساحرة إسمها كولون..فعقدت العزم على العودة إليها وأغامر علني أوفق بمفردي ورجعت جنوباً حتى كولون الواقعة على نهر الراين الخلاب.. فسحرتني المدينة الأنيقة واستولت على عقلي..

عثرت على بنسيون رخيص اسمه «فارسبورجر» تديره سيدة بشوش اسمها بيرجيت كلاين كانت تعاملني بلطف.. وبإنجليزية ركيكة شرحت لها ظروفي ورغبتي في العثور على عمل فتأثرت لحالي.. وبعد يومين ذهبت إلى مصنع بويات يمتلكه زوج ابنتها بيتر راينهارد يقع على أطراف المدينة.. وبعد عمل متصل ليل نهار لعدة شهور استطعت أن أجمع خمسة آلاف مارك.. فأرسلت خطابي العاشر إلى نوسة أطمئنها. وبرغم إلحاحي في الرد على رسائلي لم يصلني منها خطاب واحد.. فانتابني قلق شديدة ولم أتمكن من مكالمتها تليفونياً فكتبت إلى صديقي حاتم أطلب منه موافاتي بأخبارها.. وكان الانتظار يقلقني بل ويفتك بأعصابي..

كانت نوسة رغم الجميلات من حولي هي الأجمل والأرق والأروع ولا تفارق خيالي للحظة وأحلم باليوم الذي يجمعنا.. لذلك.. كنت أعمل بجد وأفرتش ورق الكرتون وأنام. يرفرف خيالها حولي وذكرها يمدني بالقوة ويمنحني الصبر. وتعلمت كيف أحرم نفسي من أبسط الأشياء لأدخر وأعود إليها مرفوع الرأس. ولما جاءني الخطاب المنتظر من حاتم ارتعش قلبي لرؤيته. فما بين سطوره يحدد لي مصيري واتجاهات حياتي. وملأني شعور غامض بالخوف وأنا أفتح الورقة المطوية. وزلزلتني المفاجأة التي لم أتوقعها قط: نوسة تزوجت منذ شهرين وانتقلت للإقامة في «الكنج مريوط».

لطمتني العبارة بعنف فأصابني دوار وأطبقت الجدران على أنفاسي. وأيقنت أنها ضاعت مني إلى الأبد. وأيقنت أيضاً أنها طراز غريب من النساء من الصعب نسيانه.

وعلى امتداد البصر في الخيال والواقع لا أرى سوى وجهها الطفولي البريء ويتجسم أمامي جسدها الأنثوي فأتحسسه.

كان الجليد يتساقط كأنه ينذ ف من القطن الأبيض الناصع في شهر فبراير ١٩٧٠ والباص يقلني إلى شارع «كلنجهاوس» مشيت وسط الزحام لا أنوي على شيء ودون قصد اتجهت إلى شارع «فينشا».. حيث أضواء الكباريهات تتلألأ متراقصة. والداعرات يقفن على النواصي يساومن المارة. وما إن عبرت إلى الناصية الأخرى من الشارع متجهاً إلى كباريه «جوتن نخت» الشهير.. قذفت واحدة منهن بنفسها في طريقي فأزحتها بيدي.. ودلفت إلى داخل الكباريه لأول مرة في حياتي.. شربت ورقصت وسكرت.. وبدلاً من الذهاب إلى حجرتي في المصنع، ذهبت إلى بنسيون فارسبورجر.

دهشت السيدة كلاين وطلبت منها ألا تسألني عن أي شيء فسحبتني إلى إحدى الحجرات..ومنذ ذلك اليوم لم أعد أقيم للأمور وزناً..

تساوت عندي كل المتناقضات وأحاطتني قتامة من اليأس والاهتزاز.. وتفاعلت بداخلي ثورات من الشك والحزن والكآبة. وصرت زبوناً دائماً في جوتن نخت، أمر على محل هورست للملابس فأصحب «كريستينا» للعشاء ثم نسهر ونشرب حتى الثمالة. هي الأخرى وحيدة مثلي هجرت أسرتها في دار مشتات هرباً من ذكرى حبيب غدر بها. وتركت البنسيون وأقمت معها في غرفتها نتعاطى الجنس كالطعام لننسى أننا خدعنا.

وعندما أنفقت آخر مارك كان معي تأففت كريستينا وتملكها الضجر.. فذهبت إلى المصنع مرة أخرى فلم أجد عملاً هناك حاولت أن أجد فرصة عمل بمكان آخر لكن الظروف كانت كلها ضدي. فعجزت عن الإنفاق على نفسي. وطردتني كريستينا من شقتها. ونبهتني السيدة بيرجيت كلاين صاحبة البنسيون لكثرة ديوني ولما عضني الجوع ذهبت إلى الكباريه أطلب عملاً.. أي عمل.

ولأنني زبون معروف لديهم صعد بي أحدهم إلى الطابق العلوي حيث مكتب المدير الفخم.. استقبلني الرجل بحفاوة بعدما اكتشف أنني مصري.. وأخبرني أنه زار مصر منذ

عدة سنوات وسألني عنها فقلت له بقرف «زي الزفت».. لقد كنت في حالة نفسية سيئة والجوع ينهش معدتي.. ويطاردني شبح ترحيلي إلى مصر خاوي الوفاض تنوء حقائبي بيأسي وفشلي.. وسألني الرجل مرة ثانية.

لماذا جئت إلى هنا؟ «يقصد ألمانيا».

قلت في أسى:

الفقر والحب..

وبعد أن سردت عليه قصة حياتي بإيجاز.. أسف لحالي.. وبصوت به رنة الواثق قال:

بإمكانك أن تصبح مليونيراً.. المهم أن تكون أكثر ديناميكية وتعاوناً..

ضحكت في تعجب وسألته:

مليونيراً؟ كيف وفي جيبي أحد عشر ماركاً ونصف ولا أنطق بالدوتش وإنجليزيتي سيئة.. كيف؟

ترك جوتل هاوزن مقعده خلف المكتب وجلس قبالتي يفرك يديه وقال:

نشأت مغامراً شجاعاً أكره الخوف والجبناء.. سنوات قليلة وكنت شريكاً في هذا النادي ثم امتلكته لأنني دست على أشياء كثيرة لكي أحقق طموحاتي.. وأعرف أن الرجل الشرقي عاطفي يخشى المغامرة ومقيد بتقاليد وأعراف.

سيد هاوزن أنا مستعد لأية مغامرة تنتشلني من الفقر والضياع.

إذن.. إنس أنك مصري.. مسلم.. وتذكر فقط أنك هنا.. في ألمانيا الغربية.. في أوروبا.

سأنسى.. لا أريد أن أتذكر هذا الماضي اللعين.. أريد أن أكون إنساناً آخر.

ضغط الرجل على زر فجاءت فتاة رائعة مثيرة والتفت الي قائلاً:

هذه سيلفيا.. من الآن سترافقها في سفرها إلى ألمانيا الشرقية لبعض الأعمال التجارية.

ابتسمت سيلفيا ونظرت إليهما في بلاهة.. وعندما أوشكت على سؤاله عن عملي الجديد أصدر أوامره إلى سيلفيا بأن تدفع حساب البنسيون وتصحبني إلى شقتها..

وقام إلى مكتبه وعد بعض النقود وناولها لي قائلاً:

هذه لك.. وللعمل حساب آخر.

وبينما كان يسلم نقوداً أخرى لسيلفيا أدركت أن المبلغ ألف مارك.. فدارت الأسئلة في خيالي وتساءلت بيني وبين نفسي:

«ماذا سأعمل بالضبط؟»

وقررت أن أغامر وألا أستسلم أبداً مهما كانت المصاعب.. وأفقت على يد سيلفيا تجذبني فمشيت وراءها.. وبدأ منذ ذلك الحين أولى خطواتي على الطريق المجهول.. والذي في نهايته كانت تنتظرني المشنقة.

عيون لا ترى الشمس

وفي شقة سيلفيا الرائعة التي تطل على نهر الراين.. حيث البانوراما تخلب الألباب وتدير الرؤوس.. تذوقت أنوثتها العجيبة التي أنستني نوسة ولهيب حبها.. وبينما كنا عاريين نستريح سألتها:

سيلفيا ماذا سأعمل معك؟

أشعلت سيجارة وجذبت نفثاً عميقاً وقالت:

التهريب..!!

قلت مستفسراً وقد تملكني القلق:

تهريب..؟ تهريب ماذا؟

وهي تنفث دخانها في وجهي:

نحن ندخل الخمور والسجائر والساعات إلى ألمانيا الشرقية مهربة على الحدود.

قمت مسرعاً وارتديت ملابسي وأنا حانق.. واتجهتْ مباشرة إلى جوتن نخت وصعدت إلى مكتب المدير وتعجب الرجل لرؤيتي وتساءل وهو يهز رأسه:

ماذا بك؟

كان صوتي عالياً في استنكار وأنا أقول:

تهريب الخمور والسجائر يا سيدي لن يبني لي مجداً أو يرفع من شأني.. إنه عمل تافه.

تريد أن نزرع بك الجرأة ثم نوكل إليك الأهم والأكبر.

لو لم أكن جريئاً ومثابراً ما جئت إلى هنا لا أملك مالاً أو لغة.. أنا لست سوى فدائي مغامر.

في لهجة مليئة بالتحدي:

أتريد أن تثبت لنفسك أنك مغامر..

فقلت في اندفاع الواثق:

سيد هاوزن أريد أن أؤكد.. نعم أؤكد لكم أنني جريء لحد المغامرة.. وأريد أن أعمل وأكسب لا أن أخبئ بعض علب السجائر والعصير وأعبر بها كاللص إلى الناحية الأخرى من ألمانيا.

قلت لك يا فؤاد أن تهريب السلع تمرين لك لا أكثر.

تمرين على ماذا؟

لمعت عيناه كعيني ثعلب ماكر وبصوت هامس قال:

مهمة سرية جريئة ستكسب من ورائها نصف مليون مارك على الأقل.. إنه مبلغ خيالي قد تشتري به حياً بأكمله في الإسكندرية هه.. ماذا تقول؟

جف حلقومي فجأة وانحبس صوتي وأنا أقول:

اعتبرني قد تمرنت وأنا الآن جاهز للمهمة الكبرى.. أريد هذا النصف مليون ولو كلفني ذلك أغلى ما أملك.. وكل ما أملك.

ابتسم هاوزن وأردف:

أنت لا تملك شيئاً ولكننا نريدك أن تملك.

أنا طوع أمرك يا سيدي.

تناول الرجل كارتاً صغيراً وسلمه لي وهو يقول:

إذهب غداً إلى هذا العنوان.

وقرأت: السفارة الإسرائيلية بون.. فرمقته بنظرة غليظة وقد سرت بأوصالي رعشة.. وقلت بصوت أجش:

وما دخل إسرائيل في تهريب السلع إلى ألمانيا الأخرى؟

في بون ستعرف كل شيء.. وسيدفعون لك بسخاء إذا تعاونت معهم.

كان الخوف قد بدأ يساورني وقلت في تلعثم:

تريدونني جاسوساً إذن؟

أجابني بسرعة وكأن رده كان جاهزاً:

إسرائيل ليست بحاجة إليك لتعمل جاسوساً.. فأنت لا تملك هذه الموهبة ولست بالشخص المهم الذي تستخلص منه معلومات سرية.

قبل مغادرتي مصر بوقت قريب قرأت في الصحف عن جاسوس مصري عاطل لا يعمل بالحكومة ولم يؤد الخدمة العسكرية فلماذا اختير جاسوساً وما الفائدة منه؟

اسمع.. طالما نحن في حالة حرب مع العرب - فسوف ينظر إلى نياتنا بالريبة والشك..

تشققت شرايين عقلي عندما نطقها صريحة.. وأحسست بأنني أترنح وأرتجف.. لكني استجمعت قواي الخائرة في صعوبة وسألته:

أنت إسرائيلي إذن سيد هاوزن؟

أنا يهودي ألماني أحب إسرائيل والعرب وأحلم دائماً بالوفاق بينهما.

ودخلت سيلفيا مضطربة. نظرت إلى وجهينا تستخلص نتائج اللقاء.. ويبدو أنها فهمت جيداً أن شيئاً ما قد حدث. فهتفت سريعاً:

أوه.. أيها المصري المراوغ..

وأخرجت منديلها تمسح قطرات العرق على جبهتي.. وكنت لحظتئذ كتائه يبحث عن ملاذ.. يملؤني إحساس غريب أحسه لأول مرة. إنه مزيج من الخوف والطيش واللامبالاة..

لملمت إرادتي ونزلت معها إلى الصالة فشربنا ورقصنا.. واستيقظت في الصباح لأجدها عارية بجواري.. وجسدها الأفروديتي ينفث حرارة تلسع رجولتي.. لكنني كنت قد فقدت الرغبة تجاهها وسافرت بخيالي إلى بعيد، إلى الإسكندرية، وهجم طوفان من الذكريات والمشاهد واستسلمت هرباً من توتري واضطرابي. فطفت كالطائر فوق كازينو الشاطئ على الكورنيش وتجولت بداخله. واتجهت إلى الركن الذي شهد أروع لقاءاتي مع نوسة.. فتحسست الموائد والمقاعد علني أتنسم عطرها. وعندما اتجهت طائراً إلى قلعة قايتباي.. مدت سيلفيا يدها تداعب شعري ولكن هيهات. لم تخرجني من رحلتي لمسجد سيدي بشر الذي يطل على البحر من مرتفع.. فكم جلست على أسواره أتفكر في مستقبلي المجهول وحياتي الخاوية.. وكثيراً ما عرجت خلف المسجد حيث تقع المقابر فأنشد بعض الرضى والصبر.

ياه.. هاهي أشجار التين البرشومي على ساحل العجمي، تتناثر على مرتفعات التلال وصبيان يرعيان الماعز ويلعبان «السيجا». طفت أتذكر مراتع طفولتي وصباي. برائحته

الآزوتية يلفح وجهي نسيم البحر رطباً. ويطير خيالي إلى محرم بك حيث بيتنا الجميل وضوضاء الباعة الجائلين. وتوقفت عند يوم سفري حيث وجه والدتي النوراني والدموع تشق أخدودين على خديها. وبحنان كبير تقبلني وتضمني إلى صدرها بحرارة. وها هو يقف محزوناً. لم أر والدي من قبل يبكي. أشعره العجز عن تحقيق آمالنا بحسرة تنطق بها نبرات صوتها الحزينة. وها هي هدير - صغرى شقيقاتي - تخلصت من أحضانها بمعجزة. كانت تحس بمعاناتي أكثر من شقيقتي الكبرى التي وقفت تقول: دعوه يسافر فالسفر يحوله إلى رجل.

ودون وعي أبعد يد سيلفيا عن صدري ونظرت اليها في «زهق» فانتبهت ورفعت رأسها قليلاً لتلمح حبات دموع تعرف طريقها جيداً على وجهي وانتابتني رجفة خفيفة فضمتني إلى صدرها وقالت:

علام القلق يا فؤاد؟ أنت لن تذهب إلى جهنم حتى تضطرب هكذا.

أجبتها بصوت مبحوح مختنق:

سيلفيا.. أنا فقط تذكرت أهلي في مصر.

وهي تضغطني بشدة:

عما قريب ستعود اليهم ومعك آلاف الماركات.

ماذا يريدون مني مقابل هذه الثروة.

أنا لا أفهم في السياسة. لكنهم بلا شك يعملون من أجل السلام وأمن إسرائيل.

أنا أيضاً لا أحب السياسة ولا أفهمها. وما أذكره أن إسرائيل احتلت سيناء والضفة والجولان.. ولا أعرف بالضبط ما هي الضفة أو الجولان؟

أعتقد أنك مصري مقامر لديك عزيمة المغامر وإصرار العنيد.

ربما أكون كذلك وإلا ما جئت إلى هنا.

قلت لي أنك جئت مديوناً أليس كذلك؟

بلى جئت مديوناً وكنت أتسول مصاريف السفر ذليلاً. حتى والدي كان يعتقد بأنني سأخذله.. ولم يكن يثق فيّ للحظة.

زوج شقيقتك قلت لي أيضاً أنه آلمك كثيراً وسخر منك.

كفى كفى سيلفيا أريد ألا أتذكره. لقد رفض وداعي في المطار وقال باستخفاف سأذهب لاستقباله بعد عدة أيام قادماً بفشله.

هجمت علي مشاهد الإذلال التي عشتها في الإسكندرية وأنا أبحث عمن يمد لي يده بجنيهات قليلة تعينني في سفري.. فامتلأ قلبي غيظاً وغضباً وسمعت سيلفيا تقول:

فؤاد لا تحرق أعصابك فأنت مقبل على عمل هام يجب أن تستعد له بذهن صاف.

نعم صدقت أيتها الملعونة وضممتها مداعباً خصلات شعرها الذهبي الناعم وقبلتها قبلة نارية طويلة وقلت:

متى سنلتقي بهم في بون؟

لم ترد علي فقد استغرقت قبلتها المجنونة وقتاً طويلاً.. ثم انتصبت جالسة فجأة وأخذت تضرب صدري بيديها وتصيح:

من أي أرض أنت أيها الوحش؟

كانت حرارتها قد ازدادت اشتعالاً وتعمدت أن تغرقني في مستنقع الجنس ولا أفيق من خمره أبداً أنوثتها أسبغت عليها الخبرة أنوثة أقوى وبعد أن استرحنا قليلاً أدارت قرص التليفون وتحدثت مع هاوزن.. فلم أستطع فهم حوارهما حتى إنتبهت اليها تقول:

ميعادنا الثامنة مساء اليوم في بون؟

نظرت في ساعة يدي وقلت:

٧٥ كيلو متراً يقطعه الباص في ساعة تقريباً حتى بون يجب أن نصل مبكراً. أريد

شراء ملابس جيدة من محلات جونتر الشهيرة.

استسلمت لمصيري وأغمضت عيني عن المخاطر التي تحدق بي فقد كنت كالتائه في الصحراء أكاد أموت عطشاً لو لم أنبش الأرض بأظافري لأشرب. وأخذت سيلفيا تسقيني جرعة زائدة من الثقة في نفسي. وتؤكد على أنني حر ولا سلطان لأحد علي إلا المال الذي سوف يتدفق من حيث لا أدري. وتمادت في إيهامي بأنني شخصية مرموقة ومهمة حتى خيل إلي أنني رئيس الجمهورية العربية المتحدة. وبيدي حل أزمة الصراع العربي الإسرائيلي في الشرق الأوسط.

وكــــر الحيـــة

عندما ركبنا الباص في بون كان نهر الراين عن يساري ينساب رقراقاً متهادياً تغطيه أحياناً أسراب من الطيور البيضاء وكانت الخضرة متمدة يميناً ويساراً إلى مساحات شا سعة.. فتبدو كبساط رائع تتخلله ألوان الزهور الزاهية في الربيع.. وتظهر البيوت الريفية وسط الحقول بشكلها الجميل يبعث شعوراً بالبهجة والهدوء..

تذكرت النيل وأرض الدلتا تزهو به وترفل في أثواب بديعة من ألوان شتى. وتذكرت الريف الفقير في بلدي وقلت في نفسي إن الفارق الكبير بينه وبين الريف الألماني الذي لا يقارن يعود في الأصل – كما قال هازون – إلى حالة الحرب التي سيطرت على مصر. ولولا الحروب لكانت أجمل بقاع الأرض.

هذا الأمر جعلني لا أنبذ فكرة الاتصال باليهود أو التعاون معهم. إذ صور لي خيالي أنني قد أساهم في خلق مجتمع أفضل في وطني. اعتقدت أيضاً أنني صاحب رسالة يجب أن أؤديها. ولم أقنع عقلي أنني بالتعاون مع الإسرائيليين صرت جاسوساً لهم على أهلي ووطني. ولكن.. تغيرت المفاهيم تماماً بعد زيارتي لسفارة إسرائيل!!

في غرفة رائعة بفندق ماجستيك. استبدلت ملابسي وتهيأت للقاء المرتقب. وعند الباب الرئيسي كانت تقف بانتظارنا سيارة أوبل حديثة وقف بجانبها شاب مهذب فتح الباب الخلفي فركبت بجوار سيلفيا وساقاي ترتعشان في قلق لا إرادي واخترقت

السيارة شوارع بون تحملني إلى المجهول. وعندما وقفت أمام مبنى سفارة إسرائيل يعلوها العلم الأبيض ذو النجمة السداسية الزرقاء - نجمة داود - تسمرت قدماي واقشعر بدني كله.. فجذبتني سيلفيا إلى الداخل وهي تصيح في دلال:

هه.. حبيبي.. ماذا جرى لك؟

فمشيت وراءها كالمنوم وفي الطابق الثاني من السفارة استقبلتنا فتاة بشوش أزالت ابتسامتها بعض الرعب الذي جثم على صدري وقادتنا إلى غرفة تقع في نهاية ممر طويل.

كانت غرفة مكتب لا أحد بها وعلى الجدار كانت هناك صورة لسيدة عجوز وأخرى لرجل لم يعجبني منظره. لقد كانت العجوز تبتسم في خبث بينما هو يزم شفتيه في تحد وشماتة.

خرجت الفتاة ووضعت سيلفيا ساقاً فوق ساق فأظهرت ثلثي فخذيها وقالت بعدما أشعلت سيجارتها:

فؤاد.. الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد تبدو كأنك تغرق.

أنا؟..

نطقتها وكنت في الحقيقة أرتجف بشدة وتصطك أسناني في اضطراب ويبدو أن سيلفيا أرادت تهدئتي فقالت بصوت محبب مريح:

بإمكانك أن تنصرف الآن لن يمنعك أحد.

تفضل مستر فؤاد.

هكذا نطقت باسمي الفتاة التي استقبلتنا وقد دخلت وبين يديها صينية تحمل أطباق الحلوى وأكواب الشاي وفي أثرها دخل رجل أسمر شرقي الملامح وبعربية فصيحة صاح كأنه يعرفني منذ أمد:

أهلاً أهلاً يا فؤاد.. كيف حالك؟

صافحني بحرارة وهو يقول:

أنا مصري مثلك.. إسكندراني.. وإسمي إبراهيم يعقوب.. أرجو أن تعتبر نفسك في بيتك هنا.

تمتمت ببضع كلمات غير مفهومة فابتسم ورمق سيلفيا بنظرة سريعة فقامت على الفور وقالت لي:

سأعود حالاً.

وبينما كان يعد ويرتب بعض أوراقه كنت أطرقع أصابعي وبدأ التوتر جلياً على وجهي. ولم يتركني إبراهيم كثيراً إذ التفت إلي كلية وقال:

حدثني عنك هاوزن كثيراً. أما سيلفيا فقالت عنك قصائداً.

ثم أضاف:

ماذا كنت تعمل في كولون؟

في مصنع راينهارد للبويات.

كم كان راتبك تقريباً؟

كنت أوفر ألف مارك من بقية راتبي.

أتريد أن نلف وندور أم نتحدث صراحة حتى نختصر المسافة والوقت؟

أنا لا أفهم شيئاً.

فؤاد.. أنت شاب ذكي وتعرف كيف تستغل المواقف لصالحك. وأنا أعرف أنك تمر بظروف سيئة في مصر وهنا أيضاً. هاوزن قال لي صراحة أنك مغامر عنيد ورفضت العمل معه في تهريب السلع إلى ألمانيا الشرقية لأنك أردت عملاً أهم وأكبر.. وبالتالي عائداً مادياً يتناسب وأحلامك وطموحاتك. أليست هذه حقيقة؟

بلى.

إذن.. عليك أن تعلم جيداً أنه برغم التوتر في الشرق الأوسط والصراع المرير ما بين إسرائيل والدول العربية.. فليس معنى وجودك هنا أننا نريدك جاسوساً.. لا.. نحن لا نريدك أن تخون بلدك.. فأن شخصياً لا أريد أن أتعامل مع الخونة.. ويبدو أن هاوزن كذب عليك كثيراً عندما أكد على أنك قد تكسب نصف مليون مارك بتعاملك معنا.. نعم.. كذب هاوزن فهذا مبلغ تافه.. ولأنك مغامر تبحث عن المال والمجد.. فقد تكسب مليون مارك في لحظة خاطفة.. إن النقود ليست بذات قيمة عندنا.. نحن فقط نحب المجتهدين.. ونعطي بسخاء وبدون حساب إذا ما تأكد لدينا أنك مخلص في تعاونك معنا.

قلت له وأنا أتلعثم ولا أستطيع جمع شتات فكري:

أنا مستعد للتعاون معكم على ألا أصاب بضرر أو..

لا.. لا.. لن يؤدي ذلك إلى إلحاق أي ضرر بك.. مطلقاً.. نحن نريدك صديقاً ونسعى وبشدة للمحافظة على أصدقائنا في أي موقع وفي أي مكان.

قلت وقد تجرأت لفتح مجالات حوار مختلفة:

ماذا إذن تريدون مني؟

نريد أن نتعرف عليك أكثر.

ولعدة ساعات سألني ابراهيم عشرات الأسئلة عن أهلي وأقاربي وأصدقائي.. وعن الإسكندرية والحي الذي أسكن به. وسلمني ملفاً به عدة ورقات طلب مني أن أكتب سجل حياتي وأجيب عن الأسئلة المكتوبة باللغة العربية. وجاءني بخريطة كبيرة للإسكندرية علقها على الحائط وطلب مني أن أحدد موقع منزلي.. ثم علق خريطة أخرى لميناء الإسكندرية وطلب مني أن أحدد له بعض المواقع ففعلت.

خرجت من السفارة الإسرائيلية منهك القوى وكأنني كنت أحارب في معركة شرسة. كنت أبحث عن سريري لأرتمي عليه. وتوقعت أن أجد سيلفيا تنتظرني بالحجرة لكنها لم تكن موجودة. فاستغرقت في نوم طويل وأفقت في الصباح أنتظر اتصالاً من

سيلفيا أو إبراهيم فلم يحدث.

لقد طلب مني إبراهيم أن أظل بالفندق ولا أغادر بون حتى يتصل بي.. ومرت علي خمسة أيام طويلة دون أن يتصل بي أحد. وكلما طلبت هاوزن في كولون لا أجده. وفجأة طرق الباب أحد موظفي الفندق وأخبرني أنه موظف بالحسابات وبدماثة خلق أخبرني أنني مدين للفندق بمبلغ ١٦٠٠ مارك ويجب الإسراع في السداد.

ارتديت ملابسي وربكت سيارة إلى السفارة الإسرائيلية.. ولكن موظفة الاستعلامات أتت من الداخل وبيدها مظروف بداخله مائتا مارك وقالت إن إبراهيم في مهمة وسيعود خلال أيام.

وعدت إلى الفندق لأحصي المبلغ كله الذي أملكه فوجدته يقل عن الخمسمائة مارك.. وقلت في نفسي لا بد أن أتصرف وأسدد الفندق وإلا فستقبض علي الشرطة. وتعجبت.. ذلك أن سيلفيا أكدت لي أنني لن أدفع حساب الفندق. فماذا حدث إذن؟ وأين سيلفيا هي الأخرى؟

استلقيت على سريري أفكر في هذا المأزق وفي آلاف الماركات والدولارات التي وعدت بها.. واضطربت لسوء موقفي بسبب قلة النقود معي.. لكني لازمت الفندق ولم أغادره انتظاراً لاتصال إبراهيم أو سيلفيا. وبعدما فقدت الأمل فيهما جاءتني مكالمة من السفارة الإسرائيلية تطلب مني أن أذهب إليها حالاً.

وهناك تعرفت على أبو علمون الذي اعتذر لسفر إبراهيم المفاجئ. واصطحبني إلى غرفة بها صفوف من المقاعد ولما أطفأ الأنوار وأدار آلة عرض شاهدت أنواعاً مختلفة من الدبابات والمدرعات والسيارات المجنزرة. وشرع أبو علمون في تلقيني كيفية التمييز بينها وعندما سألته لماذا؟ أجابني بأن هذا هو صميم عملي الذي سيكون في ميناء الاسكندرية وسألني بحزم:

ألست مغامراً يبحث عن النقود؟

أجبت في ذعر:

بلى.. ولكن..

قاطعني بحسم:

نحن نريد أن نمنع الحرب بين مصر وإسرائيل. والشرق الأوسط الآن منطقة ملغومة وسوف ندفع لك مليون مارك - فوراً - إذا عرفنا بواسطتك أن مصر ستحارب.

وكيف سأعرف؟

من السهل جداً أن تعرف ذلك.. فإن تدفق الأسلحة من الاتحاد السوفياتي إلى مصر لدليل قوي على نية الحرب عند المصريين، كذلك حركة تنقلات وحدات الجيش المصري وما عليك إلا أن تكون عيناً لنا وأذناً. عيناً على ميناء الاسكندرية الذي يستقبل السفن المحملة بالأسلحة والمعدات وأذناً لنا نسمع بها ما يدور سراً في الجيش المصري..

كان جسدي يرتعش وحل اضطراب شديد بأعضائي. الآن.. الآن فقط عرفت مهمتي بالضبط.

استغرق أبو علمون في الحديث الذي كان «يطعمه» بالإغراءات المادية.. وبالخير الذي سينصب فوق رأسي بتعاوني معهم ويتعمد أن يذكرني كل لحظة بظروفي المعيشية الصعبة. وبأنني لست في محطة باص ولكن في سفارة إسرائيل.

.. كانت نبرة التهديد واضحة ومخيفة تحمل خلفها الموت والدمار وتعقبها نبرة مغلفة بالوعود البراقة فحوصرت.ورفعت الراية البيضاء في النهاية. دون أن أحسب حساباً لمصير أسود ينتظرني..فقد ملئت ثقة بأنني في مأمن كامل معهم.

العملاق الذي مات

أعاد أبو علمون تشغيل آلة العرض الـ ١٦ مليمتراً.. وأخذ يشرح لي الكثير عن الأسلحة المختلفة والمعدات العسكرية. وبقيت طوال اليوم في السفارة الإسرائيلية أتدرب على تحديد أنواع المعدات وموديلاتها.

وعندما عدت إلى الفندق - قامت «كاتيا» التي رافقتني من السفارة، بدفع المتأخرات وصعدت معي إلى غرفتي وقالت لي أنها ستصاحبني إلى سهرة خاصة ستعجبني.

أبدلت ملابسي وخرجت معها تقود سيارتها وهي تغني أغنية لأم كلثوم فصرخت بها:

أنت فلسطينية؟

نظرت إلي ثم استمرت تردد مقاطع الأغنية وتخترق شوارع بون. حتى وصلنا إلى شارع تصطف على رصيفيه أشجار البونسيانا التي تغطيها الزهور الوردية البديعة وقالت كاتيا:

أنا مغربية من كازا بلانكا.

وأضافت قبلما نغادر السيارة:

ستقضي هنا سهرة العمر..

دلفنا إلى فيلا من طابقين بلا حراسة.. وعندما اجتزنا الحديقة سمعت ضحكات نسائية تدور وانفتح الباب عن رجال ونساء لا أعرفهم ولا يعرفونني.. لكن بعضهم أومأ تحية لكاتيا.. وبعد دقائق جاءتني زجاجات الخمور أنتقي منها ما أريد.. ودارت عجلة المجون وصاح البعض في اندهاش وهم يرون فتاة صغيرة شقراء.. لا تتعدى التاسعة عشرة.. ترقص وتخلع ملابسها قطعة.. وراء قطعة وكلما تخلصت من واحدة تزداد أصوات الهمهمات.. وظلت لدقائق عارية الصدر ترقص بورقة التوت الصغيرة ثم تخلصت منها أيضاً والآهات تعلو. وظهر شاب على البيست احتضن الفتاة العارية وأخذا يرقصان في خلاعة.. وتخلص الشاب أيضاً من ملابسه ومارس الجنس بحرية أمام الحضور.

عدت إلى حجرتي لأستعد للقاء المرتقب مع إبراهيم فأخبرتني كاتيا أنني سأنتقل إلى إحدى الشقق لاستكمال الدورة المكثفة، وفي الشقة الجديدة على أطراف المدينة جاء

إبراهيم.. وبدأ امتحانه لي بأن أطلعني على صور لبعض المعدات وطلب مني التميز بينها.. ودربني على ذلك كثيراً، ثم أفاض في شرح كيفية اصطياد المعلومات العسكرية.

وفي شبه معسكر مغلق أقمت في الشقة مع كاتيا. معظم النهار في دورات تدريبية مكثفة.. أما الليل فهو ملك كاتيا نمضيه معاً في شرب الخمر وتعاطي الجنس وننام آخر الليل سكارى.

وبعد أسبوعين تقريباً كنت قد تعلمت الكثير، ودربت على كيفية الحصول على ما أريد من معلومات من العسكريين. وتعلمت الكتابة على الورق المشبع بالمواد الكيماوية وذلك بكتابة خطاب عادي ثم أستخدم الكربون المعد للكتابة السرية لأكتب الرسالة المطلوبة بين السطور.. ثم أمرر الرسالة على بخار براد الشاي لثلاث دقائق.. فتتلاشى آثار الضغط ويصبح شكلها كالرسالة العادية بعد وضعها بين صفحات كتاب كبير لعدة دقائق.

كانت هذه هي طريقة الكتابة السرية التي دربت عليها وأجدتها عدة مرات. وهكذا أصبحت جاسوساً لإسرائيل دون أن أقاوم أو أسعى في محاولة لأن أقاوم. ولم أستطع أن أتراجع. فلقد أغرقوني بالنقود والخمر والنساء الفاتنات وأحاطوني بكل الإغراءات فسقطت ولم أفق.

لكن بعد عدة أيام وفي أواخر سبتمبر ١٩٧٠ حدثت كارثة زلزلتني إذ شاهدت في التليفزيون مشاهد عن مصر. وعندما دققت كثيراً - عرفت أن جمال عبدالناصر قد مات..

صرخت دون وعي وجاءت كاتيا مسرعة من الحمام وأغلقت التليفزيون وعندما قفزتُ لأفتحه وأنا ألعنها حاولت منعي. فلم أشعر إلا ويدي تنهال ضرباً على وجهها.. وظللت أضربها وهي تصرخ.. ولما اشتد ضربي لها فتحت باب الشقة وخرجت هاربة من جنوني.. وبعد نصف الساعة فوجئت بإبراهيم أمامي.. يصوب مسدسه نحوي ومن خلفه كان هناك اثنان لا أعرفهما.. يحملان رشاشات «عوزي» الأوتوماتيكية. وكان الغضب يطفح على وجههم جميعاً.. وأدركت أنها لحظة النهاية..!!

كنت منكفئاً على وجهي أبكي بصوت مرتفع.. تحاصرني انفعالات شتى وأنا أتخيل مدى حقارتي ووضاعتي وامتدت نحوي يد إبراهيم - ضابط المخابرات الإسرائيلي - في محاولة لتهدئتي فصرخت في وجهه أن يدعني وشأني. وانفجرت باكياً كأنما أبكي أبي. وملأني شعور غريب شعور بالضعف والانكسار والوحدة. واجتاحني إحساس بالضياع. وقال إبراهيم:

نحن نقدر أحزانك.. لقد كان ناصر عظيماً..

وأردف بفخر:

هناك اتصالات دولية لإرسال وفد إسرائيلي للتعزية.. إنه زعيم عربي لن تنجب مصر مثله.. لقد استشهد وهو يكافح لاحتواء أزمة الفلسطينيين في الأردن..

علا بكائي ولم أستطع كتمان موجات الشجن وسمعت إبراهيم يقول في التليفون

أرسلوا «هيمبل» حالاً ومعه أدواته

يفضل ذلك. وعلى وجه السرعة. إنها ستساعدنا كثيراً.

دقائق وجاء الدكتور هيمبل.. نظر في وجهي سريعاً وهو يضع حقيبته على السرير.. وفتحها باهتمام وأخرج سماعته الطبية..ولما اقترب مني دفعته بقوة فسقط على الأرض وحاولت الهرب من الحجرة.. لكن إبراهيم وحارسيه كانوا قد تمكنوا مني.. وأسرع هيمبل وملأ السرنجة بسائل أصفر.. وبينما كنت أصرخ وأحاول الإفلات كانوا يشلون حركتي.. وحقنني هيمبل في الوريد ورأيت بعدها خيالات أشباح تلف حولي. وعندما أفقت لمحت وجهها الجميل يبتسم. ويدها الرقيقة تداعب شعيرات صدري فلم أكن أتصور أنها هي بلحمها وشحمها وعندما نطقت باسمها صاحت وهي تحتضنني:

حبيبي.. حبيبي..!!

نظرت حولي فلم أجد سواها ورمقتها بنظرة عتاب فقبلتني قبلة سريعة ملأى بالحنان وقالت:

جئت لأجلك حالاً من إسرائيل.. ولن أتركك وحدك أبداً..

احتوتني سيلفيا بحنانها.. ومهدت الطريق لأبو علمون الذي جاءني منتفخ الأوداج يبدو كديك شركسي.. وبعد أن جلس قليلاً ربت على كتفي وقال:

فؤاد.. بوفاة ناصر سنكون أكثر احتياجاً إليك.. فالأمور في مصر غير واضحة الآن. لقد كنا نعرف قدرات ناصر جيداً ولكن بمجيء آخر ستكون هناك شكوك في نياته وعلى ذلك فاحتمالات الحرب مع مصر قائمة. وعلينا أن نتعاون معاً لنحبط الصدام المسلح ونعمل على إفشاله.

وبعد انصراف أبو علمون جاء إبراهيم بخطوة الواثق وقال لي:

- إنها فرصة العمر بالنسبة إليك ويجب أن تنتهزها وإلا ضاعت منك إلى الأبد. إنها لحظة رائعة يا فؤاد عندما نخبرك أنك حصلت على مليون مارك ألماني لا بد أن تتحرك فهناك من ينتظر هذه الفرصة التي منحناها لك.

وقبل أن ينصرف ناولني مظروفاً بداخله ألفا مارك.

كانت سيلفيا – عملية الموساد – لا تكف عن ترديد حكايات عجيبة عن المخابرات الاسرائيلية تكاد تكون أساطير من نسج الخيال. وكيف تحمي الموساد رجالها وعملاءها في كل أرجاء المعمورة.

ولم تمر سوى أربعة أيام وعاد إبراهيم ليكمل الدورة التدريبية.. وجرى تدريبي على استعمال الشفرة بالراديو.. وكان علي أن أستقبل إشارات معينة على إحدى الموجات فأقوم بمطابقتها على كتاب الشفرة. وسلمني أيضاً جهاز راديو خاص وقمت بحل التمارين عدة مرات.. حتى تأكد نجاحي تماماً في استقبال الرسائل وترجمتها.

بعد ذلك دربني على استعمال الميكروفيلم في تلقي المعلومات أو إرسالها. فضابط

المخابرات يكتب أوامره على صفحة فولسكاب.. ثم يقوم بتصغيرها عدة مرات حتى تصل إلى حجم رأس الدبوس. وعندما أتسلمها فوراً أقوم بتكبيرها إلى حجمها الأصلي وقراءة الأوامر.. وإرسال المعلومات إلى مكاتب وفروع الموساد في العواصم الاوروبية بذات الأسلوب.

وبعد عدة أيام لازمني خلالها إبراهيم معظم ساعات النهار استطاع أن يشرح لي أساليب التخفي والتمويه والهرب من المراقبة وإخفاء أدوات التجسس وكذلك طرق «جلب» المعلومات من المصادر العسكرية. وتتبع حركة تنقلات وحدات الجيش. وكان الأهم. خاصة بعدما حصلت على دورة سابقة في التمييز بين أنواع الأسلحة والمعدات.

وبعد هذا النجاح المثير أعاد إبراهيم حكاية المليون مارك ثم وعدني بـ ٥٠ ألف دولار أمريكي إذا أفشيت سر أي عميل للمخابرات المصرية داخل إسرائيل ويقبض عليه فعلاً. وعندما استفسرت عن هذا الأمر وقلت لإبراهيم:

كيف لي أن أعرف جواسيس مصر في إسرائيل؟

أجابني بثقة زائدة:

من خلال معارفك الذين لهم علاقات بأفراد من القوات المسلحة.. أو من ضباط الجيش أنفسهم.. فالمصري دائماً يتباهى بأنه يحمل معلومات خطيرة مما يعطي انطباعاً بأهميته.

فقلت له على الفور:

مستحيل أن تصل الدردشة العادية لدرجة البوح بأسرار كهذه.

سأقوم بتعليمك كيفية إدارة الحوار مع أشخاص مهمين وعليك أن تسعى لخلق صداقات جديدة مع أشخاص في مواقع حساسة للحصول منهم على معلومات. أية معلومات لا بد أن تكتبها لنا. وعليك أن تفهم جيداً أن هؤلاء الذين يشغلون مناصب مهمة لديهم اتصالات بآخرين في مواقع أهم. وأثناء جلسات اللهو والمرح.. «يفضفض»

كل واحد بما لديه من معلومات وأسرار.وتصبح أدق المعلومات العسكرية مادة سهلة التداول، وعليك حينئذ أن تدير الحوار ببراعة.. كما سأعلمك استخلاص ما هو أكثر مما قيل.

وفي دورة أخيرة لإدارة حوار مع شخصية مهمة.. أخذ ابراهيم يعلمني كيف أثير الطرف الآخر وأجعله ينطق ويبوح بكل ما هو سر لديه.. وذلك بعدة طرق منها أن أذكر له معلومات خاطئة فيصححها لي.. وإذا كان ضابطاً في الجيش.. أتعمد تذكيره بهزيمة الجيش أمام حفنة من جنود إسرائيل.. فيندفع ثائراً ويقول ما عنده من أسرار الاستحكامات والتدريبات.. والأسلحة الحديثة التي وصلت ويتدربون عليها.. وأيضاً دور الخبراء السوفييت في إدارة بعض النواحي الفنية في الجيش المصري.

وفي النهاية - طمأنني ضابط المخابرات الإسرائيلي أنني أصبحت جاهزاً للعمل في مصر بما لدي من خبرة ودراية كبيرة بعد هذه الدورات التدريبية المكثفة. وأخبرني بأن راتبي الشهري ابتداء من الآن هو ٣٠٠ دولار أمريكي عدا المبالغ الأخرى التي ستخصص لي بعد كل خطاب أرسله اليهم به معلومات مفيدة. وقال إبراهيم أن بإمكاني الحصول على ألف دولار شهرياً - بخلاف الراتب -.. وهذا يتوقف على أهمية المعلومات التي أرسلها لهم «مع العلم أن مرتب الموظف خريج الجامعة كان لا يزيد عن ١٨ جنيهاً». وطلب مني الاستعداد للعودة إلى مصر.. وإيهام أهلي وأصحابي بأنني كنت أعمل في تجارة السيارات في ألمانيا.. حتى لا تثير النقود الكثيرة التي معي أية شبهة.

وقبل أن يتركني لقضاء عدة أيام مع سيلفيا قبل سفري إلى مصر.. منحني ألف مارك وأعدت سيلفيا رحلة ممتعة إلى الجنوب الألماني حيث بحيرة كونستانس الواقعة على الحدود مع سويسرا والنمسا.. وأمضينا عدة أيام في «فريدر كسهافن» وتجولنا حتى وصلنا إلى حيث انتهى نهر الدانوب الشهير ومروراً بمدينة فريبورج في الغابة السوداء.

وفي شتو تجارت نزلنا بفندق «برات» واشتريت بعض الهدايا.. وركبت الطائرة مودعاً سيلفيا إلى روما ومن روما إلى القاهرة.

كان أفراد أسرتي في انتظاري والسعادة تملأ وجوههم وهم يرون أعداد الحقائب التي معي محملة بالهدايا.

وفي الإسكندرية كان أول ما خطر ببالي الاتصال بنوسة.. فذهبت سريعاً إلى صديقي حاتم ورجوته أن يطلعني على أخبارها.. وعندما تبين لي أنه لا يعرف أكثر مما ذكره لي في رسالته قررت نسيانها.. والعمل فوراً فيما جئت من أجله.

بدأت أبحث عن صداقات جديدة وأوطد علاقاتي ببعض الموظفين في ميناء الإسكندرية.. وكنت أسجل المعلومات التي أحصل عليها أولاً بأول وأرسلها في الحال إلى العنوان الذي طلبوا مني مكاتبتهم عليه في لندن «مستر طومبسون ص. ب. ٣٢٩».. وكانت رسائلي لا تحوي معلومات عسكرية فقط.. بل حوت أخباراً اقتصادية عن رسو عدد من السفن العملاقة تحمل بداخلها آلاف الأطنان من الحبوب أو السكر..

كانت حركة الميناء من وارد وصادر تقريباً مرسلة إليهم في لندن.. وأصبح العمل بالنسبة لي بعد مرور عدة أشهر من أسهل ما يمكن. فعلاقاتي تعددت وتشعبت.. وتجيئني المعلومات دون جهد يذكر من خلال الأحاديث العادية التي لم تكن تحمل ما يدل على اهتمامي.

وذات يوم في نوفمبر ١٩٧١ جاءتني رسالة غريبة بواسطة الراديو.. كانت الرسالة تحمل تحذيراً واضحاً.. ومخيفاً في ذات الوقت:

«لا تقرأ في الصحف المصرية – مطلقاً – أية أخبار تتعلق بإلقاء القبض على جواسيس لإسرائيل. هذا أمر وعليك تنفيذه».

انزعجت كثيراً لهذه الرسالة التي لفتت انتباهي وأثارت قلقي.. ودفعتني رغماً عني لقراءة كل الصحف المصرية صباح كل يوم، حتى قرأت خبراً عن سقوط جاسوس مصري يعمل لصالح إسرائيل.. فاضطربت حياتي وامتنعت عن الخروج من المنزل لعدة أيام.

كانت الرسالة تأتيني عن طريق الراديو - مكررة - حتى بعدما قرأت الخبر - فيحل الرعب بي وتهرب المغامرة.. وكانت أية أصوات أقدام تصعد السلم تصيب أطرافي بالشلل. فكتبت رسالة تحمل ما أشعر به وتترجم معاناتي.. وفوجئت بالرد يصلني سريعاً بالراديو يطلب مني السفر إلى لندن في أسرع وقت. وبينما كنت أعد حقيبتي.. دق جرس التليفون وكانت على الطرف الآخر.. نوسة!!

مرت ساعة واحدة وكنت أجلس في أحد أركان كافيتريا فندق فلسطين.. وكان اللقاء مدهشاً.. وظل كفها الصغير بين كفي لفترة طويلة. وعندما همست باسمي طلبت منها ألا تتكلم.. أردت فقط أن أنظر لوجهها الذي حرمت منه لمدة عامين.. ومن داخلي كنت أرقص طرباً وأجريت مقارنة سريعة بينها وبين سيلفيا وكريستينا وكاتيا وغيرهن.. إنها أجمل منهن جميعاً.. بل تكفي ابتسامتها لتبدل مذاق حياتي وتضفي عليها البهجة.. إن مذاقها لعجيب.. عجيب والجنس معها له طعم ونكهة لا يوجدان في أية امرأة أخرى قط.

وفي آخر يناير ١٩٧٢ كنت في لندن.. وكان في استقبالي ضابط المخابرات الإسرائيلية المسؤول عني - إبراهيم يعقوب - وبصحبته ضابط آخر اسمه «بوب» في السفارة الإسرائيلية في لندن. وطلبا مني أن أهدأ وألا أتوتر لهذا الحد..

وقالا لي: إذا كانت الصحف المصرية قد نشرت أخباراً عن إلقاء القبض على جاسوس يعمل لصالح الموساد فهذا ليس سوى دعاية مضادة وأسلوب تخويف لجواسيسهم في مصر. ومثل هذه الشائعات معروفة لديهم وأسلوب قديم تستخدمه أجهزة المخابرات كل مدة.

لم أهدأ رغم ما قالاه لي. فرأى إبراهيم أن يوكل إلي عملاً آخر في لندن. وكان عملي منصباً علي التعرف إلى المصريين الموجودين في لندن أو القادمين الجدد. لعلي أنجح في تجنيد أحدهم وأتقاضى مكافأة ضخمة؛ووجد إبراهيم أنني بحاجة إلى تمرين فأخذني إلى إحدى الشقق. وجرى تدريبي على العمل الجديد في اصطياد مصري يصلح جاسوساً لإسرائيل.

وبعد دورة مكثفة من إبراهيم. جاء بوب هو الآخر لتدريبي على كيفية العيش في لندن. وتقصى أماكن تجمع المصريين كالفنادق والمقاهي والمطاعم المختلفة. وكانت لندن حينئذ تستقبل مئات الشباب من مصر بدعوى الدراسة أو السياحة أو العلاج.

وفشلت في مهمتي.. فظروف النكسة كانت مختلفة وغالبية المصريين الذين يسافرون إلى لندن كانوا على درجة من الوعي والثقة في النظام السياسي الجديد. خاصة بعد تصفية مراكز القوى وانشغال الرأي العام بوعود الرئيس السادات. ولكن في مصر كانت مساحة الوعي السياسي تختلف.

أدرك بوب بحاسته كضابط مخابرات أنني لم أنجح في لندن. ولأنني أيضاً أدركت ذلك بعد أن فشلت كل محاولاتي في الإيقاع بمصري واحد. فقد عرضت على بوب أن أسافر إلى مصر فالمجال هناك أفضل بالنسبة لي. وبعد عدة أيام وصل إبراهيم من بون ووافق دون تردد على عودتي إلى مصر. وأعطاني راتبي المتراكم بخلاف مكافآتي وكانت ٤٥٠٠ دولار.

ولكني بعدما عرفت قيمتي لديهم. وبأن الموساد لا تبخل على جواسيسها. اعترضت قائلاً إن المكافأة هزيلة جداً. وأن قيمة المعلومات التي قمت بإرسالها تزيد عن هذا المبلغ كثيراً. ووصفني إبراهيم بأنني أصبحت لحوحاً. فطلبت منه زيادة المبلغ إلى ٧٠٠٠ دولار.. وإضافة مبلغ آخر قدره ٥٠٠٠ دولار كمقدم إيجار شقة أستطيع من خلالها أن أمارس عملي في التجسس بحرية وقد كان.

النفس الخامس

عدت إلى الإسكندرية بأكثر من ١٩٠٠٠ دولار. مبلغ كبير لا شك في ذلك الوقت واستأجرت شقة في شارع خالد بن الوليد في ميامي. وقررت أن أستغل نشاطي التجسسي لجمع أكبر عائد مادي ممكن.

لقد عشت حياتي السابقة محروماً تلسعني رغبة الاحتياج والعوز لذلك كنت أضع تقييماً لكل معلومة أرسلها اليهم وأحسب مستحقاتي وأغالي في الثمن، ثمن أعصابي التي

تحترق كل لحظة وعمري الذي أضعه رهن أتفه معلومة أدونها.

استمرأت طعم الخيانة شيئاً فشيئاً وبعدما بعت أمن وطني وأهلي، لم أجد غضاضة في أن أخون رجلاً آخر لا أعرفه لكنه امتلك ما عجزت عن امتلاكه. فإنني الآن أصبحت قادراً على امتلاك أشياء ليست في حوزتي وأهمها نوسة.. التي جاءتني جرياً تفند لي أسباب زواجها.. فلم أهتم.. (!!) لقد عانقتني في شقة ميامي بمجرد أن فتحت حقيبة هداياها العامرة. وبعد دقائق فتحت باب حجرة النوم ونادتني من الداخل وعندما دخلت عليها كانت بلا شيء.. أي شيء.. بلا حياء أو خوف أو.. ملابس.. إنها أيضاً تدفع الثمن مثلي تماماً.. لا.. إنها تخون زوجها أما أنا.. فأخون وطني كله..!!

تحولت الشقة إلى وكر للخيانة.. وللملذات، خمر.. وحشيش.. ونساء ساقطات.. ورجال ربطتني بهم صداقات مفتعلة، وعندما كان ينشط مفعول الخمر والنساء.. لا تدري العقول ماذا تقول؟!!.

هكذا كانت الأيام تجري سريعاً.. والمعلومات تتدفق في سلاسة.. والثمن أقبضه أنا كما أريد.. وبالسعر الذي أحدده..!!

في تلك الأثناء.. لم تكن المخابرات المصرية غافلة عما يحدث في شقة ميامي التي ذاع صيتها.. وفاحت منها رائحة الخيانة تعلن عن الجرم صراحة.

واختارت المخابرات المصرية أحد مرشديها الذي يعمل موظفاً بشركة الملاحة البحرية – واسمه ممدوح – ليقتحم هذا الوكر ويرصد ما به. فكان ينقل مشاهداته إلى العميد حسن واصف – المسؤول عن مكتب المخابرات في الإسكندرية – وفي نفس الوقت وضع تليفون فؤاد تحت المراقبة وبذلك أصبح الجاسوس تحت سيطرة جهاز المخابرات وتحركاته مرصودة تماماً دون أن يعرف.

ويكمل الجاسوس سرد قصة الإيقاع به قائلاً:

جاءتني بطريق الراديو رسالة تطلب مني السفر إلى روما لمقابلة دانيال وهو ضابط

المخابرات الإسرائيلي في السفارة الإسرائيلية هناك وبالفعل أعددت الكثير من التقارير والمعلومات التي حصلت عليها وسافرت بها إلى روما وكان اللقاء مثيراً للغاية.. إذ كان الضابط سخياً جداً ومنحني ما طلبته من مقابل بل وزاد عليه ألفاً وخمسمائة دولار وعدت إلى مصر بالثروة التي حصلت عليها مقابل بضع معلومات استقيها من أفواه «المساطيل» واشتريها أحياناً بالهدايا.

وبعد عودتي بحوالي أسبوع واحد.. كانت نوسة عندي بالشقة تتسلم هداياها وتسلمنى جسدها الرائع، فنمت مرهقاً بعدما سجلت بعض المعلومات التي وصلتني على ورقة وضعتها بجانب السرير ولم أقم بكتابتها بالطريقة السرية التي دربت عليها.

وعند الفجر. دق جرس الباب دقات خفيفة فظننتني أحلم. واستيقظت فجأة على يد تهزني فشلني الذعر لأجد الحجرة كلها قد زرعت برجال لا أعرفهم.

تناول أحدهم الورقة المسودة وفتشوا الشقة جيداً.. وعثروا على كل الأدلة والأدوات التي تؤكد أنني جاسوس.. خائن.

اصطحبوني إلى القاهرة وأخضعت لتحقيق مطول لعدة أيام.. واكتشفت أنني كم كنت واهماً.. فتصرفاتي كلها كانت مكشوفة. وحركاتي مرصودة. وخطاباتي مقروءة. حتى زيارتي إلى روما ولقاءاتي كانت بالصوت والصورة لدى المخابرات المصرية.

اعترفت في الحال بكل شيء دون إكراه. فالأدلة كانت كلها ضدي ولا تترك لي المجال لكي أنكر ووجهت إلى النيابة العسكرية اتهاماتها الآتية:

السعي لدى دول معادية «إسرائيل» لمعاونتها في عملياتها الحربية.

الحصول على مقابل مادي بقصد ارتكاب عمل ضار بالمصلحة القومية وهو إفشاء أسرار البلاد.

الحصول على أسرار الدفاع عن البلاد وتسليمها لدولة أجنبية معادية وهي إسرائيل.

لقد اعترفت بكل شيء وبرغم الاحتقار الذي أشعر به تجاه نفسي..إلا أنني أعترف

بصراحة بأن حبي لتلك المومس - نوسة - هو الذي دفعني للخيانة.. خيانة وطني!!
انتهت مذكرات الجاسوس فؤاد حمودة.. ولكن، ماذا حدث له بعد ذلك؟

تشكلت محكمة عسكرية عليا لمحاكمته. وبعد عدة جلسات أصدرت حكمها بإعدامه شنقاً.. وصدق رئيس الجمهورية على الحكم وأحيل للتنفيذ في سجن الاستئناف بالقاهرة..

وفي صباح السابع عشر من يناير ١٩٧٣.. كان يوم تنفيذ الحكم.. حيث سيق المتهم إلى غرفة الشنق.. يجرجره جنديان.. ويصرخ قائلاً: أنا بريء.. بريء.. ثم يصرخ ثانية: إعدموها معايا.. اعدموا نوسة.. اعدموها.

«وقف إمام السجن ومأمور التنفيذ وعشماوي في انتظار وصول الخائن من زنزانته.. ولكن محاميه اقتحم المكان فجأة.. وبيده وثيقة رسمية تفيد أن موكله «مجنون» وهو غير مسؤول عن تصرفاته.. ويطالب بوقف تنفيذ الحكم كما ينص القانون.. وبهذه الحيلة.. أفلت الخائن من الإعدام لمدة أسبوعين فقط.. فقد رفضت المحكممة الاستشكال القانوني الذي تقدم به المحامي. وسيق المتهم مرة ثانية إلى غرفة الإعدام حيث أعدت المشنقة لاستقباله، وقام مأمور التنفيذ العميد بدر الدين الماحي بسؤاله عن آخر طلب له في حياته.. فطلب سيجارة.. وأشعلها له المأمور وحبل المشنقة حول عنقه. وبعد أن سحب النفس الخامس.. انفتحت فجأة طاقة جهنم تحت قدميه، وتدلى جسده العفن الذي تبرأ منه أهله.. كما تبرأت منه ديدان الأرض.

***

هبة سليم..

ملكة الجاسوسية المتوجة..!!

منذ أن كتب الأستاذ صالح مرسي قصة «عبلة كامل» في فيلم «الصعود إلى الهاوية» وصورة هذه الخائنة مرتسمة بخيالنا.. وحفظنا تفاصيل تجنيدها وخيانتها حتى سقطت في قبضة المخابرات المصرية هي وخطيبها.

والجديد هنا في قصة عبلة كامل.. أو «هبة سليم» الحقيقية.. معلومات جديدة تماماً أعلن عنها مؤخراً.. وكانت خافية حتى بضع سنوات خلت.. كشفت النقاب عن شريكها الضابط العسكري المقدم فاروق الفقي.

إنها قصة مثيرة وعجيبة.. قصة أول جاسوسة عربية استُغلت أديولوجياً.. وعملت لصالح الموساد ليس لأجل المال أو الجاه أو أي شيء سوى الوهم.. الوهم فقط..

فكانت بذلك اول حالة شاذة لم تماثلها حالة أخرى من قبل.. أو بعد..!!

حقائق ثابتة

لم تدخر المخابرات الاسرائيلية وسيلة عند تجنيدها للجواسيس إلا وجربتها. وأيضاً - لم تعتمد على فئة معينة من الخونة.. بل جندت كل من صادفها منهم واستسهل بيع الوطن بثمن بخس وبأموال.. حرام، وأشهر هؤلاء على الإطلاق - هبة عبد الرحمن سليم عامر - وخطيبها المقدم فاروق عبدالحميد الفقي.

إنها إحدى أشرس المعارك بين المخابرات الحربية المصرية والمخابرات الإسرائيلية. معركة أديرت بذكاء شديد وبسرية مطلقة، انتصرت فيها المخابرات المصرية في النهاية. وأفقدت العدو توازنه، وبرهنت على يقظة هؤلاء الأبطال الذين يحاربون في الخفاء من اجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته.

لقد بكت جولدا مائير حزناً على مصير هبة التي وصفتها بأنها «**قدمت لإسرائيل أكثر مما قدم زعماء إسرائيل**» وعندما جاء هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ليرجو السادات **تخفيف الحكم عليها**.. **كانت هبة** تقبع في زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد حانت بزيارة الوزير الامريكي.

لقد تنبه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة في طريق السلام، فأمر بإعدامها فوراً، ليسدل الستار على قصة الجاسوسة التي باعت مصر ليس من أجل المال أو الجنس أو العقيدة.. إنما لأجل الوهم الذي سيطر على عقلها وصور لها بأن إسرائيل دولة عظمى لن يقهرها العرب. وجيشها من المستحيل زحزحته عن شبر واحد من سيناء، وذلك لأن العرب أمة متكاسلة أدمنت الذل والفشل، فتفرقت صفوفهم ووهنت قوتهم..إلى الأبد.

آمنت هبة بكل هذه الخرافات، ولم يستطع والدها - وكيل الوزارة بالتربية والتعليم - أن يمحو أوهامها أو يصحح لها خطأ هذه المفاهيم.

ولأنها تعيش في حي المهندسين الراقي وتحمل كارنيه عضوية في نادي «الجزيرة» - أشهر نوادي القاهرة - فقد اندمجت في وسط شبابي لا تثقل عقله سوى أحاديث الموضة والمغامرات، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ الفادحة والمؤلمة للجميع.. إلا أن هبة انخرطت في «جروب» من شلة أولاد الذوات تسعى خلف أخبار الهيبز، وملابس الكاوبوي وأغاني ألفيس بريسلي.

وعندما حصلت على الثانوية العامة ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي، فالغالبية العظمى من شباب النادي أبناء الهاي لايف، لا يدخلون الجامعات المصرية ويفضلون جامعات أوروبا المتحضرة.

وأمام ضغوط الفتاة الجميلة وحبات لؤلؤ مترقرقة سقطت على خديها، وافق الأب وهو يلعن هذا الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ولا بد من مسايرة عاداته وتقاليده.

وفي باريس لم تنبهر الفتاة كثيراً، فالحرية المطلقة التي اعتادتها في مصر كانت مقدمة ممتازة للحياة والتحرر في عاصمة النور.

ولأنها درست الفرنسية منذ طفولتها فقد كان من السهل عليها أيضاً أن تتأقلم بسرعة مع هذا الخليط العجيب من البشر. ففي الجامعة كانت تختلف كل الصور عما ترسب بمخيلتها.. إنها الحرية بمعناها الحقيقي، الحرية في القول والتعبير.. وفي اختيار المواد الدراسية.. بل وفي مواعيد الامتحان أيضاً، فضلاً عن حرية العلاقة بين الجنسين التي عادة لا تقتصر على الحياة الجامعية فحسب.. بل تمتد خارجها في شمولية ممتزجة باندفاع الشباب والاحتفاء بالحياة.

جمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهود الذي تعجب لكونها مصرية جريئة لا تلتفت إلى الخلف، وتنطلق في شراهة تمتص رحيق الحرية.. ولا تهتم بحالة الحرب التي تخيم على بلدها، وتهيمن على الحياة بها.

لقد أعلنت صراحة في شقة البولندية أنها تكره الحرب، وتتمنى لو أن السلام عم المنطقة. وفي زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية في إسرائيل، وأسلوب الحياة في «الكيبوتز» وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشاً آدمية كما يصورهم الإعلام العربي، بل هم أناس على درجة عالية من التحضر والديموقراطية.

وعلى مدار لقاءات طويلة مع الشباب اليهودي والامتزاج بهم بدعوى الحرية التي تشمل الفكر والسلوك.. استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية. أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جداً وأقوى من كل العرب. وأن أمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل في يوم من الأيام بالسلاح الشرقي.. ففي ذلك هزيمة لها.

آمنت هبة أيضاً بأن العرب يتكلمون أكثر مما يعملون. وقادتها هذه النتائج إلى حقد دفين على العرب الذين لا يريدون استغلال فرصة وجود إسرائيل بينهم ليتعلموا كيفية اختزال الشعارات إلى فعل حقيقي. وأول ما يبدأون به نبذ نظم الحكم التي تقوم على ديموقراطية كاذبة وعبادة للحاكم.

وثقت هبة أيضاً في أحاديث ضابط الموساد الذي التقت به في شقة صديقتها.. وأوهمها باستحالة أن ينتصر العرب على إسرائيل وهم على خلاف دائم وتمزق خطير، في حين تلقى إسرائيل الدعم اللازم في جميع المجالات من أوروبا وأمريكا.

هكذا تجمعت لديها رؤية أيديولوجية باهتة، تشكلت بمقتضاها اعتقاداتها الخاطئة، التي قذفت بها إلى الهاوية.

الشك المجنون

كانت هذه الأفكار والمعتقدات التي اقتنعت بها الفتاة سبباً رئيسياً لتجنيدها للعمل لصالح الموساد.. دون إغراءات مادية أو عاطفية أثرت فيها، مع ثقة أكيدة في قدرة إسرائيل على حماية «أصدقائها» وإنقاذهم من أي خطر يتعرضون له في أي مكان في العالم.

هكذا عاشت الفتاة أحلام الوهم والبطولة، وأرادت أن تقدم خدماتها لإسرائيل طواعية ولكن.. كيف؟ الحياة في أوروبا أنستها هواء الوطن..وأغاني عبد الحليم حافظ الوطنية..وبرج القاهرة الذي بناه عبد الناصر من أموال المخابرات الأمريكية التي سخرتها لاغتياله.

فقط تذكرت فجأة المقدم فاروق الفقي الذي كان يطاردها في نادي الجزيرة، ولا يكف عن تحين الفرصة للانفراد بها..وإظهار إعجابه الشديد ورغبته الملحة في الارتباط بها. لقد ملت كثيراً مطارداته لها من قبل في النادي وخارج النادي، وكادت يوماً ما أن تنفجر فيه غيظاً في التليفون.. وذلك عندما تلاحقت أنفاسه اضطراباً وهو يرجوها أن تحس به. مئات المرات قال لها: «أعبدك.. أحبك.. أهواك يا صغيرتي». ولكنها كانت قاسية عنيفة في صده.

تذكرت هبة هذا الضابط الولهان، وتذكرت وظيفته الهامة في مكان حساس في القوات المسلحة المصرية، وعندما أخبرت ضابط الموساد عنه..كاد أن يطير بها فرحاً، ورسم لها خطة اصطياده.

وفي أول أجازة لها بمصر.. كانت مهمتها الأساسية تنحصر في تجنيده.. وبأي ثمن، وكان الثمن خطبتها له. وفرح الضابط العاشق بعروسه الرائعة التي فاز بها أخيراً، وبدأت تدريجياً تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية.. وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التي وصلت من روسيا.. فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم في أدق الأسرار العسكرية، ويجيء بها بالخرائط زيادة في شرح التفاصيل.

أرسلت هبة سليم على الفور بعدة خطابات إلى باريس بما لديها من معلومات ولما تبينت إسرائيل خطورة وصحة ما تبلغه هذه الفتاة لهم.. اهتموا بها اهتماماً فوق الوصف. وبدأوا في توجيهها إلى الأهم في تسليح ومواقع القوات المسلحة.. وبالذات قواعد الصواريخ والخطط المستقبلية لإقامتها، والمواقع التبادلية المقترحة.

وسافرت هبة إلى باريس مرة ثانية تحمل بحقيبتها عدة صفحات.. دونت بها معلومات غاية في السرية والأهمية للدرجة التي حيرت المخابرات الاسرائيلية. فماذا سيقدمون مكافأة للفتاة الصديقة؟

سؤال كانت إجابته عشرة آلاف فرنك فرنسي حملها ضابط الموساد إلى الفتاة.. مع وعد بمبالغ أكبر وهدايا ثمينة وحياة رغدة في باريس. رفضت هبة النقود بشدة وقبلت فقط السفر إلى القاهرة على نفقة الموساد بعد ثلاثة أشهر من إقامتها بباريس. كانت الوعود تنتظرها في حالة ما إذا جندت خطيبها ليمدهم بالأسرار العسكرية التي تمكنهم من اكتشاف نوايا المصريين تجاههم.

لم يكن المقدم فاروق الفقي بحاجة إلى التفكير في التراجع، إذ أن الحبيبة الرائعة هبة كانت تعشش بقلبه وتستحوذ على عقله.. ولم يعد يملك عقلاً ليفكر، بل يملك طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته. وعندما أخذها في سيارته الفيات ١٢٤ إلى صحراء الهرم.. كان خجولاً لفرط جرأتها معه، وأدعت بين ذراعيه أنها لم تصادف رجلاً قبله أبداً. وأبدت رغبتها في قضاء يوم كامل معه في شقته. ولم يصدق أذنيه. فهو قد ألح عليها كثيراً من قبل لكنها كانت ترفض بشدة. الآن تعرض عليه ذلك بحجة سفرها، وفي شقته

بالدقي تركت لعابه يسيل، وجعلته يلهث ضعفاً وتذللاً..

ولما ضمها إلى صدره في نهم ورغبة واقتربت شفتاه منها.. صدته في تمنع كاذب.. فاندفع اليها بشوق أكثر، ولملم جرأته كلها وأطبق على شفتيها يروي ظمأ ملهوفاً تلسعه موجات من ضهد أنوثتها. فأذاقته قبلة طويلة غمست بلذائذ من النشوة، وحمم من الرغبات، فطار عقله وبدا كطفل نشبث بأمه في لحظة الجوع، لكنها.. هيهات أن تمنحه كل ما يريد. فقد حجبت عنه رعشة الوطر وأحكمت قيدها حول رقبته فمشى يتبعها أينما سارت.. وسقط ضابط الجيش المصري في بئر الشهوة ووقّع وثيقة خيانته عارياً على صدرها، ليصير في النهاية عميلاً للموساد تمكن من تسريب وثائق وخرائط عسكرية.. موضحاً عليها منصات الصواريخ «سام ٦» المضادة للطائرات.. التي كانت القوات المسلحة تسعى ليلى نهار لنصبها لحماية مصر من غارات العمق الاسرائيلية.

لقد تلاحظ للقيادة العامة للقوات المسلحة ولجهازي المخابرات العامة والحربية، أن مواقع الصواريخ الجديد تدمر أولاً بأول بواسطة الطيران الإسرائيلي. حتى قبل أن يجف الأسمنت المسلح بها، وحدث خسائر جسيمة في الأرواح، وتعطيل في تقدم العمل وإنجاز الخطة التي وضعت لإقامة حائط الصواريخ المضادة للطائرات.

تزامنت الأحداث مع وصول معلومات لرجال المخابرات المصرية.. بوجود عميل «عسكري» قام بتسريب معلومات سرية جداً إلى إسرائيل. وبدأ شك مجنون في كل شخص ذي أهمية في القوات المسلحة، وفي مثل هذه الحالات لا يستثنى أحد بالمرة بدءاً من وزير الدفاع.

يقول السفير عيسى سراج الدين سفير مصر في كوبنهاجين، ووكيل وزارة الخارجية بعد ذلك:

«اتسعت دائرة الرقابة التليفزيونية والبريدية لتشمل دولاً كثيرة أخرى، مع رفع نسبة المراجعة والرقابة إلى مائة في المائة من الخطابات وغيرها، كل ذلك لمحاولة كشف الكيفية التي تصل بها هذه المعلومات إلى الخارج. كما بدأت رقابة قوية وصارمة على حياة

وتصرفات كل من تتداول أيديهم هذه المعلومات من القادة، وكانت رقابة لصيقة وكاملة. وقد تبينت طهارتهم ونقاءهم.

ثم أدخل موظفو مكاتبهم في دائرة الرقابة.. ومساعدوهم ومديرو مكاتبهم.. وكل من يحيط بهم مهما صغرت أو كبرت رتبته».

وفي تلك الأثناء كانت هبة سليم تعيش حياتها بالطول وبالعرض في باريس. وعرفت الخمر والتدخين وعاشت الحياة الاوروبية بكل تفاصيلها. وكانت تشعر في قرارة نفسها بأنها خلقت لتعيش في أوروبا، وتكره مجرد مرور خاطرة سريعة تذكرها بمصريتها.

لقد نزفت عروبتها نزفاً من شرايين حياتها، وتهللت بشراً عندما عرض عليها ضابط الموساد زيارة إسرائيل، فلم تكن لتصدق أبداً أنها مهمة إلى هذه الدرجة، ووصفت هي بنفسها تلك الرحلة قائلة: «طائرتان حربيتان رافقتا طائرتي كحارس شرف وتحية لي. وهذه إجراءات تكريمية لا تقدم أبداً إلا لرؤساء وملوك الدول الزائرين، حيث تقوم الطائرات المقاتلة بمرافقة طائرة الضيف حتى مطار الوصول.

وفي مطار تل أبيب كان ينتظرني عدد من الضباط اصطفوا بجوار سيارة ليموزين سوداء تقف أسفل جناح الطائرة، وعندما أدوا التحية "العسكرية لي تملكني شعور قوي بالزهو. واستقبلني بمكتبه مائير عاميت رئيس جهاز الموساد، وأقام لي حفل استقبال ضخماً ضم نخبة من كبار ضباط الموساد على رأسهم مايك هراري الأسطورة (٢)، وعندما عرضوا تلبية كل «أوامري»..

طلبت مقابلة جولدا مائير رئيسة الوزراء التي هزمت العرب ومرغت كرامتهم، ووجدت على مدخل مكتبها صفاً من عشرة جنرالات إسرائيليين أدوا لي التحية العسكرية.. وقابلتني مسز مائير ببشاشة ورقة وقدمتني اليهم قائلة: «إن هذه الآنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لها جميعاً مجتمعين».

وبعد عدة أيام عدت إلى باريس.. وكنت لا أصدق أن هذه الجنة «إسرائيل» يتربص بها العرب ليدمروها!!

وفي القاهرة.. كان البحث لا يزال جارياً على أوسع نطاق، والشكوك تحوم حول الجميع، إلى أن اكتشف أحد مراقبي الخطابات الأذكياء «من المخابرات المصرية» خطاباً عادياً مرسلاً إلى فتاة مصرية في باريس سطوره تفيض بالعواطف من حبيبها. لكن الذي لفت انتباه المراقب الذكي عبارة كتبها مرسل الخطاب تقول أنه قام بتركيب إيريال الراديو الذي عنده، ذلك أن عصر إيريال الراديو قد انتهى. إذن.. فالإيريال يخص جهازاً لاسلكياً للإرسال والاستقبال.

وانقلبت الدنيا في جهازي المخابرات الحربية والمخابرات العامة وعند ضباط البوليس الحربي، وتشكلت عدة لجان من أمهر رجال المخابرات، ومع كل لجنة وكيل نيابة ليصدر الأمر القانوني بفتح أي مسكن وتفتيشه. وكانت الأعصاب مشدودة حتى أعلى المستويات في انتظار نتائج اللجان، حتى عثروا على جهاز الإيريال فوق إحدى العمارات.. واتصل الضباط في الحال باللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية وأبلغوه باسم صاحب الشقة.. فقام بإبلاغ الفريق أول أحمد اسماعيل وزير الدفاع «قبل أن يصبح مشيراً» الذي قام بدوره بإبلاغ الرئيس السادات.

حيث تبين أن الشقة تخص المقدم **فاروق الفقي**، وكان يعمل وقتها مديراً لمكتب أحد القيادات الهامة في الجيش، وكان بحكم موقعه مطلعاً على أدق الأسرار العسكرية، فضلاً عن دوره الحيوي في منطقة سيناء

وكان الضابط الجاسوس أثناء ذلك في مهمة عسكرية بعيداً عن القاهرة.

وعندما اجتمع اللواء فؤاد نصار بقائدالضابط الخائن.. «قيل بعد ذلك أنه ضابط كبير له دور معروف في حرب أكتوبر واشتهر بخلافه مع الرئيس السادات حول الثغرة».. رفض القائد أن يتصور حدوث خيانة بين أحد ضباط مكتبه. خاصة وأن المقدم فاروق يعمل معه منذ تسع سنوات، بل وقرر أن يستقيل من منصبه إذا ما ظهر أن رئيس مكتبه جاسوس للموساد.

وعندما دخل الخائن إلى مكتبه.. كان اللواء حسن عبد الغني نائب مدير المخابرات الحربية ينتظره جالساً خلف مكتبه بوجه صارم وعينين قاسيتين فارتجف رعباً وقد جحظت عيناه وقال في الحال «**هو انت عرفتوا؟؟**».

وعندما ألقى القبض عليه استقال قائده على الفور، ولزم بيته حزيناً على خيانة فاروق والمعلومات الثمينة التي قدمها للعدو.

وفي التحقيق اعترف الضابط الخائن تفصيلياً بأن خطيبته جندته بعد قضاء ليلة حمراء معها.. وأنه رغم إطلاعه على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنها ستفيد العدو.

وعند تفتيش شقته أمكن العثور على جهاز اللاسلكي المتطور الذي يبث من خلاله رسائله، وكذا جهاز الراديو ونوتة الشفرة، والحبر السري الذي كان بزجاجة دواء للسعال. ضبطت أيضاً عدة صفحات تشكل مسودة بمعلومات هامة جداً معدة للبث، ووجدت خرائط عسكرية بالغة السرية لأحشاء الجيش المصري وشرايينه، تضم مواقع القواعد الجوية والممرات والرادارات والصواريخ ومرابض الدفاعات الهامة.

وفي سرية تامة.. قدم سريعاً للمحاكمة العسكرية التي أدانته بالإعدام رمياً بالرصاص.. واستولى عليه ندم شديد عندما أخبروه بأنه تسبب في مقتل العديد من العسكريين من زملائه من جراء الغارات الاسرائيلية. وأخذوه في جولة ليرى بعينه نتائج تجسسه. فأبدى استعداده مرات عديدة لأن يقوم بأي عمل يأمرونه به.

ووجدوا – بعد دراسة الأمر بعناية – أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقة الكاملة التي يضعها الاسرائيليون في هذا الثنائي. وذلك بأن يستمر في نشاطه كالمعتاد خاصة والفتاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

وفي خطة بارعة من مخابراتنا الحربية، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجال المخابرات المصرية تتولى «إدارة» الجاسوس وتوجيهه، وإرسال الرسائل بواسطة جهاز اللاسلكي الذي أحضرته له الفتاة ودربته عليه. وكانت المعلومات التي ترسل هي بالطبع من صنع المخابرات الحربية، وتم توظيفها

بدقة متناهية في تحقيق المخطط للخداع، حيث كانت حرب أكتوبر قد اقتربت، وهذه هي إحدى العمليات الرئيسية للخداع التي ستترتب عليها أمور استراتيجية مهمة بعد ذلك.

لقد كان من الضروري الإبقاء على هبة في باريس والتعامل معها بواسطة الضابط العاشق، واستمر الاتصال معها بعد القبض عليه لمدة شهرين، ولما استشعرت القيادة العامة أن الأمر أخذ كفايته.. وأن القيادة الإسرائيلية قد وثقت بخطة الخداع المصرية وابتلعت الطعم، تقرر استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء.. لكي لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل.

وفي اجتماع موسع.. وضعت خطة القبض على هبة.. وعهد إلى اللواء حسن عبد الغني ومعه ضابط آخر بالتوجه إلى ليبيا لمقابلة والدها في طرابلس حيث كان يشغل وظيفة كبيرة هناك. وعرفاه على شخصيتهما وشرحا له أن ابنته هبة التي تدرس في باريس تورطت في عملية اختطاف طائرة مع منظمة فلسطينية، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها.. وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم توريطها، ولمنع الزج باسم مصر في مثل هذه العمليات الارهابية. وطلبا منه أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته حيث أنه مصاب بذبحة صدرية.

أرسل الوالد برقية عاجلة لابنته.. فجاء ردها سريعاً ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابلس إلى باريس.. حيث إنها حجزت له في أكبر المستشفيات هناك وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف في المطار.. وأن جميع الترتيبات للمحافظة على صحته قد تم اتخاذها.

ولكي لا تترك المخابرات المصرية ثغرة واحدة قد تكشف الخطة بأكملها.. فقد تم إبلاغ السلطات الليبية بالقصة الحقيقية، فتعاونت بإخلاص مع الضابطين من أجل اعتقال الجاسوسة المصرية. وتم حجز غرفة في مستشفى طرابلس وإفهام الأطباء المسؤولين مهمتهم وما سيقومون به بالضبط.

وبعدما أرسل والدها رداً بعدم استطاعته السفر إلى باريس لصعوبة حالته.. صح ما توقعه الضابطان، إذ حضر شخصان من باريس للتأكد من صحة البرقية وخطورة

المرض، وسارت الخطة كما هو مرسوم لها، وذهب الاسرائيليان إلى المستشفى وتأكدا من الخبر، فاتصلا في الحال بالفتاة التي ركبت الطائرة الليبية في اليوم التالي إلى طرابلس. وعلى سلم الطائرة عندما نزلت هبة عدة درجات كان الضابطان المصريان في انتظارها، وصحباها إلى حيث تقف الطائرة المصرية على بعد عدة أمتار من الطائرة الليبية.. فسألتهما:

إحنا رايحين فين؟

فرد أحدهما:

المقدم فاروق عايز يشوفك.

فقالت:

هو فين؟.

فقال لها:

في القاهرة.

صمتت برهة ثم سألت:

أمال إنتم مين؟

فقال اللواء حسن عبد الغني:

إحنا المخابرات المصرية.

وعندما أوشكت أن تسقط على الأرض.. أمسكا بها وحملاها حملاً إلى الطائرة التي أقلعت في الحال، بعد أن تأخرت ساعة عن موعد إقلاعها في انتظار الطائرة القادمة من باريس بالهدية الغالية.

لقد تعاونت شرطة المطار الليبي في تأمين انتقال الفتاة لعدة أمتار حيث تقف الطائرة المصرية..وذلك تحسباً من وجود مراقب أو أكثر صاحب الفتاة في رحلتها بالطائرة من

باريس.. قد يقدم على قتل الفتاة قبل أن تكشف أسرار علاقتها بالموساد.

وبلا شك.. فاعتقال الفتاة بهذا الأسلوب الماهر جعلها تتساءل عن القيمة الحقيقية للوهم الذي عاشته مع الإسرائيليين. فقد تأكدت أنهم غير قادرين على حمايتها أو إنقاذها من حبل المشنقة. وهذا ما جعلها تعترف بكل شيء بسهولة بالتفصيل.. منذ أن بدأ التحقيق معها في الطائرة بعد إقلاعها مباشرة. وبعد أيام قليلة من اعتقالها تبين لها وللجميع عجز الإسرائيليين عن حماية إسرائيل نفسها وعدم قدرتهم على إنقاذها.

فقد جاءت حرب أكتوبر وتدمير خط بارليف بمثابة الصدمة التي أذهلت أمريكا قبل إسرائيل. فالخداع المصري كان على أعلى مستوى من الدقة والذكاء. وكانت الضربة صائبة عند أريكت العدو أشلته.. لولا المدد العسكري الأمريكي.. والأسلحة المتطورة.. والصواريخ السرية.. والمعونات.. وإرسال الطيارين والفنيين الأمريكان كمتطوعين.

لقد خسرت إسرائيل في ذلك الوقت من المعركة حوالي مائتي طائرة حربية. ولم تكن تلك الخسارة تهم القيادة الاسرائيلية بقدر ما خسرته من طيارين ذوي كفاءة عالية قتلوا في طائراتهم، أو انهارت أعصاب بعضهم ولم يعودوا صالحين للقتال. ولقد سبب سقوط الطائرات الاسرائيلية بالعشرات حالة من الرعب بعد عدة أيام من بدء المعركة.. إلى أن وصلت المعونات الامريكية لإسرائيل في شكل طيارين وفنيين ووسائل إعاقة وتشويش حديثة.

لا أحد يعرف

تبخرت أوهام الجاسوسة هبة سليم.. وأيقنت أنها كانت ضحية الوهم الذي سيطر على فكرها وسرى بشرايينها لمدة طويلة للدرجة التي ظنت أنها تعيش الواقع من خلاله.. لكن.. ها هي الحقائق تتضح بلا رتوش أو أكاذيب.

لقد حكم عليها بالإعدام شنقاً بعد محاكمة منصفة اعترفت صراحة أمامها بجريمتها.. وأبدت ندماً كبيراً على خيانتها. وتقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية لتخفيف العقوبة ولكن التماسها رفض.

وكانت تعيش أحلك أيامها بالسجن تنتظر تنفيذ الحكم.. عندما وصل هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي - اليهودي الديانة - لمقابلة الرئيس السادات في أسوان في أول زيارة له إلى مصر بعد حرب أكتوبر.. وحملته جولدا مائير رسالة إلى السادات ترجوه تخفيف الحكم على الفتاة. ومن المؤكد أن كيسنجر كان على استعداد لوضع ثقله كله وثقل دولته خلف هذا الطلب. وتنبه الرئيس السادات الذي يعلم بتفاصيل التحقيقات مع الفتاة وصدور الحكم بإعدامها.. إلى أنها ستصبح مشكلة كبيرة في طريق السلام. فنظر إلى كيسنجر قائلاً: «تخفيف حكم؟.. ولكنها أعدمت..!!».

دهش كيسنجر وسأل الرئيس: «متى..؟»

ودون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية قال السادات كلمة واحدة: «النهاردة».

وفعلاً.. تم تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في هبة سليم في اليوم نفسه في أحد سجون القاهرة.

أما الضابط العاشق - المقدم فاروق عبد الحميد الفقي - فقد استقال قائده من منصبه لأنه اعتبر نفسه مسؤولاً عنه بالكامل.

وعندما طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته، رفض بشدة وأمام إصرار القيادة على ضرورة سحب استقالته.. خاصة والحرب وشيكة..اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام في الضابط الخائن. ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية..وما يتبع في مثل هذه الأحوال.. فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع «الحربية» الذي عرض الأمر على الرئيس السادات «القائد الأعلى للقوات المسلحة» فوافق فوراً ودون تردد.

وعندما جاء وقت تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص في الضابط الخائن.. لا أحد يعرف ماذا كان شعور قائده وهو يتقدم ببطء.. يسترجع في شريط سريع تسع سنوات مرت عليهما في مكتب واحد.. تسع سنوات كان بعضها في سواد الليل.. وبعضها تتلألأ خلاله ومضات الأمل قادمة من بعيد.. الأمل في الانتصار على اليهود الخنازير القتلة

السفاحين.. وبينما كان يخطط لحرب أكتوبر كان بمكتبه هذا الخائن الذي باع الوطن والأمن وقتل بخيانته أبرياء..

لا أحد يعرف ماذا قال القائد له.. وماذا كان رد الضابط عليه.. لا أحد يعرف.

هل طلب منه أن ينطق بالشهادتين، وأن يطلب المغفرة من الله؟... لا أحد يعرف.

لكن المؤكد أنه أخرج مسدسه من جرابه.. وصوبه على رأس الضابط وأطلق طلقتني عليه كما تقضي التعليمات العسكرية.

* * *

لماذا أنقذها السادات من الإعدام.؟

انشراح موسى: الجاسوسة التي ضاجعت مسؤول الموساد في تل ابيب

فالجاسوس عندما يعشق امرأة يبث فيها سمومه رويداً رويداً.. فتموت.. أو قد تنقلب مثله إلى أفعى سامة.. عندئذ تكون سمومه مصلاً واقياً يقيها خطره الفتاك.. فتتوحش.. وتقوى لديها روح المغامرة.. وتقامر بحياتها لمرة واحدة فقط.

والمرأة.. عندما تعشق جاسوساً.. فإن حبها له قد يحوله - أحياناً - من ثعبان قاتل إلى قط أليف لا يستخدم مخالبه.. وربما منحه الثقة ليعمل بفاعلية أكثر.. تدعوها إلى مشاركته والدخول معه إلى وكر الجواسيس.

فالحبيبة التي صارت حية رقطاء.. تضحي - تأكيداً لحبها - بكل ثمين في سبيل حبيبها.

وفي عالم الجاسوسية.. من باعت الوطن في سبيل الحب.. ما عزّ عليها بيع أولادها.. أو قذفهم إلى وكر الثعابين..

وهذا ما فعلته نشراح بسبب الحب..!!!

أزمة لم تطلْ

في مدينة المنيا ولدت انشراح علي موسى عام ١٩٣٧ لأسرة متوسطة الحال.. وبرغم التقاليد المتزمتة في ذلك الوقت دخلت الفتاة الصعيدية المدرسة وواصلت تعليمها حتى حصلت على الشهادة الاعدادية عام ١٩٥١.

وبعد نجاحها بأيام قليلة أراد والدها مكافأتها فاصطحبها معه إلى القاهرة لحضور حفل عرس أحد أقاربه.

كانت انشراح ذات وجه مليح وعينان نجلاوان.. وجسد دبت به معالم الأنوثة

وخرطته خرطاً.. فبدت أكبر كثيراً من سنها.. مما لفت الأنظار اليها واخترقتها سهام الباحثين عن الجمال.. فكانت تقابل تلك النظرات بحياء فطري غلف ملامحها مما أزادها جمالاً فوق جمال.

وفي حفل العرس اصطدمت نظراتها البريئة بنظراته.. فتملكها الخجل وتوردت خدودها للسلع لذيذ أحست به يجتاح مشاعرها.. فيوقظها من رقدتها.. معلناً عن مولد مشاعر جديدة غزت عقلها وقلبها لأول مرة.

كان فتاها الذي حرك فيها دماء الأنثى هو إبراهيم سعيد شاهين ابن العريش المولود عام ١٩٢٩.. الذي ما غادر الحفل إلا وعرف عنها كل شيء. وبعد أيام قلائل فوجئت به يطرق باب بيتها في المنيا برفقته والده.. طارت انشراح من السعادة وحلقت بين السحب بخيالها تستطلع مستقبلها الهنيء.. فمنذ رأته في الحفل انغرس حبه بصدرها.. وباتت ليالي تحلم به وتترقب الليل لتسرح معه طويلاً.. وتطوف مع نظراته الحانية في عوالم الأمل.. والحبور..

وانزعجت الفتاة الصغيرة عندما اعترضت والدتها في أمر زواجها منه.. متحججة ببعد المسافة بين المنيا والعريش.. وبكت بحرقة وهي ترى أحلامها الوردية تكاد أن تحقق.. ثم سرعان ما تنهار في ذات الوقت.. دون أن تقدر على عمل شيء..

وأمام عيونها الصامتة.. سألها أبوها:

أتوافقين عليه يا ابنتي..؟

فكان في صمتها إجابتها..

وأعلنت الخطبة..

وفي أول حديث مع خطيبها صارحته بأنها أعجبت به مذ رأته في حفل القاهرة.. وازداد إعجابها به حينما سعى وراءها حتى المنيا ليطلب يدها.

وأكد لها الشاب الولهان أنه تمناها زوجة له منذ النظرة الأولى.. ويومها عاهد ربه ألا

تضيع منه أبداً..

وفي حفل أكثر من رائع انتقلت انشراح إلى بيت الزوجية في العريش.. تحفها السعادة بحبيبها الذي أيقظ فيها مشاعر دفينة لم تكن تدركها.. وأرسل إلى قلبها سهام الحب فأسلمت إليه نفسها.. وتدفقت موجات متلاحقة من الحب مع كل نبضة من نبضات قلبها الصغير.

كان إبراهيم شاهين يعمل كاتب حسابات بمكتب مديرية العمل بالعريش.. وهو أيضاً لم يحصل سوى على الإعدادية مثلها.. لذلك.. اتفق وانشراح على أن يواصل أولادهما تعليمهم حتى أعلى الشهادات العلمية.. وأصبح هذا الأمل هو هدفهما الذي يسعيان إليه ويعملان على تحقيقه مهما كانت الظروف.

ومرت بهما الشهور حلوة هنيئة تحفل بالبشاشة والانسجام.. فلم يكن إبراهيم يرى في الدنيا زهرة أجمل من وجه حبيبته.. ولا يسمع صوتاً أرق من صوتها.. ولا يظل عقله بمكانه كلما انفرد بها وهي ترقص له بملابسها الشفافة.. فهي تحب الرقص ويستهويها الجنس.. وهو يعشق هذا الجسد الذي يتلوى ويتثني أمامه عارياً.. وتحول الجنس عندهما كالهواء، ماتا لو لم يتعاطيانه كل يوم.. إنه يطلبه منها صراحة.. وتطلبه هي تدللاً، وبنظراتها فوران من الرغبة كالجحيم. وكانا إذا ما أظلتهما سحابة حزن فسريعاً ما تنقشع.. حتى اشتهر حبهما بين الأهل والأقارب وبدا قوياً عتياً لا يقطعه الملل أو يضعفه الكلل.

وفي أواخر عام ١٩٥٥ زرقا بمولودهما الأول «نبيل».. ثم جاء المولود الثاني محمد عام ١٩٥٦، ثم عادل في ١٩٥٨، فعظم حبه لها لأنها ملأت عليه الدنيا بهجة.. وملأت بيته بضجيج الأبناء الثلاثة.. وهكذا سارت بهما الحياة ترفل في أهازيج الفرح وأغاريد الوئام.

وفي عام ١٩٦٣ - وكما اتفقا من قبل - أرسلا بأولادهما إلى عمهم بالقاهرة ليواصلوا الدراسة هناك.. وليعيشوا حياة رغدة بعيداً عن مظاهرة البداوة وظروف الحياة الأقل حظاً من العاصمة.. وفي أكتوبر ١٩٦٦ ضبط إبراهيم يتلقى الرشوة وحبس ثلاثة أشهر..

خرج بعدها ليكتشف مدى قسوة الظروف التي تمر به.. والمعاناة الشديدة في السعي نحو تحقيق آماله في الارتقاء والثراء.

وذات يوم من أيام التاريخ المكفهرة - اجتاحت إسرائيل سيناء واحتلتها في يونيو ١٩٦٧.. وأغلقت فجأة أبواب السبل أمام السفر إلى القاهرة.. فتأزمت انشراح نفسياً قلقاً على أولادها.. وكانت كلما نامت تراهم في المنام يستغيثون بها فتصرخ وتستيقظ.. ويحتضنها الزوج الملتاع في حنان ويهدئ من روعها.. وإن كان هو الآخر لا يقل عنها قلقاً واشتياقاً لهم.

هكذا تظل انشراح تبكي معظم الليل والنهار حتى قارب عودها على الذبول.. وأوشك جمالها أن ينطفئ.. ووجد إبراهيم أن الحياة في العريش كما لو كانت في الأسر.. فالحزن يخيم على البيت الذي ما عرف إلا الضحك والفرح.. والمعيشة أضحت في أسوأ حال.. فمنذ الغزو وهو عاطل عن العمل لا يملك المال الذي يشتري به أبسط الأشياء.. كالشاي.. والشاي عند البدوي يعد من الضروريات الأساسية في حياته.. فاستعاض عنه إبراهيم بعشب بري يعرف باسم «المرمرية» له مذاق طيب.. وأصبحت المرمرية مشروباً مستقلاً في بيته بعدما كانت وريقاتها تضاف إلى الشاي كالنعناع.

وسط هذا المناخ كانت المخابرات الاسرائيلية تعمل بنشاط زائد.. وتسعى لتصيد العملاء بسبب الضغوط المعيشية الصعبة وظروف الاحتلال.. فالاحتلال الفجائي لسيناء وقع على سكانها كالصاعقة، فاختنقت نفوس الأهالي برغم اتساع مساحات الأرض والجبال.. ولكونهم ذوي تقاليد بدوية ومحبين للحركة والتجوال والتنقل، أحسوا بثقل الأمر ولم يطيقونه.. لكن الظروف التي وضعوا فيها اضطرتهم إلى محاولة تحملها لثقتهم أنها أزمة لن تطول. لكن ما كان يحز في نفوسهم هو تضييق الخناق عليهم في المعيشة والتنقل.. فكانت التصاريح التي يمنحها الحاكم العسكري الإسرائيلي لا تتم بسهولة.. وأصبح السفر إلى القاهرة يحتاج لمعجزة من السماء. فالتعنت في منح التصاريح بلغ منتهاه.. واشتدت عضات الغضب في الصدور.. إلى جانب آلام الجوع التي تنهش الأبدان وتجتث الصبر والقوة.

ضاقت الحياة باتساعها على إبراهيم وانشراح في العريش.. وخلا البيت من الطعام والشراب والسرور.. وخيمت قتامة سوداوية على نفسيهما.. فازدادا يأساً وشوقاً إلى الأبناء في العاصمة.. وأمام البكاء المستمر الذي تورمت له عينا انشراح.. اندفع ابراهيم إلى مكتب الحاكم العسكري يطلب تصريحاً له ولزوجته بالسفر إلى القاهرة.

ولما ماطلوه كثيراً بوعود كاذبة.. صرخ في وجه الضابط الاسرائيلي قائلاً إنه فقد عمله ودخله ولا يملك قوت يومه.. فطمأنه الضابط «أبو نعيم» ووعده بالنظر في أمر التصريح في أسرع وقت.. وبعد حديث طويل بينهما حاول ابراهيم خلاله التقرب إليه لإنجاز التصريح.. أمر له أبو نعيم بجوال من الدقيق وبعض أكياس الشاي والسكر.. فحملها فرحاً إلى زوجته وهو يزف اليها السفر إلى القاهرة عما قريب.

استبشرت انشراح خيراً وغمرتها السعادة بما جاءها به، وغاصت في أحلامها وتخيلاتها باللقاء الحميم مع فلذات أكبادها. لكن الأيام تمر وأبو نعيم يعد ولا ينفذ.. ويعود إبراهيم في كل مرة محبطاً.. لكنه كان يحمل معه دائماً أكياس المواد التموينية التي أصبحت هي المصدر الوحيد للإعاشة.. ولولاها لمات جوعاً هو وزوجته.

وذات صباح فوجئ بمن يستدعيه لمكتب أبو نعيم.. فذهب إليه في الحال وقدم له الشكر على الإعانة الدورية التي يمنحها له.. فأخبره الضابط بأن الحاكم العسكي وافق على منحه تصريح السفر هو وزوجته..

تهلل وجه ابراهيم بشراً وقبل ظهر يده شكراً لله.. فباغته أبو نعيم وقال له بأن موافقة الحاكم العسكري جاءت بشرط أن يكون متعاوناً ويأتيه بأسعار الفاكهة والخضروات في مصر.. والحالة الاقتصادية للبلد بواسطة أخيه الذي يعمل بالاستيراد والتصدير.

أجاب إبراهيم على الفور أن الشرط بسيط للغاية.. فبإمكانه القيام بهذه المسألة خير قيام.. وأضاف بأنه سيأتيهم بأسعار السلع الاستهلاكية والبقالة والسمك أيضاً.. ولو أنهم أرادوا أكثر من ذلك لفعل.

عندئذ.. وضحت الرؤية للضابط الإسرائيلي.. فقد نجح ابراهيم شاهين في الاختبار الأول.. وكان عليه أن يتصرف معه حسبما هو متبع.. ويحيله إلى الضابط المختص لإكمال المهمة.. فدوره ينحصر فقط في «الفرز» لا أكثر.

وبينما ابراهيم وانشراح يحتفلان بالأمل الجديد الذي راودهما طويلاً.. توقفت سيارة جيب أمام المنزل، وطلب منه جندي أن يرافقه إلى مكتب الأمن.. وهناك كان ينتظره ضابط يدعى «أبو يعقوب» بالغ في الاحتفاء به بدعوى أن أبا نعيم أوصاه به خيراً. فشكره ابراهيم وأثنى على أبو نعيم وامتد بينهما الحوار لوقت طويل.. استشف أبو يعقوب بحاسته أن ابراهيم يدرك ما يبتغيه منه.. فطلب منه أن يذهب معه إلى بئر سبع.. حيث المكتب الرئيسي للأمن المختص بالتعامل مع أبناء سيناء.

وفي بئر سبع استضافوه وأكرموه بكل السبل، ولوحوا له بإغراءات ما كان يحلم بمثلها يوماً.. نظير إغراقه بالنقود وتأمين حياته وذويه في العريش وافق إبراهيم على التعاون مع الإسرائيليين في جمع المعلومات عن مصر.. وتسلم - كدفعة أولى - ألف دولار في الوقت الذي لم يكن يملك فيه ثمن علبة سجائر.

لم تكن تلك الإغراءات أو التهديدات المغلفة هي وحدها السبب الأول في سقوطه.. لكن تشريح شخصيته يعطينا مؤشراً عن استعداده الفطري للخيانة.. فلا يمكن لشخص سويّ أن يستسهل بيع نفسه ووطنه هكذا بسهولة.. لمجرد منفعة مادية مؤقتة.. فالمؤكد أن خلايا الخيانة كانت قابعة بين أنسجته منذ ولادته.. وكان يجاهد كثيراً حتى وجد لها منفذاً فأخرجها.

ففي بئر سبع تغير المشهد.. إذ تحول ابراهيم شاهين من مواطن يسعى للحصول على تصريح بالسفر إلى القاهرة.. إلى جاسوس لإسرائيل وعيناً لها على وطنه.

تناقض شاسع بين الحالين يدعونا للبحث في تقلبات النفس البشرية التي لا يعلم سرها إلا خالقها..

أخضع الجاسوس الجديد لدورة تدريبية مكثفة تعلم أثناءها الكتابة بالحبر السري

وتظهير الرسائل.. ووسائل جمع المعلومات من الأهل والأصدقاء.. درب أيضاً على كيفية التمييز بين الطائرات والأسلحة المختلفة.. واجتاز العميل الدورة بنجاح أذهل مدربيه.. فأثنوا عليه ووعدوه بالثراء وبالمستقبل الرائع.. وبحمايته في القاهرة حتى وهو بين ذويه.. فعيونهم في كل مكان لا تكل.

دربوه أيضاً على كيفية بث الإشاعات وإطلاق النكات السياسية التي تسخر من الجيش والقيادة.. إلى جانب الاحتراز وامتلاك الحس الأمني العالي، ولقنوه شكل الاستجواب الذي سيتعرض له حال وصوله القاهرة من قبل أجهزة الأمن، وكيف ستكون إجاباته التي لا تثير الشكوك من حوله.

وعندما رجع إلى بيته محملاً بالهدايا لزوجته وأولاده.. دهشت انشراح وسألته عن مصدر النقود.. فهمس لها بأنه أرشد اليهود عن مخبأ فدائي مصري فكافأوه بألف دولار.. ووعدوه بمنحه التصريح خلال أيام.

بهتت الزوجة البائسة لأول وهلة.. ثم سرعان ما عانقت زوجها سعيدة بما جلبه لها.. وقالت له في امتنان:

كانوا سيمسكونه لا محالة.. إن عاجلاً أم آجلاً..

فسألها في خبث:

ألا يعد ذلك خيانة..؟

فغرت فاها وارتفع حاجباها في استنكار ودهشة وأجابته:

مستحيل.. كان غيرك سيبلغ عنه ويأخذ الألف دولار.. أنت ما فعلت إلا الصح.

غمغم ابراهيم كأنه مستاء مما فعل وأضاف:

لقد عاملوني بكرم شديد.. ووعدوني بالكثير بسبب إخلاصي.. وتعهدوا بحماية أهلي وأقاربي إذا ما تعاونت معهم في القاهرة..

صرخت انشراح في هلع:

تعاونت معهم في القاهرة..؟ يانهار اسود يا ابراهيم.. كيف..؟

وهي يغلق فمها بيده:

طلبوا مني حوافاتهم بأسعار الخضر والفاكهة في مصر نظير ٢٠٠ دولار لكل خطاب.
أذهلها المبلغ فسرحت بخيالها وألجمها الصمت ثم قالت له فيما يشبه الهمس:

أنا خائفة.

جذبها إلى صدره واحتضنها بقوة وأخذ يردد:

أنا لا أملك عملاً الآن وليس لي مورد رزق.. وبالمعلومات التافهة التي طلبوها سآخذ الكثير وسنعيش في مأمن من الفقر.. ثم إنني لست عسكرياً حتى أخاف على نفسي.. ولأنني رجل مدني فمعلوماتي ستكون هزيلة ولن تفيدهم بشيء.

وظل الثعبان ينفث السم الزعاف في أذني زوجته حتى هدأت.. وشمل المنزل سكون لا يقطعه الا صوت ارتطام الرغبة.. وتصادم جسدان يلهثان بفعل رعشات الشوق وحرارة اللقاء.

وبعدما هدأت الأنفاس وجف العرق.. وارتمت الأعضاء تتوسل الراحة.. لامست بخدها خده.. ولفح وجهه شعرها الكث الناعم الرطب.. وأعلنت المفاجأة التي شلت تفكيره.. وتركيزه أيضاً..

قالت له إنها لكي لا تكون قلقة خائفة.. يجب أن يطلعها على رسائله أولاً بأول.. وأن تقوم بشطب أية معلومات لا داع لإرسالها لهم.

ولما وافقها ابراهيم على الشرط النهائي لموافقتها.. نامت قريرة العين تتوسد ذراعه.. واستغرق هو في تفكير عميق.. بينما أنفاسها المنتظمة الرتيبة نشبه فحيح أفعى تتربص بفريستها.

أفضل تغطية

في ١٩ نوفمبر ١٩٦٧ وصل ابراهيم وانشراح إلى القاهرة بواسطة الصليب الأحمر الدولي.. فمنح سكناً مجانياً مؤقتاً في حي المطرية.. ثم أعيد إلى وظيفته من جديد بعدما نقلت محافظة سيناء مكاتبها من العريش إلى القاهرة.

وبعدما استقرت الأمور قليلاً.. انتقل ابراهيم إلى حي الأميرية المزدحم.. ومن خلال المحيطين به في العمل والمسكن..بدأ في جمع المعلومات وتصنيفها.. وكانت زوجته تساعده بتهيئة الجو الآمن لكتابة رسائله بالحبر السري.. وكثيراً ما كانت تعيد صياغة بعض الجمل بأسلوب أفضل.. وتكتب أيضاً حياتها إلى الموساد على أنها شريكة في العمل.. واعتاد ابراهيم أن يختتم رسائله بعبارة: «تحيا إسرائيل العظمى..موسى».

ولأجل التغطية اتجه إلى تجارة الملابس والأدوات الكهربائية.. وبواسطة المال والهدايا كان يتغيب كثيراً عن العمل غالبية أيام الأسبوع، ولشهور عديدة تواصلت الرسائل إلى روما مزدحمة بالأخبار.. مما حدا برجال الموساد إلى دعوته إلى روما لاستثمار هذا الثنائي الرائع في مهام أكثر أهمية..

وفي أغسطس ١٩٦٨ وتحت ستار التجارة لا أكثر.. أبحر الثعبان والحية إلى لبنان.. ومنها طارا إلى روما حيث التقيا بمندوب الموساد الذي سلمهما وثيقتي سفر إسرائيليتين باسم موسى عمر ودينا عمر.. وعلى طائرة شركة العال الاسرائيلية طارا إلى مطار اللد..

كان استقبالهما في إسرائيل بالغ الحفاوة والترحيب.. إذ عوملا معاملة كبار الزوار.. وأنزلا بفيلا خيالية في تل أبيب مكثا بها ثمانية أيام.. حصلا خلالها على دورة تدريبية مكثفة في تحديد أنواع الطائرات والأسلحة.. والتصوير الفوتوجرافي.. وجمع المعلومات.. ومنح ابراهيم رتبة عقيد في الجيش الاسرائيلي باسم موسى. أما انشراح فقد منحت رتبة ملازم أول باسم دينا.

وفي مقابلة مع أحد القيادات العليا في الموساد.. أكدت إنشراح على ضرورة زيادة المكافآت لاشتراكها في العمل يداً بيد مع ابراهيم.. ووصفت له صعوبة جمع المعلومات ما

لم يشتركا معاً في جمعها وتصنيفها.. وأفاضت في سرد العديد من الحيل التي تقوم بها لانتزاع المعلومات من العسكريين الذين صادقهم زوجها ويجيئون لمنزلهم.. ومن ذلك أنها تعلن بمرارة مدى كراهيتها للإسرائيليين وتنتظر يوم الانتقام منهم.. ولأنهم يتحدثون مع امرأة جميلة سرعان ما تنفك عقدة ألسنتهم.. وتخرج الأسرار منهم بسهولة.. خاصة والخمر تدغدغ الأعصاب وتذهب بالعقل.

ونظراً لأهمية المعلومات التي حصلوا عليها من خلال الجاسوس وزوجته.. فقد قرروا لهما مكافأة سخية وأغدقوا عليهما بآلاف الدولارات التي عادا بها إلى القاهرة.. حيث استغلا وجودهما وسط حي شعبي فقير في عمل الصداقات مع ذوي المراكز الحساسة من سكان الحي.. وإرسال كل ما يصل اليهما من معلومات إلى الموساد فوراً..

لقد برعا خلال حرب الاستنزاف - ١٩٦٧ - ١٩٧٠ - في التحليل والتصنيف، وتصوير المنشآت العسكرية أثناء رحلات للأسرة بالسيارة الجديدة فيات ١٢٤.

يقول الابن الأصغر عادل في حديث نشرته جريدة معاريف الإسرائيلية عام ١٩٩٧:

«لن أنسى ذلك اليوم الملعون من صيف ١٩٦٩ طيلة حياتي.. فقد استيقظت مبكراً على صوت همسات تنبعث من حجرة نوم والدي.. كان أبي وأمي مستغرقين في نقاش غريب..وكانت أمي تمسك في يدها حقيبة جلدية بينما كان أبي يحاول إدخال كاميرا إلى داخلها لم أر مثلها من قبل في ذلك الحين.

كانت أمي غاية في العصبية وقالت له: لا ليس كذلك.. هكذا سيرون الكاميرا. فأخرج أبي الكاميرا وأدخلها مرات ومرات إلى الحقيبة.. فجلست أنظر اليهما وهما يتناقشان.. ثم قال لي أبي: نحن ذاهبون إلى رحلة إلى الاسكندرية.

وخلافاً لنا نحن الأولاد الذين سعدنا جداً بالقيام بهذه الرحلة.. كان الوالد والوالدة غاية في القلق.. ولم أرهما متوترين إلى هذا الحد من قبل.

أخذ أبي يتصبب عرقاً كلما ابتعدنا عن القاهرة، إلى أن بلل قميصه تماماً كلما ابتعدنا

أكثر فأكثر من القاهرة. وكان يتبادل الكلمات مع أمي بصعوبة، وصمتنا نحن أيضاً لشعورنا أن هذه الرحلة ليست ككل رحلة.

وفي تلك الفترة كانت هناك قواعد عسكرية ومصانع حربية كثيرة متناثرة حول الطرق الرئيسية في مصر. لم تخف السلطات منها شيئاً. ربما كنوع من استعراض القوة. وعندما بدأنا في الاقتراب من إحدى القواعد العسكرية أخرجت أمي الكاميرا وأمرها أبي قائلاً: «صوري. ياللا صوري.. صوري». فقالت له وأصابعها ترتعش: «سنذهب إلى الجحيم بسببك». وحركت أمي الجاكيت المعلق على النافذة وبدأت في التصوير، وامتلأت السيارة الصغيرة بصرخاتها الممزوجة بالخوف. فأجابها أبي بنفس اللهجة: «هذه نهايتنا». واستمرت أمي في احتجاجها قائلة: «سنذهب إلى السجن». وفي النهاية نظر أبي اليها بعيون متوسلة: «عدة صور أخرى.. فقط عدة صور أخرى».

وحاول «محمد» أن يسأل ما الذي يحدث لكن الرد الذي تلقاه كان «اسكت» فلم نسأل أية أسئلة أخرى بعد ذلك.

عدنا للبيت سعداء في ذلك اليوم. وعلى الفور أغلق أبي حجرته على نفسه وبعد فترة طويلة خرج وعانق أمي وقال لها: «يا حبيبتي لقد قمت بالتقاط صور رائعة للغاية». وبكت أمي وقالت له: «إلى هنا يجب أن نشرح الأمر للأولاد». وكنا ما زلنا في صدمة وغير مدركين لهذه الجلبة التي تحدث.

وتحولت الرحلات الأسرية في أنحاء مصر إلى روتين.. وكنا نخرج في نهاية كل أسبوع وكنا نسافر إلى الأقصر، وأسوان، ليس هناك مكان لم نذهب إليه.. وأحياناً كان أبي يحصل على إجازة في وسط الأسبوع وكنا نسافر لعدة أيام.. وقد صورت قواعد ومنشآت عسكرية في مصر.. وكان أبي يسجل عدد الكيلو مترات في الطريق.. وبذلك يحدد موقع المصانع والقواعد العسكرية.. وكنا نحن الأولاد أفضل تغطية».

ضمان الولاء

تعددت زيارات ابراهيم وانشراح إلى روما.. بعضها كان باستدعاء من الموساد..

والبعض الآخر كانت لاستثمار عشرات الآلاف من الدولارات التي حصلوا عليها من جراء عملهما في التجسس.

وفي إحدى هذه الزيارات.. قررا إشراك ولديهما لزيادة الدخل بتوسع حجم النشاط.. ولم يكن من الصعب عليهما تنفيذ ما اتفقا عليه..

يقول الابن عادل في حديثه المنشور بجريدة معاريف: «عاد أبي وأمي ذات مساء من روما يحملان لنا الملابس الأنيقة والهدايا.. وأحسست من خلال نظراتهما لبعضيهما أن هناك أمراً ما يجري الترتيب له وعرفت الحقيقة المرة عندما أجلسني أبي قبالته أنا وأخويّ وقال في حسم:

مررنا كثيراً بظروف سيئة.. لم نكن نملك أثناءها ثمن رغيف الخبز.. أو حفنة من الملح.. والآن نعيش جميعاً في رغد من العيش.. ويسكن بجواركم أولاد في عمركم يحيون جوعى كالعبيد.. أما أنتم فتنعمون بكل شيء كالملوك. ولم تسألوني يوماً من أين جئت بكل هذا..؟

إن عملي في الحكومة.. وتجارتي أنا وأمكم وشقائي طوال تلك السنوات لم يكن هو سبب النعيم الذي نحن جميعاً الآن.. والحقيقة.. أن هناك أناساً يحبوننا للغاية.. وهم هؤلاء الذين يرسلون لنا الهدايا والمال.. وبفضلهم لدينا طعام طيب وملابس جميلة.. إنهم الاسرائيليون.. وهم الذين أنقذوا حياتنا من الجوع والضياع.. وأمنوا لنا مستقبلاً مضموناً يحسدنا عليه كل من نعرفهم.

حدث ذلك في صيف ١٩٧١، وكنت وقتها في الثالثة عشر من عمري، وكان أخي نبيل يكبرني بعامين تقريباً وأخي محمد بعام واحد.

وكطفل.. لم أعر الأمر أهمية خاصة.. لحقيقة أن أبي «يعمل» مع الاسرائيليين.. ومثل كل الأولاد.. كنت قد كبرت وتربيت على كراهية اليهود.. لكن في البيت تلقيت تربية أخرى.. فقد عرفت أن الاسرائيليين هم المسؤولون عن الطعام الذي آكله.. وعن الملابس الجديدة التي أرتديها.. وعن الهدايا التي أتلقاها.. لذلك.. سعدت لأنني كنت محظوظاً.

وكلما كبرت.. بدأت أدرك معنى «عمل» أبي.. وبدأ الخوف ينخر أكثر وأكثر في عظامي.. فقد كانت كماشة من الموت تطبق علينا.. وكفتى بالغ أدركت أنهم لو ضبطونا سيتم شنقنا.. من ناحية أخرى كان الخوف من حياة الفقر يصيبني بالشلل.. فقد كنت ملكاً لديه كل شيء».

هكذا انخرطت الأسرة كلها في التجسس.. وأصرت انشراح على الانتقال من الحي الشعبي الفقير إلى آخر رقياً وثراء.. وعندما عارض زوجها قالت له: دعنا نستمتع بالحياة فربما ضبطونا.

وفي النهاية انتقلوا إلى فيلا فاخرة بمدينة نصر.. ونقل نبيل ومحمد وعادل مدارسهم إلى الحي الراقي الجديد.

احتفظ ابراهيم شاهين بعلاقاته القديمة وأقام أخرى جديدة.. وامتلأ البيت مرة أخرى بالأصدقاء من رجال الجيش والطيارين.. وتحول أولاده إلى جواسيس صغار يتنافسون على جلب المعلومات من زملائهم أبناء الضباط في المدرسة والشارع.. ومناوبة الحراسة ريثما ينتهي أباهم من تحميض الأفلام.. فكان نبيل يتولى المراقبة من الخارج.. وعادل من داخل البيت.. وحصل نبيل على أدوار أكثر جدية.. فكان أبوه يسمح له بكتابة الرسائل بالحبر السري وتظهيرها.. وصياغة التقارير وتحميض الصور.

وذات مساء بينما هم جميعاً أمام التليفزيون.. عرض فجأة فيلم تسجيلي عن أحد الجواسيس الذي انتهى الأمر بإعدامه شنقاً.. وطوال وقت عرض الفيلم انتابتهم حالة صمت وشعور بالرعب والفزع.. واستمروا على تلك الحال لأسابيع طويلة.. امتنعوا خلالها عن كتابة التقارير أو الرسائل.. حتى تضخم لديهم الخوف وأصيبوا بالصداع المستمر.. ومرض ابراهيم فاضطرت انشراح للسفر وحدها إلى روما تحمل العديد من الأفلام.. خبأتها داخل مشغولات خشبية.

كانت الرحلة إلى روما منفثاً ضرورياً للخروج من أزمتها النفسية السيئة.. وفي الوقت نفسه لتطلب من رجال الموساد السماح لهم بالتوقف عن العمل.. فلما التقت بأبو

يعقوب ضابط الموساد الداهية.. قصت عليه معاناتهم جميعاً ومدى الخوف الذي يسيطر على أعصابهم.: فطمأنها الضابط ووعدها بعرض الأمر على الرئاسة في تل أبيب.. وصحبها إلى ناد ليلي فرقصت وشربت لتنسى همومها.. وعادت معه آخر الليل ثملة لا تعي ما حولها.. وفي الصباح وجدت نفسها عارية بين أحضانه فبكت.. ومع أحضانه الدفيئة تكرر المشهد وهي بكامل وعيها.. فذاقت للجنس طعماً جديداً لا تعرفه.. ولم تتذوقه مع زوجها الذي انشغل عنها ولم يعد يهتم بها.. بعدها عادت إلى القاهرة تحمل آلاف الدولارات. وفي روما قد طلبت منه أن يرسل في طلبها بمفردها في المرات القادمة.

هكذا. لقد نسيت انشراح رغبتها في اعتزال الجاسوسية.. واستمرأت مذاقات اللذة الجامحة مع ضابط الموساد الذي لم يبخل عليها بفحولته المغلفة بالحنان.. وبالرغم من أن ما حدث يخالف وظيفة ضابط المخابرات ومهامه.. إلا أنه ما لجأ إلى ذلك سوى لرغبته في احتوائها.. وضمان ولائها لإسرائيل.

وفي آخر سبتمبر ١٩٧٣ كانت انشراح بمفردها في رحلة أخرى إلى روما.. فاستقبلها أبو يعقوب المسؤول عن توجيهها واستلام التقارير والأفلام منها. لذلك فقد كان عليه أن يسارع بمغادرة بئر السبع إلى اللد ثم روما في كل مرة تطير فيها انشراح خارج القاهرة. وفي ذات الوقت كان الضابط الاسرائيلي مكلف بألا يتعدى أية حدود مع الجاسوسة المصرية طالما رغبت هي في ذلك.. لكن ولأن انشراح كانت من النوع الحار لم تجد غضاضة في أن تنغمس في بحور اللذة لا تريد الطفو على السطح أبداً.. حتى فاجأها أبو يعقوب بنبأ هجوم الجيش المصري والسوري على إسرائيل.. وأن احتمال القضاء على دولة اليهود أصبح وشيكاً. كان يقول لها ذلك وهو يبكي ويرتعد جسده انفعالاً.. فأخذت تواسيه وتبكي لأجله ولأجل إسرائيل.. الدولة الصغيرة التي يسعى العرب لتدميرها(!!).

وفي أبريل ١٩٧٤ اقترحت إنشراح على أسرتها السفر إلى تركيا للسياحة.. وبينما هم في أنقرة اتصل بهم أبو يعقوب وطلب من ابراهيم أن يسافر إلى أثينا لمقابلته. ومن هناك

سافر إلى إسرائيل. وفي مبنى المخابرات الاسرائيلية سألوه:

كيف لم تتبين الاستعدادات للحرب في مصر؟

فأجابهم:

لم يكن هناك إنسان قط يستطيع أن يتبين أية استعدادات. فبعض معارفي وأقاربي من ضباط القوات المسلحة تقدموا بطلبات لزيارة الكعبة للعمرة.

وأضاف ابراهيم:

في حالة ما إذا كنت قد علمت بنية الحرب فكيف أتصل بكم..؟ فالخطابات تأخذ وقتاً طويلاً وهي وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة.

وبعد اجتماع مطول قرر قادة الموساد تسليم ابراهيم أحدث جهاز إرسال لاسلكي في العالم يتعدى ثمنه المائة ألف دولار. فلقد كانت لديهم مخاوف تجاه الفريق سعد الدين الشاذلي الذي يريد تصعيد الحرب.. والوصول إلى أبعد مدى في سيناء مهما كانت النتائج.. عكس السادات الذي كان يريدها حرباً محدودة.

دُرب ابراهيم لمدة ثلاثة أيام على كيفية استخدام الجهاز.. وعندما تخوف من حمله معه إلى القاهرة.. عرضوا عليه أن يذهب إلى الكيلو ١٠٨ طريق القاهرة السويس الصحراوي. وهناك سيجد فنطاس مياه كبيرة مثقوب وغير صالح للاستخدام.. وخلفه جدار أسمنتي مهدم عليه أن يحفر في منتصفه لمسافة نصف المتر ليجد الجهاز مدفوناً. وأخبره ضابط الموساد الكبير أن راتبه قد تضاعف، وأن له مكافأة مليون دولار إذا ما أرسل للإسرائيليين عن يقين بميعاد حرب قادمة.

عاد ابراهيم إلى أثينا ثم أنقره حيث تنتظره الأسرة.. فقضوا أوقاتاً جميلة يستمتعون بالمال الحرام وبثمن خيانتهم.

نهاية كل خائن

عندما رجعوا إلى القاهرة استقلوا السيارة إلى الكيلو ١٠٨ وغادرت انشراح السيارة

وبيدها معول صغير..وظلت تحفر إلى أن أخرجت الجهاز.. فنادت على ابنها عادل الذي عاونها وحمله إلى السيارة ملفوفاً في عدة أكياس بلاستيكية.. وعندما ذهبوا بالجهاز إلى المنزل أراد ابراهيم تجربته بإرسال أولى برقياته فلم يتمكن من إكمال رسالته.. بعدما تبين له أن مفتاح التشغيل أصيب بعطل (ربما نتيجة الحفر بالمعول).

حزن الجميع.. لكن انشراح عرضت السفر لإسرائيل لإحضار مفتاح جديد.. وسافرت بالفعل يوم ٢٦ يوليو ١٩٧٤ ففوجئ بها أبو يعقوب ودهش لجرأتها.. وأراد الاحتفاء بها فأقام حفلاً صاخباً ماجناً على شرفها انتهى بليلة حمراء.. فأمتعت جسدها المتعطش لفحولة أبو يعقوب.. وأرقها الابتعاد عنه والحرمان من خبراته المذهلة وتفننه في إشباعها، ومنحها مكافأة لها ٢٥٠٠ دولار مع زيادة الراتب للمرة الثالثة إلى ١٥٠٠ دولار شهرياً (كان مرتب الموظف الجامعي حينذاك حوالي ١٧ جنيهاً).

وأثناء وجود انشراح في إسرائيل تائهة بين أحضان ضابط الموساد، كانت هناك مفاجأة خطيرة تنتظرها في القاهرة فعندما كان ابراهيم يحاول إرسال أولى برقياته إلى إسرائيل بواسطة الجهاز - استطاعت المخابرات المصرية التقاط ذبذبات الجهاز بواسطة اختراع سوفييتي متطور جداً اسمه (صائد الموجات) وقامت القوات بتمشيط المنطقة بالكامل بحثاً عن هذا الجاسوس. ومع محاولة تجربة الجهاز للمرة الثانية أمكن الوصول لإبراهيم بسهولة.

وفي فجر ٥ أغسطس ١٩٧٤ كانت قوة من جهاز المخابرات المصرية تقف على رأس ابراهيم النائم في سريره. استيقظ مذعوراً وفي الحال دون أن توجه إليه كلمة واحدة في هلع:

أنا غلطان.. أنا ندمان.. الجوع كان السبب.. النكسة كانت السبب.. اليهود جوعوني واشتروني بالدقيق والشاي.

ولما فتشوا البيت عثروا على جهاز اللاسلكي ونوتة الشفرة.. والتزم ابراهيم الصمت.. وكان بدنه كله يرتجف.. سحبوه في هدوء للتحقيق معه في مبنى المخابرات

العامة، بينما بقيت قوة من رجال المخابرات في المنزل مع أولاده الثلاثة تنتظر وصول انشراح، تأكل وتشرب وتنام دون أن يحس بهم أحد.

وعلى طائرة أيطاليا رحلة ٧٩١ في ٢٤ أغسطس ١٩٧٤، وصلت انشراح إلى مطار القاهرة الدولي قادمة من روما بعد شهر كامل بعيداً عن مصر، تدفع أمامها عربة تزدحم بحقائب الملابس والهدايا، ونظرت حولها تبحث عن زوجها فلم تجده، فاستقلت تاكسياً إلى المنزل وهي في قمة الغيظ.. وعندما همت بفتح الباب اقشعر جسدها فجأة، فدفعت بالباب لا تكترث.. لكنها وقفت بلا حراك.. وبالت على نفسها عندما تقدم أحدهم.. وأمسك بحقيبة يدها وأخرج منها مفتاحين للجهاز اللاسلكي بدلاً من مفتاح واحد. وكانت بالحقيبة عدة آلاف من الدولارات دسها الضابط كما كانت.. وتناول القيد الحديدي من زميله وانخرست الكلمات على لسانها فكانت تتمتم وتهذي بكلمات غير مفهومة.. وقادوها مع ولديها إلى مبنى المخابرات وهناك جرى التحقيق مع الأسرة كلها.

ولما كانت المخابرات الاسرائيلية لا تعلم بأمر القبض على أسرة الجواسيس.. وتنتظر في ذات الوقت الرسالة التي سيبعث بها ابراهيم ليطمئنوا على كفاءة عمل الجهاز.. فوجئت الموساد بالرسالة.. لم تكن بالطبع من ابراهيم بل أرسلتها المخابرات المصرية.

«أوقفوا رسائلكم مساء كل أحد.. لقد سقط جاسوسكم وزوجته وأولاده، وقد وصلتنا آخر رسائلكم بالجهاز في الساعة السابعة مساء الأربعاء الماضي».

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ صدر الحكم بإعدام انشراح وزوجها شنقاً، والسجن ٥ سنوات للابن نبيل وتحويل محمد وعادل لمحكمة الأحداث.

وفي ١٦ يناير ١٩٧٧ سيق ابراهيم إلى سجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ الحكم، كان لا يقوى على المشي.. وإلى حجرة الاعدام كان يجره اثنان من الجنود وساقاه تزحفان خلفه بينما هو يضحك في هستيريا ثم يبكي.. وبعدما تيقن من أنه سوف يُعدم أخذ يردد آيات من القرآن الكريم بكلمات غير مفهومة ثم صاح في انهيار: سامحني يا رب.. وتلا عليه مأمور السجن منطوق الحكم.. ثم ردد الشهادتين وراء واعظ السجن.. عندئذ عرضوا

عليه آخر طلب له قبل إعدامه فطلب سيجارة.. وبعد أن انتهى من تدخينها جروه جراً إلى داخل غرفة الإعدام.. فقام عشماوي بتقييد يديه خلف ظهره.. ثم ألبسه الكيس الأسود ووضع الحبل في رقبته.. وشد ذراعاً فانفتحت طاقة جهنم تحت قدميه.. وظل الجسد معلقاً في الهواء يتأرجح إلى أن همد وسكن.. واستمر النبض ثلاث دقائق وعشر ثوان بعد التنفيذ.. حتى أعلن طبيب السجن وفاة الجاسوس الذي ظل يتعامل مع الموساد طوال سبع سنوات.

أما انشراح فقد ترددت الأنباء في حينها عن شنقها هي الأخرى.. ولكن في ٢٦ نوفمبر ١٩٨٩ نشرت صحيفة «حداشوت» الاسرائيلية قصة تجسس ابراهيم على صفحاتها الأولى.. وذكرت الصحيفة أن ضغوطاً مورست على الرئيس السادات لتأجيل إعدام انشراح بأمر شخصي منه.. ثم أصدر بعد ذلك عفواً رئاسياً عنها.. وتمكنت انشراح (في صفقة لم تعلن عن تفاصيلها) من دخول إسرائيل مع أولادها الثلاثة.. حيث حصلوا جميعاً على الجنسية الاسرائيلية واعتنقوا الديانة اليهودية.. وبدلوا اسم شاهين إلى (بن ديفيد) واسم انشراح إلى (دينا بن ديفيد) وعادل إلى (رافي) ونبيل إلى (يوسي) ومحمد إلى (حاييم)..!!!

رافي بن ديفيد

(١) وعن اللحظات الأخيرة التي وضعت نهاية أسرة الجواسيس.. يقول أصغر الأبناء – عادل – في حديثه لصحيفة معاريف الاسرائيلية

بعد حرب ٧٣ قرر والدي نهائياً أن تكون هذه هي السنة الأخيرة لهم في أعمال التجسس. وكانت الخطة تقضي ببيع البيت والممتلكات والسفر للولايات المتحدة.. وأنا في الخامسة عشرة من عمره آنذاك فكرت في المستقبل.. ووعدني والدي بإرسالي للدراسة في أفضل كلية هناك. وبعد ان اتخذوا قراراً بأن تكون هذه هي السنة الأخيرة لنا في مصر شعرنا أننا أكثر راحة وأزيح حجر ثقيل من على صدورنا. لكن كان هناك حادثان في تلك السنة هزا ثقتنا. فقد أراد والدي تجنيد شقيقه أيضاً. وأتذكر النقاشات التي دارت بين أمي وأبي حول ذلك.. فقد خافت أمي من أن يسلمنا شقيق والدي.. وحتى اليوم لست

أعرف هل عرف بذلك الأمر أم لا؟

والحادث الآخر كان بعد الحرب عندما قمنا بزيارة الأخوال.. وتشاجرت شقيقة أمي «فتحية» مع ابنتها نجوى.. وكانت هناك صرخات عالية في البيت وحاول أبي التدخل.. فأغلقت نجوى باب دورة المياة عليها وصرخت في أبي: «لماذا تتدخل؟ فالجميع يعرف أنك تعمل مع الاسرائيليين».

فدخل أبي وراءها وصفعها، وحتى اليوم لا أعرف من أين عرفت.. وشعرنا أن الأمور خرجت عن السيطرة. وفي إحدى المرات التي سافرت فيها أمي إلى روماكي تحصل على قطع غيار لجهاز البث الذي عطب.. عاد أبي من العمل شاحباً، وجلس على أحد المقاعد ونظر لي وهمس: «أعتقد أنهم قد تمكنوا مني».

وصمتنا، وأضاف: «لقد سألوا عني في العمل».

فبعد سبع سنوات من التجسس كان لأبي حواس حادة، وعندما قال لنا أنهم قد تمكنوا منه كان قد عرف ذلك عن يقين.

كان لدينا في البيت حوالي ٦ شرائط أفلام، وبدأ أبي في تمزيقها وحرقها وحرق الخطابات.. وأدركنا أن الحكاية قد انتهت.. وحتى اليوم لست أدري لماذا لم يأخذنا أبي ويهرب ولماذا لم نطلب منه الهرب؟! وأنا أسترجع تلك الأيام في مخي حتى اليوم لا أفهم لماذا ظللنا في البيت؟

وفي صباح أحد الأيام استيقظنا على صوت طرقات قوية على الباب، وفي المدخل وقف ثلاثة من الرجال وسألوا أين أبي؟ فقلت لهم إنه في العمل، فدخلوا وطلبوا انتظاره. جلس اثنان منهم في الصالون والآخر أخذ مقعداً وجلس بجانب الباب.. وقلت له:

«سيدي من فضلك أدخل إلى الصالون».

فأجابني قائلاً: «أشعر بالراحة هنا». فتبادلت أنا وأخي نظرات فزعة، وحاول نبيل الدخول إلى حجرة أبي كي يدمر الوثائق التي كانت هناك. لكن الأدراج كانت مقفلة

وكانت المفاتيح مع أبي، فتبادلنا نظرات يائسة ولم نعرف ما يمكن أن نفعله.

مرت ساعة بدت كأنها الدهر ثم سمعنا أصوات سيارات. واقترب من البيت موكب يتكون من عشر سيارات وكانت سيارة أبي تسير ببطء في المنتصف، وتوقفوا أمام المنزل، واقتحم البيت عشرات الجنود ورجال المخابرات وأدخلوا أبي معهم.. وبدأو في قلب البيت.. ولا يمكن وصف صرخات الفرحة التي خرجت من الجنود عندما وجدوا جهاز الارسال وهنأوا بعضهم قائلين «مبروك» وأحنى أبي رأسه وهمس لنا: «آسف يا أولادي».

ويكمل عادل الذي غير اسمه إلى (رافي بن ديفيد) حسب الرواية الاسرائيلية:

بعد القبض على والدي تركتنا السلطات المصرية وكنا في حالة يرثى لها.. وأردت البكاء والصراخ ولم أستطع.. فقد انتهى العالم بالنسبة لي.. وبعد ساعات تحدث أخي محمد للمرة الأولى «ماذا عن أمي؟» يجب أن نحكي لها ما حدث.

وفي الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٧٤، في ساعات الصباح المبكر، وصلت أمي إلى البيت، وفي جيب سري بالحقيبة كانت تخفي قطع غيار الجهاز.. وكانت قد اندهشت من عدم انتظار أبي لها في المطار، وسألت عند دخولها: «أين أبوكم؟» وكان العناق بيننا بارداً فقلت لقد سافر أبي إلى الريف، فهكذا طلب منا رجال المخابرات المصرية إخبارها.

وفهمت أمي على الفور فلا يمكن الكذب على من يحيا في ظل الموت، فاقتحمت حجرة النوم للبحث عن الجهاز هناك ولم يكن الجهاز موجوداً، فجرت نحو الحمام كي تتخلص من المواد التي تحملها. لكن كان قد فات أوان ذلك، فقد اقتحم البيت اثنان من رجال المخابرات، قال لها أحدهما: «حمداً لله على سلامتك يا دنيا»

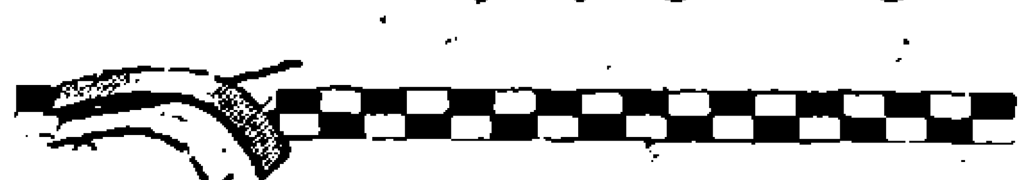
فتظاهرت أمي بالبراءة وقالت: «من هي دنيا؟ أنا انشراح»...

قالت ذلك بثقة فابتسم رجل المخابرات في رضا: «لقد اعترف زوجك بكل شي.

***

رجب عبد المعطي..

هل انتحر قبل إعدامه..؟



جواسيس الاسكندرية.. حفلت بالكثيرين منهم ملفات المخابرات والجاسوسية.. وكانت ظاهرة لافتة ومحيرة ألقت ظلالاً من الدهشة حول تباين ظروف سقوطهم في مصيدة الموساد. ويمثل كل جاسوس منهم حالة مختلفة عن الآخر. فبعضهم كان بمقدوره ألا يسقط ولكن النفوس الوضيعة والضعيفة.. والطمع، والنمو المبكر لبذور الخيانة، أمور معقدة لا ترتبط مباشرة بقيم أو مفاهيم أو شرف، فهناك مردودات أخرى وترسبات تتفاعل وتنسجم وتصنع في النهاية جاسوساً.. ويظل سؤالنا يتردد:

لماذا كثر جواسيس الإسكندرية؟

المضطهد المطارد

في الأول من أكتوبر ١٩٣٧.. امتلأ منزل الحاج عبد المعطي بلفيف من الأهل والأصدقاء جاءوا يباركون مقدم مولوده الأول «رجب». ولأن الحاج عبد المعطي تاجر مشهور في حي القباري بالاسكندرية فقد انهالت عليه الهدايا من حيث لا يدري. فالمولود جاء بعد انتظار طويل مليء بالقلق والصبر والترقب. وتجارب لا حصر لها مع الأطباء والأدوية. وفي شهر رجب - جاء رجب.

وبعد عدة أشهر حمل الرجل وزوجته أمتعتهما وحطا الرحال بأطهر أرض ورفعا أيديهما عند الكعبة يطلبان من الخالق جل شأنه أن يبارك لهما في رجب ويشكرانه على «عطيته». وشب الوحيد نبتاً طرياً يأكل بملعقة من ذهب كما يقولون.. فقد وفر له أبوه كل أسباب الرغد، وجعل منه شاباً خنوعاً مدللاً كان مدعاة لأن يخفق إخفاقاً ذريعاً في الحصول على الثانوية العامة. ومع عدة محاولات أثمرت جميعها عن خيبة أمل للأب اغتر

الابن وأوهم نفسه بأن له من العقل ما لم يملكه غيره.. ويستطيع - بدون شهادات - أن يصبح رجل أعمال مشهوراً ينافس عمالقة السوق والميناء. ووسوس له الشيطان أنه فقط بحاجة إلى فرصة يثبت من خلالها أنه عبقري زمانه الملهم.

حاول الحاج عبد المعطي إفاقة ابنه من سكرة الغرور وإعادته إلى طريق الصوات ففشل. إذ سيطرت على رجب عبقرية كاذبة نشأت من فراغ العقل والثقافة. وصار يحلم ليل نهار بشركة رجب للخدمات البحرية.

ولما امتنع والده عن إمداده بالمال اللازم حتى يتحصن بالخبرة. مضطراً وافق رجب على العمل في وظيفة كاتب حسابات بميناء الاسكندرية. إرضاء لوالده. واستغرق في عمله الجديد حتى توسعت مداركه واستوعب الكثير من الخبرة بعد الاحتكاك الفعلي في الحياة.

وبعد ثلاث سنوات من العمل في الميناء. لم ينس حلمه الكبير ففاتح أباه. وهذه المرة كان عنده إصرار عنيد على ألا يرجع. فلما عارضه والده بشدة غادر المنزل غاضباً. وتحت ضغوط الأهل والأصدقاء. رضخ الأب أخيراً أمام رغبة ابنه وأمده بعدة آلاف من الجنيهات وهو على ثقة من فشله وخسارته. وغمره للمرة المليون إحساس بندم شديد لأنه دلل ابنه وفتح له منذ الصغر خزينة أمواله يسحب منها كفيما يشاء..وتمنى بينه وبين نفسه لو أن الزمن عاد به إلى الوراء فيقوم على تربيته بالشكل الصحيح. وينشئه فتى معتمداً على ذاته فيشب رجلاً يعرف قيمة العلم والقرش. ويدرك جيداً أن للحياة ألف وجه ووجهاً. ولكن..فات الأوان وحسم الأمر..!!

من ناحية أخرى كان رجب يدرك ما يدور بعقل والده، وأراد أن يؤكد له كذب ظنه واعتقاده.. فتوسع في أعماله دون خبرة كافية بمنحنيات السوق وتقلباته. وكانت النتيجة المؤكدة خسارة جسيمة مُني بها وفشلاً ما بعده فشل. وديوناً تزاحمت بأرقامها دفاتره.

وجاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ وتعم حالة كساد ازدادت معها الأمور سوءاً، وحاول رجب باستماتة أن يقوم التيار القوي فخارت قواه وغرق في ديونه. وقام بتصفية الشركة

وحزم حقائبه ووجد نفسه على ظهر مركب يشق مياه البحر إلى ميناء «بيريه» في اليونان.

(١) نزل بنسيون «بروتاجوراس» وحاول جاهداً أن يعثر على عمل لكنه باء بالإخفاق.. فلجأ إلى بحار يوناني يدعى «زاكوس» ربطتهما معاً إحدى سهرات الاسكندرية.. وكذب عليه مدعياً أنه ينجز إحدى صفقاته التجارية واستولى منه على خمسمائة دراخمة وهرب إلى «أثينا» العاصمة حيث ضاقت به المدينة الساحلية الساحرة. ووجد في أثينا أن الحياة بها أكثر ضجيجاً وحركة.

(٢) وفي بنسيون «زفيروس» جلس يفكر فيما وصل إليه من حال سيئة: لقد مر به شهر تقريباً ولم يعثر على عمل بعد. إنه الآن عاطل ينفق ليعيش. وعما قريب ستنفد دراخماته فماذا سيعمل؟ هل ضاقت به الحياة أيضاً في أثينا؟

مئات من المصريين جاءوا إلى اليونان يعملون في أي شيء وكل شيء.. لكنه يبحث عن عمل من نوع آخر يتناسب وعبقريته. وكثيراً ما حدث نفسه قائلاً «لا أحد يفهمني في هذا العالم».. لقد صور له خياله أنه مضطهد. ومعظم عباقرة العالم اضطهدوا أيضاً قبله وها هو يواجه قوى الاضطهاد التي تطارده أينما حل وعليه بالصبر حتى يكتب له النجاح.

(٣) وبينما هو يتجول في شارع «سوفوكليس» التقى بشاب مصري من برديس جنوبي سوهاج يعمل في مصنع للعصائر. عرض عليه أن يعمل معه في قسم التغليف لكنه أبى بشدة أن يعمل بوظيفة تافهة كهذه. واستعرض له سيرة حياته السابقة في مصر. فما كان من الشاب الصعيدي إلى أن نصحه بالعودة إلى الاسكندرية لكي لا يقع فريسة سهلة في قبضة المخابرات الاسرائيلية. التي تتصيد الشباب المصري العاطل في اليونان وتغريه بالعمل معها مقابل مبالغ كبيرة. وسخر رجب في داخله من نصيحة الشاب له بالعودة. فقد كان والده يعاني الأمرين من حجم الديون التي خلفها له ومن مطاردة الدائنين في المتجر كل يوم.

المال والحسان

تزاحمت الأفكار في رأسه وغمرته إحساسات اليأس من صلاح أمره في أثينا.

والخوف من العودة يجر أذيال الخيبة والفشل. وداهمه شعور بالضآلة وقال لنفسه «لن أيأس.. لن أستبسلم أبداً مهما حدث».

أيقظته دقات الباب من أفكاره. وكان الطارق موظف حسابات البنسيون. فطلب منه إمهاله عدة أيام. وما كانت جيوبه تحوي سوى دراخمات قليلة لا تكفي لأسبوع واحد إلا بالكاد.

هرب منه النوم واختنق صدره واهتزت أمامه الرؤى وعندما تذكر مقولة الشاب الصعيدي «المخابرات الإسرائيلية تدفع الكثير» قال لنفسه «لن أخسر أكثر مما خسرت» وأمسك بالقلم ليكتب:

السيد المبجل / سفير دولة إسرائيل في أثينا

أنا موظف مصري أقيم في بنسيون زفيروس. ضاقت بي الدنيا وظلمتني في الاسكندرية وفي أثينا. قال لي البعض إنكم تمدون يد المساعدة لكل من يلجأ إليكم وأنتم الملجأ الأخير لي. فأرجو أن أنال عطفكم واهتمامكم.

رجب عبد المعطي أثينا ٢٧/ ١٢/ ١٩٦٧

ولم تكد تمر ثلاثة أيام – حتى فوجئ بمندوب من السفارة الإسرائيلية ينتظره في صالة الاستقبال.. فاصطحبه إلى السفارة وهناك قابلوه بود وقالوا له:

وصلتنا رسالتك ولم نفهم منها ماذا تريد بالضبط؟

أجاب بصوت يغلفه الرجاء:

أريد أن أعمل في أثينا.

سلمهم جواز سفره وتركوه ثلاث ساعات بمفرده.. ثم جاءوا له باستمارة من عدة صفحات.. تحمل اسم السفارة وشعار دولة إسرائيل.. وطلبوا منه أن يملأها ويكتب سيرة حياته وأسماء أصدقائه وأقاربه ووظائفهم.

وبعدما تبين لهم أنه أمضى ثلاث سنوات في العمل داخل ميناء الاسكندرية.. طلبوا منه أن يكتب تقريراً مفصلاً عن الميناء وأهميته الاقتصادية والعسكرية ففعل. واستعرض ما لديه من مظاهر «العبقرية» الفذة في شرح كل شيء عن الميناء بتفصيل مطول.. فأذهلتهم المعلومات التي كتبها عن الميناء.. وأدرك ضابط الموساد الذي شرع في استجوابه بأنه وقع على كنز ثمين عليه أن يعمل على استثماره و«حلْب» ما لديه من معلومات.

وفي الحال سددوا حسابات البنسيون كافة ونقلوه إلى فندق «أورفيوس».. وهو ابن ربة الفن الإغريقية.. وأعطوه مائتي دولار أمريكي وتركوه عدة أيام يمر نهاره وهو يغط في سبات عميق.. وفي الليل يتذوق طعم السهر في حانات وكباريهات أثينا المتحررة.. ويصاحب أجمل فتياتها وداعراتها في شارع «ارستيديس» الشهير. وعندما نفدت نقوده تماماً ود لو عاد إليه مندوب السفارة الإسرائيلية ببعض المال ليكمل مسيرة اللهو والسكر.

وحدث ما توقعه وجاءه المندوب بمائتي دولار أخرى.. فاستغرق في مجونه وتمنى لو استطاع أن يفعل أي شيء في سبيل أن يحيا حياة مرفهة في أثينا. أغرقته المخابرات الاسرائيلية بالمال حتى اطمأن إلى رجالها.. وكلما نفدت نقوده ذهب بنفسه لمقابلة أبو ابراهيم في السفارة الاسرائيلية يعرض عليه خدمات مقابل الدولارات التي يأخذها. فيؤجل ضابط الموساد الحديث في هذا الأمر لوقت آخر.. وينصرف رجب بالنقود فيرتع بين الحسان عاريات الظهر والنهود هو بينهن يختال اختيالاً.

إن المال والنساء أهم أسلحة أجهزة المخابرات. بل هما الأساس الذي تبني عليه عملية صنع جاسوس أو اصطياد عميل. وأجهزة المخابرات ليست بالسذاجة التي تجعلها تنفق الملايين لاصطياد ضعاف النفوس والخونة الذين يسهل شراؤهم بالمال والفساد. ولذلك أقامت فروعاً لها ومكاتب في الخارج تحمل أسماء شركات وهمية لا نشاط حقيقي لها سوى البحث عن الخونة. ويعمل بهذه الفروع ضباط مخابرات على أعلى مستوى من الخبرة والكفاءة. وتخول لهم سلطات واسعة. وتحت أيديهم مئات الآلاف من الدولارات.. وطابور طويل من السكرتارية والمساعدين الأكفاء. بخلاف أجمل الفتيات

اللاتي اخترن الطريق الصعب وخطون خطوات طويلة من الخبرة والحنكة. فهن يعرفن عملهن جيداً ويبدعن فيه وطريقهن إلى الإبداع يبدأ وينتهي بالجسد. إنه السلاح السحري الذي يقتل مقاومة الهدف.. ويحرك فيه غريزته المجنونة التي تحيله إلى إنسان بلا عقل أو إرادة.

والمخابرات الإسرائيلية - الموساد - تفوقت كثيراً في هذه الأمور.. وأصبحت أكثر أجهزة المخابرات خبرة في استخدام لغة الجسد.. تلك اللغة التي يفهمها الجميع ولا تحتاج إلى مترجم أو قواميس تفسر مفرداتها.. ولكن الذي لا يعرفه أحد.. أن الخونة الذين يسقطون في براثن الموساد. يتحولون في لحظة ما إلى مجرد بهائم تدور في الساقية. تطاردهم سياط الأوامر والطلبات التي لا تنتهي أبداً.. وأنها تقدر ما تدفع تريد المقابل أضعاف ما دفعته. وعندما يجف معين عميلها تنبذه كالكلب الأجرب وتلقي به في زوايا الذل والنسيان. وتعامله كخائن باع وطنه وأهله ولا قيمة لإنسان فقد انتماءه، وسلك كل المسالك نحو المال واللذة.

في المصيدة

لم يدرك رجب عبد المعطي هذه الحقائق بل اندفع بكل ثقله باتجاه المخابرات الاسرائيلية.. وصادق الكثير من ضباطها في أثينا ظناً منه أنهم سينقذونه من شبح الإفلاس الذي تعلق بتلابيبه ولا يود مفارقته. ورحب كثيراً بضابط الموساد - ابو ابراهيم - الذي فوجئ به يزوره في حجرته بالفندق الفخم.. ويحدثه طويلاً عن أزمة الشرق الأوسط والوضع المتفجر في المنطقة بسبب الحروب مع العرب. وحقهم في أن يعيشوا فوق أرض الميعاد في سلام وأمان. وأنهم ليسوا شعباً يحب سفك الدماء بل أمة مشردة ضعيفة تسعى إلى العيش في هدوء بلا حروب أو صراعات.

واستعرض ابو ابراهيم في سرد اساطير وأحاجي اللص الذي يبرر مشروعية سرقاته ثم سأل رجب فجأة:

هل ترحب بالعمل معنا لصالح السلام؟

والابتسامة تملأ وجهه..

بالطبع.. ولكن.. أي عمل بالتحديد؟

أخرج ضابط الموساد الخبير أربع ورقات ذات المائة دولار ودسها في يد رجب وهو يقول:

أنت كثير الأسئلة.. هل تعتقد أننا نريدك سفيراً لنا في مصر؟

إذن.. ما هو المطلوب مني؟

لا تسأل كثيراً لكي لا أغضب منك. عليك فقط أن تعرف أننا أصدقاء. وأن لكل حديث أوان. هز رجب رأسه علامة على الرضوخ والطاعة ولحقه ابو ابراهيم بسؤال ذا مغزى:

هل لك صديقة في أثينا؟

أجابه على استحياء:

هجرتني فتاة تدعى انكسيميندرا لأنني لا أعرف اللغة اليونانية وقد ضاقت بإنجيلزيتي الركيكة.

أوه.. أتقصد تلك الفتاة التي يملأ النمش وجهها؟ دعك منها وسوف أعرفك بفتاة رائعة تتحدث بالعربية وستكون معك ليل نهار في أثينا.

تهلل وجهه وارتفع حاجباه دهشة وقال:

أين هي؟ أريدها حالاً..

ستكون إلى جوارك في الطائرة أثناء رجوعك من تل أبيب.

بهت رجب ووقف فجأة كالملسوع وقال بصوت متلعثم: تل أبيب؟

نعم..!!

بسرعة قالها ضابط الموساد بلغة الواثق، وأضاف كأنه يأمره بتنفيذ قراره الذي لا رجعة فيه:

ستسافر إسرائيل بعد عدة أيام.. وفي الغد عليك أن تحضر اجتماعاً مهماً في السفارة لمناقشة خطوات تنفيذ هذا الأمر فهل عندك اعتراض؟

هربت الكلمات وغاصت في قرار عميق. وأجاب رجب الذي بدا كالأبله لا يضبط خلجاته:

لا.. لا.. أنا لا أعترض.. إنها مفاجأة لي.

عندما كتبنا تقريراً عنك وأرسلناه إلى إسرائيل.. طلبوا منا أن نأخذك في رحلة سريعة إلى هناك ليتعرفوا عليك أولاً. وثانياً هناك مفاجأة سارة تنتظرك. وثالثاً: لتختار صديقتك بنفسك من بين أجمل فتياتنا وتصحبها معك إلى أثينا.

سكت رجب ولاحقه أبو ابراهيم:

المخابرات الاسرائيلية إذا أعطت فهي سخية بلا حدود. وإذا غضبت ومنعت فطوفان من الهلاك قادم. وثق يا رجب أننا ودودون معك إلى أقصى درجة. أعطيناك أكثر من ألف وخمسمائة دولار حتى الآن ولم نطلب منك أدنى شيء. ألا يدل هذا على كرم منا أيها المكار؟

وضرب كتف رجب الغارق في ذهوله وهو يقول في لغة ظاهرها الثقة وباطنها التهديد والبطش:

عليك ألا تضيع هذه الفرصة. انتهزها واركب قارب النجاة تنج نفسك من الطوفان والهلاك.

وعندما قام ضابط الموساد منصرفاً لم يستغرق رجب في التفكير كثيراً. لقد ثبتت لديه النية واتخذ قراره..ولم يذهب إلى سريره لينام بل خرج ينزف دولارات الموساد على الخمر وجسد داعرة صحبها إلى شقتها وهو يمني نفسه بالجارية الاسرائيلية التي ستكون تحت

إمرته. وفي الصباح الباكر كان يقف أمام باب سفارة إسرائيل تعلوه سحابة انكسار وبعينيه بريق خنوع ديّوث باع لحمه لمزايد!!

استغرق الاجتماع به نحو الساعة.. كانوا أربعة من ضباط الموساد في أثينا وخامساً جاء من فيينا كان يبدو أنه أكبرهم دراية بالتعامل مع الخونة وتطويع الجواسيس. طلب من رجب أن يرسم له خريطة الميناء في الاسكندرية وأين يقع مكتبه بالضبط؟!! وفوجئ رجب بماكيت مصغر للميناء دخل به موظفان ووضعاه على منضدة تتوسط الحجرة

أخذ رجب يشرح بتفصيل أكثر معلوماته عن الميناء. بل ويحدد أماكن مخازن التشوين التجارية.. ورصيف الميناء الذي يستقبل السفن الحربية السوفيتية.. وسفن الشحن التي تجيء بالأسلحة المختلفة من ميناء أوديس السوفييتي على البحر الأسود.. ومخازن تشوين السلاح المؤقتة.. وبوابات التفتيش والمداخل والمخارج.

وهكذا استمر يشرح لهم أسرار الميناء الحيوي، ولم يتركوا أدق التفاصيل إلا وسألوه عنها ثم طلبوا منه الانصراف والعودة صباح اليوم التالي ومعه أربع صور فوتوغرافية وجواز سفره. وبعد أن سلمهم الصور تسلم منهم وثيقة سفر إسرائيلية ذكر بها أنه إسرائيلي من تل أبيب واسمه «دافيد ماشول».. تسلم كذلك تذكرة سفر بالدرجة السياحية - أثينا تل أبيب على شركة العال الإسرائيلية - وأوصله مندوب من السفارة إلى المطار وتأكد من صعوده إلى الطائرة المتجهة إلى إسرائيل.

وعندما جلس رجب في مقعده بالطائرة كان جسده يرتجف بشدة.. وتشوشت أفكاره للدرجة التي أصبح فيها كالمخمور الذي فقد تركيزه واتزانه.. وسرعان ما استعاد ثقته بنفسه وهو يرسم في خياله أحلام الثراء الذي ينتظره.. ووجه الفتاة المليحة التي سيختارها في إسرائيل.. وخطرت بباله فجأة فتاة من بورسعيد اسمها مايسة كانت قد هاجرت مع أهلها إلى المنصورة وتعرف عليها في إحدى الحفلات العائلية وأحبها بسرعة إيقاع عجيبة وافترقا أيضاً بلا وداع. لماذا خطرت بباله في تلك اللحظة بالذات؟ ضحك بصوت مسموع فرمقته سيدة تجلس بالقرب منه بنظرة تعجب وابتسمت.. وأغمض

عينيه ثم نام.. واستيقظ والطائرة تحوم فوق مطار بن جوريون تنتظر الإذن بالهبوط.

اليهودي الجديد

وعلى سلم الطائرة صافحه ثلاثة رجال.. ثم أدخلوه سيارة مسدلة الستائر كانت تنتظر أسفل جناح الطائرة.. سلكت به اتجاهاً آخر بعيداً عن بوابة خروج الركاب والجوازات.. ووجد نفسه في شوارع تل أبيب لا يصدق عينيه..

وفي بيت يشبه الثكنة العسكرية على أطراف تل أبيب أدخلوه إحدى الشقق المخصصة لأمثاله من الخونة.. حيث كانت تنتظرهم بها فتاة رشيقة صافحته بحرارة.. ورحبت به بالعربية فسره ذلك كثيراً وقالوا له إن «زهرة» ستظل على خدمته طوال إقامته في الشقة.

وتركوه ليستريح بضع ساعات وعادوا إليه ثانية فصحبهم لمبنى المخابرات الاسرائيلية في شارع الملك شاؤل بوسط المدينة.. وكان في استقباله عدد كبير من كبار رجال الموساد. ولعدة ساعات أخضع لتحقيق واستجواب تفصيلي لكل ما كتبه عن ميناء الاسكندرية.

كان الاجتماع مغلقاً على الضباط المختصين والمحللين الذين أدركوا ميوله للنزعة العسكرية.. وكان ذلك واضحاً جداً من خلال إجاباته الحاسمة.. التي تشبه إجابة عسكرية مدعومة بلغة عسكرية بحتة.. وتغلفها تفاصيل استراتيجية دقيقة لا ينتبه اليها الرجل المدني الذي لم يجند بالقوات المسلحة.

وفي ختام الاجتماع أعد له حفل استقبال كبير في إحدى القاعات بالمبنى.. حضره عدد أكبر من ضباط الموساد ورؤساء الأقسام.. وتم منح رجب عبد المعطي رتبة «رائد» في المخابرات الاسرائيلية، ولم يضيعوا وقتهم كثيراً في مظاهر الترحيب.. إذ أعدوه لدورة مكثفة بدأها أحد الضباط بمحاضرة طويلة عن «ذراع إسرائيل الطويلة».. وأنها تجعل العدو يرتجف رعباً، وتمنح الإسرائيليين القدرة على النوم في هدوء. وأن الموساد نجحت في حل الكثير من مشاكل الدولة اليهودية وهي على استعداد للقيام بمهام أخرى.

.. وإن عمليات الموساد ليست على درجة أقل أهمية.. بل هي أساس شهرتها.

وجاء ضابط آخر كانت مهمته تدريبية فنية تتعلق باستخدام الشفرة والاستقبال بواسطة موجات خاصة بالراديو. وبعد أيام أجاد رجب استقبال الرسائل المشفرة وترجمتها بسرعة وكان عليه اجتياز دورة أخرى مهمة. وجاءته هذه المرة ضابطة شابة تتحدث العربية بطلاقة شرعت في تدريبه على كيفية استخدام الحبر السري في الكتابة وقراءة الرسائل المرسلة إليه بالحبر السري أيضاً.. وكذلك استعمال شفرة خاصة للمراسلة لا يكتشفها أحد.

استمرت برامج الدورة التدريبية المكثفة خمسة عشر يوماً كانت عصيبة ومرهقة. وبعد أن اجتاز الاختبارات بنجاح مذهل. رافقته زهرة إلى منتجع خاص آمن يقع على بحيرة طبرية.. وهناك أذاقته من لدائن أنوثتها ما حار فيه العقل وأذهل الشعور. قالتها له صراحة إنها هدية له لاجتيازه الاختبارات وتعاونه مع المخابرات الاسرائيلية بإخلاص. بل وأكدت له أنها عبدة له يفعل بها ما يشاء. وعندما صارحها بأنه يستريح إليها ويود لو صاحبته إلى أثينا وعدته بأن تعرض طلبه على رؤسائها..

وفي تل أبيب أخبره الضابط المسؤول بأنه سيعود إلى الاسكندرية مرة أخرى ليعاود نشاطه السابق في شركة رجب للخدمات البحرية. وأنهم سوف يمدونه بالأموال اللازمة لإحياء شركته وتجديدها. ولكي يتم تنفيذ ذلك عليه أن يمكث عدة أشهر في أثيناء.. ويشيع بين المصريين العائدين إلى مصر بأنه يمارس أنشطة تجارية رابحة جداً في أثينا.. ويجب عليه أن يتأكد من وصول هذه الأقاويل إلى مصر والى أهله بالذات.

لقد تمكنوا خلال تلك المدة من تدريبه على كيفية أعداد التقارير وتلخيص الجمل واختصار عدد الكلمات. هذه الدورة المكثفة زرعت بداخله إيماناً حقيقياً واهماً بأنه صاحب رسالة مهمة أوكلت إليه. وبرغم أنهم بثوا لديه الثقة في مناعة المخابرات الاسرائيلية ضد كشف عملائها في الدول العربية.. واستماتها في استردادهم حال القبض عليهم، إلا أنه أحس بالتعاطف معهم بعد عدة محاضرات عن تاريخ اليهود.

واضطهادهم على مر الأحقاب والعصور. ومحاولات إبادتهم التي أسفرت عن تشريدهم ومقتل الملايين منهم. وكانت آخر المحاولات تلك التي قام بها أدولف هتلر الذي أقام معسكرات لتجميع اليهود. ثم حرقهم في محارق خاصة لاستئصال كل يهود أوروبا. وهكذا حشوه بأكاذيبهم المضللة لكسب عطفه.

وعندما عاد رجب إلى أثينا برفقته زهرة. كان بداخله إصرار غريب على التعاون مع الموساد لحماية إسرائيل وأمن إسرائيل. من التهديد العربي الدائم والذي يدعو إليه جمال عبد الناصر. وإصراره على إلقاء اليهود في البحر ليتخلص منهم. وترسب بداخله اعتقاد بأن عبد الناصر ما هو إلا هتلر جديد جاء ليبيد اليهود الذين يدافعون عن أمنهم. وحقهم في أن يعيشوا في سلام.

النجاح الزائف

غادر رجب مطار بن جوريون في تل أبيب في طريقه إلى أثينا ترافقه «زهرة».. جميلة الجميلات والعبدة التي تحدثه بلغته وبلغة الجسد الناطقة.

لم تكن مهمتها إفراغ ثورات رجولته المشتعلة دائماً بقدر ما كانت رقيبة على سلوكه وتصرفاته. وتمتحن إخلاصه للمخابرات الاسرائيلية بين آن وآخر. وكلما حاولت تصيد أخطائه وجدته أكثر منها إخلاصاً لليهودية. وإيماناً بحق الإسرائيليين في القدس وسائر أرض فلسطين.

إنها تواجدت بجواره لتدفعه بقوة إلى عشقها والذوبان فيها. فكلما ازداد عشقاً لها. أخلص لإسرائيل. وتفانى في خدمتها.

استأجرت له المخابرات الاسرائيلية إحدى الشقق الصغيرة في حي دميتير الهادئ.. وهيأت له من أسباب العيش والرخاء والإمتاع الكثير لتجعله لصيقاً بهم يدور في فلكهم لا يستطيع فكاكاً. وعلموه كيف يتعامل مع المصريين الوافدين إلى اليونان للسياحة أو للبحث عن عمل. فالذين جاءوا للسياحة خصص لهم بعض الوقت وصحبهم للمزارات السياحية والأسواق والمتاحف وأفاض في خدماته اليهم وحملهم الهدايا إلى أهله

بالإسكندرية تأكيداً على تيسر أحواله وظروفه المالية في الخارج. وبدون توصية كانت صور حياته المختلفة تنقل إلى والده من خلال المصريين العائدين إلى مصر.

صور وجوانب مشرقة رسمتها المخابرات الاسرائيلية بإحكام شديد وأضفت عليها هالة من النجاحات أثلجت صدر أبيه بعدما فقد الأمل في إبنه. وأرسل رجب خطاباته واضعاً في إسهاب عمله في إحدى الشركات الكبرى. التي استوعبت مواهبه واكتشفت فيه عبقرية فذة دفعت بها إلى الأمام بعد تعثر طويل.. فارتقى في وظيفته واحتل مكانة مهمة في بلاد الإغريق. وأكد ذلك للأب كل من حملوا إليه هدايا ابنه الرقيقة له ولوالدته ولأصحابه. وضمت خطاباته صوراً فوتوغرافية مختلفة في مكتبه وفي مسكنه.. وفي إحدى رحلاته «إلى جزر بحر إيجه حيث الشاطئ يموج بالحسناوات يرتدين البكيني.. ويطاردن شبح الملل بالرقص واللهو.

لكل هذه المظاهر المزيفة. صدق الأهل بالإسكندرية ما تبوأه رجب من نجاح. فأرسل إليه والده يرجوه أن يعود إلى وطنه مرة ثانية ليعادو نشاطه من جديد. وليؤكد نجاحاته على أرض وطنه بعدما صقلت شخصيته. ودرج على القيام بمهام صعبة أوصلته إلى القمة.. فاستمهله رجب بعض الوقت، وانشغل بالعمل مع المصريين القادمين بحثاً عن عمل في أثينا فكان يصحبهم - بترتيب دقيق من الموساد - إلى الشركات البحرية في بيريه.. والى شركات تجارية أخرى في أثينا.. على أمل أن يسقط من بينهم شاب آخر في براثن المخابرات الاسرائيلية.

لأجل ذلك اختلط العميل الخائن بالمصريين المقيمين باليونان ووطد علاقاته بهم.. وتعددت خدماته ومواقفه تجاه كل من يلجأ إليه فأحبه الشباب المصري هناك.. ووجدوا فيه صورة المصري الشهم النبيل.. في حين أنه كان يدير حوارات سياسية معهم.. ويسجل تقارير مطولة تحمل بين سطورها خسة نياته القذرة في خدمة جهاز مخابرات العدو.. فبدا كما لو كان قد اندرج لسنوات طويلة في صفوف أكاديمية الجواسيس في إسرائيل.. وأعيد مرانه وتدريبه في أثينا على استخدام الحس الأمني والملاحظة والتمويه والخداع. وهذه

كلها أمور أسهب في شرحها «فيكتور أوستروفسكي» في كتابه: «الموساد» حيث بين لنا كيفية صنع جاسوس محترف في إسرائيل بواسطة أمهر الخبراء.. وأحدث دراسات علوم المخابرات والجاسوسية في العالم.

فقبل أن يخرج الجاسوس من مخبئه ليمارس وظيفته يخضع لبرنامج مكثف لا بد له أن يجتازه بنجاح وهو عن «خداع المراقبة».. ويدرك جيداً إذا ما كان قد «ألقى بظلاله» أم لا.. ومن النافذة يستطيع أن يرى الشخص الذي يقتفي أثره.. وكيف تابعه؟ وعندما يلتقي الجاسوس الظل وخاصة عند الخروج من فندق - مكتب - متجر. سيجري بسرعة لمدة خمس دقائق.. ويسير بعدها في خط متعرج إلى أحد المباني ويبحث عن نقطة مراقبة ليراقب. وهذه الطريقة ستعطي الجاسوس الفرصة ليعرف أسلوب المراقبة.. وعليه حينئذ أن يمتنع عن إثارة أية شبهات أو إتمام عمل.. ويركب وسيلة مواصلات إلى مكان آخر بالمدينة خلاف الذي كان يقصده.

هكذا تدرب الجواسيس وأيقنوا أن هذا التصرف يتعلق بتكتيك السلامة الذي يجب أن يتبعه كل جاسوس. خاصة إذا كانت ظروف عمله معرضة لبعض الشكوك.

واتبعت الموساد أيضاً مع رجب ذات النظرية التي شرحها «ديفيد تلبيني» في كتابه: «فرق الرصد» عن كيفية الإثارة التي تتولد لدى الجواسيس والعملاء الصغار من ذوي «الميول المظهرية».. وقد كان الخائن رجب يعشق اللكنة العسكرية في الحديث.. والمرافعات العسكرية في الوصف ولو لم يلتحق بالقوات المسلحة. وعندما لاحظ خبراء الموساد هذا الاتجاه منحوه رتبة رائد في الجيش الاسرائيلي إشباعاً لغروره.

عودة الظافر

لم تكن زهرة فتاة فراش للجواسيس الجدد بل إنها عميلة مدربة أخضعت فكرياً ومعنوياً وجسدياً لخدمة الموساد. عميلة تؤدي عملاً مهماً وأساسياً لصالح إسرائيل. وجسدها أحد أركان هذا العمل الأساسية.

إنها تستغل جسدها في تطويع الجواسيس وربطهم بها.. حيث درست وتعلمت أن

لكل رجل عادات وميولاً.. خاصة تظهر جلية عندما يتجرد من ملابسه أمام امرأة عارية. قد تكون ميوله سوية أو شاذة. لا يهم..فإن لديها القدرة على احتواء كل أنواع الرجال وإشباعهم وتأكيد رجولتهم وتضخيم فحولتهم. إن الجنس بالنسبة إليها عمل مهم، وترتقي من خلاله وظيفياً ومهنياً إذا ما أبدعت فيه مع الخونة الذين يجري إعدادهم، وتنال شهادات شكر وتقدير بعد تطويعهم.

ولذا.. لم يكن وجود زهرة على مسرح الحدث عملاً ثانوياً يحسب على جهاز المخابرات الاسرائيلي. إنه جزء مكمل لتعمية العميل عن الحقائق والثوابت.. وإخضاعه بتصويره في أوضاع شاذة تظهر مدى ضعفه.. وخلق دفء عاطفي يزيل غمامة الخوف التي قد تؤثر في إقدام العميل فينشط ويبدع ويقوم بعمله خير قيام.

مر عام ونيف ولم يزل رجب في أثينا في حضن المخابرات الاسرائيلية يترقب موعد رجوعه إلى الاسكندرية. وعندما اعتقد أنه هيأ «الجو» لعودته.. تحدث مع أبو ابراهيم ضابط الموساد في السفارة الاسرائيلية الذي أمهله عدة أيام ليكتب بذلك إلى رؤسائه.. ولما جاءت الموافقة.. اشاع رجب خبر عزمه على العودة إلى مصر غانماً بآلاف الدولارات التي جمعها من «أعماله الناجحة» في اليونان. وعندما أشار عليه البعض بإكمال مسيرة النجاح دون العودة - مؤقتاً - إلى مصر.. تملكته نعرة الوطنية المزيفة.. وأقسم ألا يحرم وطنه من خبرته وعبقريته التي يشهد بها الأجانب. وأقيم حفل وداع صغير في أحد الفنادق حضره بعض المصريين الذين صادقهم هناك.. وبعد نهاية السهرة حمل حقائبه وتوجه إلى المطار في طريقه إلى القاهرة.

كان الجو قائظاً في سبتمبر ١٩٧٠ والإسكندرية لا زالت تموج بعشرات الآلاف من المصطافين.. الذين هربوا من لسعة القيظ وحرقة الوهج إلى الشواطئ الممتدة الجميلة وفي شقة الحاج عبد المعطي كانت جموع أخرى من البشر تتوافد لتهنئ الرجل بسلامة وصول ابنه الوحيد من اليونان.

كان الرجل أسعد الناس على سطح الأرض.. وجهه يتهلل بشراً وسحنته تضحك

خطوطها ويرقص قلبه طرباً. والخائن لا يستحي وهو يحكي عن عبقرية مزعومة.. ويختلق اقاصيص الوهم التي لقنته إياها مخابرات العدو.. فأفاض في الحديث والوصف وأضفى على نفسه بطولات وبطولات.

وبعدما استقر به المقام عدة أيام، اصطحب مهندس الديكور إلى مكتبه القديم حيث كانت لافتة «شركة رجب للخدمات البحرية» قد ضربتها الشمس وتشققت قشرة خشبها. وبالداخل كان العنكبوت قد نسج خيوطه فخيمت على كل شيء وبدا المكتب كمقبرة مهجورة.

وبينما كان المهندس يشرح له تصورات وتخيلات الشقة بعد تجديدها..حدث زلزال هز أعماق مصر كلها وضرب فيها الأمل والأمان.. وزحفت جموع الشعوب العربية لهول الصدمة عندما أعلن موت جمال عبد الناصر.

العميل رقم ١٠٤١

امتلأت الشوارع بفيضان من البشر كالطوفان يجرف أمامه هدأة الحياة وغفلة الزمن. زحف من الأحياء يغلي، وكتل ملتصقة من الحناجر تصرخ في هلع وبكاء مرير يمزق القلوب.. وشروخ بدت في الوجوه بفعل الدموع. وتوقفت الحياة ومادت موازين العقل فلا عقل يصدق أن الزعيم رحل.

ودون أن يدري.. بكى رجب، وكان لا يدري أيبكي ناصر الأمل؟! أم يبكي بذور الخيانة التي تعملقت بداخله وعظمت فروعها؟

وود للحظات لو أن أقدام الباكين الحائرين داسته. لكنه سرعان ما استعظم ذاته وأبى ألا يضعف. بل سطر أولى رسائله، وكانت هذه الرسالة هي الخطوة العملية الأولى في عالم الجاسوسية.. رداً على رسالة وصلته بطريق الراديو تطلب منه مراقبة حركة ميناء الاسكندرية وعما إذا كانت اسلحة سوفييتية تتدفق على مصر بعد موت زعيمها الأول أم لا؟ وكانت الرسالة كالتالي:

(رقم ٢) سطور كتبت باللغة العربية بالحبر السري بين سطور الرسالة.

(رقم ١) سطور كتبت باللغة الانجليزية. الاسكندرية ١٩٧٠/١/٢٤

صديقي العزيز باولو:

١- خط عادي: وصلتني رسالتكم العزيزة إلى قلبي وكم سررت بها.

٢- حبر سري: لا زالت أعمال التجديدات في مكتبي جارية.

١- خط عادي: وتعجبت من فعل الزمن يفرق دائماً بين الأصدقاء.

٢- حبر سري: ذلك أقوم بعملي وأراقب الميناء جيداً.

١- خط عادي: ولكنك يا صديقي مهما باعدت المسافات بيننا.

٢- حبر سري ومنذ صباح الأمس وأنا أراقب سفينة سوفييتية ضخمة.

١- خط عادي: تسكن بأعماق قلبي فالأيام الجميلة التي قضيتها معك.

٢- حبر سري: ترسو على الرصيف وحولها حراسة مشددة.

١- خط عادي: في جزر كيكلاديس.

٢- حبر سري: اسمها ستالينجراد، وقال لي زميل قديم بالميناء:

١- خط عادي: أنسى طعم حلاوتها وروعتها والصور التي التقطت.

٢- حبر سري: إن السفن السوفييتية تتردد بكثافة هذه الأيام.

١- خط عادي: لنا هناك تكاد تنطق بمدى شوقي إلى تجديد هذه.

٢- حبر سري: على الاسكندرية ونادراً ما تظل الأرصفة خالية منها.

١- خط عادي: الذكريات الجميلة في جزر بحر أيجه وشوارع ومقاه.

٢- حبر سري: وعلمت أن بعضها تنزل حمولتها بالليل فقط بواسطة.

١- خط عادي: ومتاجر أثينا الساحرة. إن قلبي يرقص طرباً.

٢- حبر سري: الأضواء الكاشفة. ومنذ أسبوع بالضبط نزل.

١- خط عادي: كلما مرت ببالي هذه الأيام الجميلة.

٢- حبر سري: عدد كبير من الجنود والخبراء السوفييت.

١- خط عادي: عزيزي باولو: أرجو أن ترسل لي صورة ابنتك.

٢- حبر سري: في ذات الوقت الذي تفرغ فيه سفن مصرية أخرى.

١- خط عادي: الجميلة بياتريتشي التي لم يسعدني الحظ برؤيتها.

٢- حبر سري: حمولاتها من القمح المستورد من استراليا ومن.

١- خط عادي: خلال زيارتكم القصيرة لليونان. وسوف أحاول.

٢- حبر سري: البرازيل.. وشاهدت عدداً كبيراً من الشاحنات العسكرية.

١- خط عادي: في القريب أن أزوركم في إيطاليا وأرى مدينتكم.

٢- حبر سري: تنقل صناديق خشبية ضخمة بعضها مغطى بغطاء.

١- خط عادي: الرائعة - تريستا - التي تعشقونها. ومن جانبكم.

٢- حبر سري: أزرق أو كاكي وتتجه إلى طريق الاسكندرية.

١- خط عادي: لا تدخروا وسعاً في التفكير بجدية في زيارتي.

٢- حبر سري: القاهرة الصحراوي، وأنزلت سفينتان حمولتهما.

١- خط عادي: مع احتفالات الكريسماس حيث المناخ هنا في.

٢- حبر سري: من الخشب الزان من أسبانيا ورومانيا وتعطلت بالأمس.

١- خط عادي: مصر أكثر من رائع، وبالأخص في صعيد مصر حيث.

٢- حبر سري: شاحنة على الطريق محملة بأجولة السكر المستورد.

١ - خط عادي: آثار أجدادي الفراعنة تفوح منها رائحة التاريخ.

٢ - حبر سري: من الاتحاد السوفيتي وسأوافيكم بمشاهداتي.

١ - خط عادي: تحياتي لكم وتمنياتي بالسعادة الدائمة.

٢ - حبر سري: أولاً بأول، وسوف أنتظر رسائلكم.

١ - خط عادي: رجب

٢ - حبر سري: رقم / ١٠٤١

تحت الميكروسكوب

ومع إطلالة الأيام الأولى في عام ١٩٧١ كان رجب قد انتهى من تشطيب مكتبه. وليس حلة جديدة من بهاء تتفق ورونق أعمال الديكورات الفخمة. التي تدل على ذوقه الأوروبي ويساره.

افتتح المكتب جمع غفير من الأهل والأصدقاء، وملأت إعلانات الدعاية بالعربية والإنجليزية صفحات الأهرام تعلن عن ميلاد شركة خدمات بحرية متميزة.. قادرة على تحمل مسؤوليات الشحن والتفريغ وما يخصهما من إجراءات مع الجهات المختصة.

وساعدته المخابرات الإسرائيلية كثيراً ليحصل على ثقة بعض الشركات البحرية العالمية ليصبح وكيلاً لها في الاسكندرية.. وتحول مكتبه إلى خلية نحل اضطر معها إلى الاستعانة بعدد كبير من الموظفين والسكرتارية، وازدحم المكتب بالزوار وذوي المصالح، وازدادت الخطابات الواردة إليه من الشركات الملاحية ومن رؤسائه في أثينا يغذونه بالمعلومات.. ويلقون أوامرهم وتوجيهاتهم ويدفعونه ليكبر أكثر وأكثر. فازدهرت أعماله بسبب التوكيلات العالمية التي حصل عليها، وصار اسمه مشهوراً ودخوله إلى الميناء بالتصاريح الممنوحة أمراً سهلاً وقويت علاقاته بالموظفين وبالمديرين.

ولأنه يعمل في «المهنة» فقد كان سؤاله عن أحوال الميناء يوماً بيوم أمراً عادياً لا يثير ريبة ولا شكوكاً في نياته.. وهذا هو ما كانت تقصده المخابرات الاسرائيلية.. أي زرع

جاسوس داخل ميناء الاسكندرية يرصد كل أسراره وأوضاعه دون أن يشك فيه أحد. ومرت الشهور تلو الشهور وهو لا يزال يرتقي سلم النجاح والشهرة، ولم ينس أفضال اليهود عليه للحظة واحدة.

إنهم أولى أمره الذين ثبتوا قدميه على طريق النجاح، وهم الذين تسعى مصر ومن خلفها جميع الدول العربية للإضرار بهم رغم قلتهم ومحدودية أرضهم ومواردهم.

لقد أكدوا له أنهم لا يريدون حروباً مع العرب. فهم يدافعون عن رقعة صغيرة من الأرض يعيش عليها أطفالهم وضعافهم. وكلما شن أنور السادات هجماته من خلال خطبه السياسية.. كان رجب يرتعد خوفاً من حماس وعوده بأن هذا العام هو عام «الحسم» لتدمير إسرائيل.. وكثرت الرسائل إلى رجب بطريق البريد والراديو. وتعددت رسائله أيضاً إلى «أصدقائه».

وانحبس النفس في رئتيه هلعاً يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وجنودنا البواسل يعبرون الهزيمة ويدكون خط بارليف الحصين ويكتبون النصر غالياً بدمائهم.

وعندما كانت مصر – بل والأقطار العربية كلها تزغرد للنصر. كان رجب يبكي في مكتبه وينتفض جسده خوفاً وشفقة على شعب إسرائيل الذي يقتله العرب بلا رحمة مجتمعين. وكثرت في تلك الأثناء زياراته للميناء يستقص الأخبار ويستقي المعلومات بجرأة، دون أن يلفت انتباه أحد، لكثرة أسئلته عن السفن الراسية بالميناء وفي الغاطس تنتظر الدخول.

لفتت رسائله المتعددة إلى أثينا وروما انتباه ضابط المخابرات المصري المكلف بمراقبة البريد الصادر إلى خارج مصر والوارد اليها. واكتشف أمر الرسائل المشفرة. وقام جهاز المخابرات المصرية بمراقبة بريد رجب عبد المعطي.. وجرى الكشف عن كل رسائله وصورت وأعيد إغلاق الرسائل بدقة متناهية.. لكي تكون دليل إدانة ضده أمام النيابة وعند محاكمته.

وبينما كان الجاسوس مشحوناً بحماس النصر، وبدأت الخريطة السياسية للمنطقة

تتشكل من جديد. نشط رجب في رصد حركة الميناء المستمرة وأرسل الرسالة التالية إلى صديقه «الوهمي» ديميتريوس في اليونان:

الاسكندرية ٢٧/ ١١/ ١٩٧٤. عزيزي ديمتريوس.

١- خط عادي: تهنئتي القلبية بمناسبة عيد ميلادك السعيد، ولعلك.

٢- حبر سري: سفن شحن متعددة من جنسيات مختلفة تدخل.

١- خط عادي: الآن في أحسن حال بعد الوعكة الصحية التي أصبتم.

٢- حبر سري: الميناء لتفرغ حمولتها من المواد التموينية بكثرة.

١- خط عادي: بها منذ ثلاثة أسابيع. فكيف حالكم الآن؟!!

٢- حبر سري: أيضاً تأكدت من وصول سفينة تشيكوسلوفاكية.

١- خط عادي: أحوالي على أحسن ما يرام، وأنوي إجراء بعض.

٢- حبر سري: تحمل معدات عسكرية في صناديق يصعب الاقتراب.

١- خط عادي: أعمال الديكورات الحديثة بمكتبي، على ذلك.

٢- حبر سري: منها بسبب الحراسة المشددة، ولا زالت.

١- خط عادي: فسأتغيب لمدة أسبوعين على الأكثر على شاطئ.

٢- حبر سري: سفن عربية من الجزائر وليبيا تنزل حمولتها.

١- خط عادي: البحر الأحمر ريثما ينتهي مكتب الديكور من عمله.

٢- حبر سري: من البطاطين والمواد الطبية وسفينة عملاقة.

١- خط عادي: ولسوف أعاود بعد ذلك نشاطي بشكل أفضل.

حبر سري: تحمل علم بنما اسمها «ليليها مر» [٥] محملة بحوالي.

١ - خط عادي: بعد هذه الإجازة التي أتشوق اليها لأتمكن.

٢ - حبر سري: ٢٠٠ جرار زراعي ومعدات زراعية وميكانيكية.

١ - خط عادي: من صيد السمك بعيداً عن زحام العمل ا'توتر.

٢ - حبر سري: مختلفة وسفينة سوفيتية تحمل معدات توليد.

١ - خط عادي: المستمر من جراء المشكلات المتوقعة.

٢ - حبر سري: كهرباء ضخمة وآلاف من الإطارات.

١ - خط عادي: تهنئتي لك مرة أخرى وتحياتي وأشواقي.

٢ - حبر سري: الكاوتشوك مقاسات مختلفة وموتورات.

١ - خط عادي: رجب.

٢ - حبر سري: رقم / ١٠٤١.

فقتلته ظنونه

وأخيراً وبعد أن جمعت المخابرات العامة المصرية كل الأدلة التي تدينه توجهت قوة من رجال المخابرات صباح ١٣ يناير ١٩٧٥ إلى مكتبه.. اعتقد رجب أنهم «زبائن شغل» ولكن.. حينما أخبره قائد القوة بأنه ضابط مخابرات لم يستطع رجب أن يقف.. ظل ساكناً على كرسيه تتحرك ركبتاه لا إرادياً، واصطكت أسنانه فجأة، وزاغت عيناه في هلع لا حدود له.

ومن قبيل الصدف العجيبة أن رجل البريد جاء برسالة من المخابرات الاسرائيلية - مرسلة من الداخل - أثناء وجود المخابرات في مكتبه حيث طلبوا منه حلها.. ووضعوا أمامه كتاب الشفرة التي عثروا عليه في درج سري بالمكتب مع كل أدوات التجسس المزود بها.

لم يستطع رجب استيعاب الأمر على حقيقته. فقد كانت نظرات ذهوله تدل على مدى

الرعب الذي أصابه.. إنهم أفهموه في تل أبيب وفي أثينا أن المخابرات الاسرائيلية لم يحدث لها أن فشلت مرة واحدة في مهامها.. ولكن الفشل يأتي دائماً من العميل الذي قد يهمل تكتيكات الأمان التي يجب عليه أن يلتزم بها ولا يهملها أبداً. فجهاز المخابرات الاسرائيلي - حسبما اقنعوه - أفضل أجهزة المخابرات في العالم.

ابتسم رجب في سخرية عندما تذكر ادعاءاتهم الباطلة، وبينما كانت قافلة السيارات تنطلق به إلى القاهرة - كانت المخابرات الاسرائيلية ترسل بالراديو رسالتها الدورية إلى عميلها:

«ننتظر ردك على الرسالة التي وصلتك.. لا تتأخر، واستعد للسفر خلال شهر مارس إلى أثينا».

وفي مبنى المخابرات المصرية جرى استجوابه فاعترف تفصيلياً - وهو مذهول - بقصة سقوطه في مصيدة المخابرات الاسرائيلية.. وعقدت له محكمة عسكرية وجهت إليه التهم الآتية:

باع نفسه ووطنه للعدو مقابل المنفعة المادية.

أمد العدو بمعلومات عسكرية واقتصادية تضر بأمن الدولة ومصلحة البلاد.

ارتضى لنفسه أن يحمل اسماً يهودياً وجواز سفر يهودياً ورتبة عسكرية يهودية.

التخابر مع دولة معادية «إسرائيل» بقصد الإضرار بالعمليات الحربية لمصر.

التخابر مع دولة أجنبية معادية لتسليمها سراً من أسرار الدفاع عن البلاد.

وحكمت المحكمة بالإعدام شنقاً.. وصدق المفتي ورئيس الجمهورية على الحكم. وأثناء انتظار التنفيذ.. شعر الخائن بعظم جرمه وفداحة مسلكه. وعامله المجرمون والقتلة في السجن معاملة سيئة، وكادوا أن يفتكوا به عدة مرات كلما سنحت لهم فرصة لقائه. وأنزوى الخائن يجتر ذكرياته فتتقلص عضلات جسده.. ومضت عليه عدة أسابيع، ذاق خلالها مرارة الحسرة والذل والمهانة.. ونحتت بدنه عضات الندم.. حتى عثر عليه ذات

يوم ملقى على الأرض بزنزانته وسط بركة من الدم المتجلط وقد عثر على إحدى عدسي نظارته منزوعة ومهشمة.. وتبين أن هناك ثمة قطع غائر بيده اليسرى طال شريانه.

ترى.. هل أصابه مس من العقل وأدرك فداحة جرمه فانتحر؟

أم أنه استشعر الفارق الشاسع ما بين الرفاهية والحبس؟

أو ربما ظن أن الموساد ستنقذه لا محالة فقتلته ظنونه؟ لا أحد يعرف..

لكنه حتماً أفاق بعدما خسر الكثير..

خسر نفسه وأهله ووطنه.. وكل شيء.. كل شيء ضاع..

لكن اسمه سيظل دائماً بقائمة الخونة.. أولئك الذين باعوا عروبتهم بثمن بخس.. ولن يغفلهم التاريخ على مر الأحقاب..!!

* * *

عبدالله الشيعي..

جاسوس الموساد الدميم

دمامته.. أبعدت الحب عنه والصديق، فانطوى على نفسه، تغلفه الوحدة، وتفتته الحسرة والكراهية، يود لو أنه يمتلك المال ليشتري أصدقاء، ومحبين. لكن إنساناً على شاكلته.. يعيش منفرداً منزوياً، لم يجد إلا «الكولية» منفثاً بين أحضان العاهرات.. لقد أحب إحداهن بجنون لكنها رفضته زوجاً لدمامته، فانقلب بعدها وحشاً مسعوراً يبحث عن المال.. حتى ولو كان ببيع الوطن..!!

بيت الكولية

من النيل إلى الفرات، خريطة تحتل مساحة كبيرة على أحد جدران الكنيست الاسرائيلي تذكر اليهود بحلم دولة إسرائيل الكبرى، الذي لم يزل يراود خيالهم. فأرض فلسطين المغتصبة ليست جل آمالهم، فقط هي نقطة بداية وارتكاز، يعقبها انطلاق، وزحف في غفلة منا، لتحقيق الحلم الأعظم.

هكذا.. وعملاً بالتعاليم والأهداف اليهودية، تفشت ظاهرة الخيانة بين يهودي العراق، واستفحل هذا الداء واستشرى، خاصة في الستينيات من القرن العشرين، الذي نشطت فيه الحروب السرية بشكل لم يسبق له مثيل، إذ كلما ضبطت الأجهزة الأمنية في العراق إحدى شبكات الجاسوسية، تكونت بدلاً منها شبكتان، كأن الجاسوسية حالة إدمان يصعب شفاؤها.

وبرغم الأحكام القاسية والمفترض أن تكون رادعة، في ظل قانون حاسم قوي لا يرحم، إلا أن الخونة أخذوا في الازدياد والتكاثر، لا ترهبهم قصص الجواسيس المنشورة بالصحف، أو أحكام الإعدام التي تنفذ، فالدعاية اليهودية كانت تروج الأكاذيب، وتدعي أن محاكمات «العملاء» محض افتراء ودعاية محسوبة، لتخويف المتعاونين المخلصين

مع الموساد، وإزباك تحركاتهم ونشاطاتهم، وبالتالي الوقوع في أخطاء قد تقودهم لحبل المشنقة.

من بين هؤلاء الخونة الذين صدقوا الأكذوبة الإسرائيلية.. عبدالله سليمان الشيعي العراقي ذو الجذور اليهودية.

ولد عام ١٩٣١ بمدينة «الحلة» الواقعة على نهر الحلة لأب عراقي وأم إيرانية كان أبوها يهودياً أعلن إسلامه كذباً.. وعندما وعى عبد الله الحياة، اكتشف حقارة مهنة أبيه «جسّاس المواشي». لذلك سعى بشدة للتفوق في دراسته ليلتحق بجامعة بغداد، بعيداً عن الحلة التي كره الإقامة بها، وتحقق حلمه بعد طول معاناة.

فبعد أربعة أعوام في الجامعة حصل على ليسانس الآداب، وعمل بالتدريس بإحدى مدارس العاصمة، وكان عمره في ذلك الوقت خمسة وعشرين عاماً تقريباً.

لم يذق عبد الله للحب طعماً في الجامعة أو قبلها، فوجهه ذو الأنف الضخم، الذي يشبه أنف سيرانودي برجراك، وفكه البارز جداً أبعد عنه الفتيات، بل وأخاف الأطفال منه، لذلك فقد افتقد الحب والصديق، وانطوى على نفسه تغلفه الوحدة، وتقتله الحسرة والكراهية.

لقد بدأت معاناته الحقيقية بمأساته في طفولته المبكرة، وفي المدرسة الاعدادية بحي الأعظمية، اكتشف دمامة أخرى في صوته، جعلت من مخارج الحروف نشازاً يضحك زملاءه بالمدرسة، ويجعله مصدر سخرية مؤلمة دائماً، فاهتزت ثقته بنفسه وملأه الحقد على كل من حوله، وود لو أنه يمتلك المال الذي يعوض دمامته، لكنه سرعان ما يدرك مدى افتقاده للاثنين معاً، ولم يكن من السهل عليه أن يفك عقده النفسية، أو يحس ببعض الرضا، فشرنقة من العقد أحاطته، وحبسته داخل ظلمة لا حدود لها، حجبت عنه الأمل في إشراقة تتبدل معها حياته.

إنسان على شاكلته يعيش منفرداً، مزوياً في أركان المجتمع، لم يجد له منفثاً إلا في «الكولية» حيث عثر على ذاته بين أحضان عاهرة بالغت في الاهتمام به كزبون دائم لا

يضاجع سواها.

ذات مرة.. سألها عما دفعها لتمتهن الدعارة، فحكت له الكثير عن مأساتها، وكيف هربت من أهلها بعدما خدعها الحبيب، الذي مات في إحدى الحملات العسكرية على الأكراد، وكانت حاملاً منه، فلم تجد ملاذاً إلا بيت الكولية.

دموعها وهي تروي قصتها أوهمته بأنه أحبها. وسيطر عليه هذا الشعور الجميل، فلم ير غضاضة في عرض فكرة الزواج منها، وكم كانت صدمته أشد قسوة رفضته العاهرة.. بسبب دمامته.

حينئذ.. تصاعدت مأساته إلى ذروتها، وغادر بيث الكولية يجرجر خيبة أمله، تفوح منه الكراهية للحياة ولسائر الناس، وفي حجرته وقف أمام المرآة يتأمل وجهه، واستغرقه ذلك وقتاً طويلاً ليفيق على حقيقة أكدها لنفسه، أن الثراء أمر حتمي سيقرب الناس منه، ويجعلهم يتغاضون عن ملامحه الغير مقبولة فإن للمال سحراً خاصاً ووهجاً حلو المذاق يدير الرؤوس، فلا بد إذن من الوصول إليه مهما كانت المصاعب، وبدأ في تنفيذ سياسة تقشف كتلك التي تلجأ اليها الدول النامية لتحسين أوضاعها، وأقسم على ألا يفسد خطة حياته المستقبلية، في أحلك الأزمات عنفاً، بإنفاق دينار في غير مكانه.

كانت الدنانير الستة والثلاثين، وهي كل راتبه، مبلغاً محترماً في ذلك الوقت، وحسب الخطة التقشفية التي وضعها لنفسه، استطاع أن يدخر نصف راتبه، ممتنعاً عن أبسط مظاهر الرفاهية.

ومرت به خمس سنوات عجاف، اعتاد خلالها الحرمان والجوع والبرد، ضارباً بكل إغراءات الحياة عرض الحائط. حتى أقدم على خطبة فتاة فقيرة اسمها «سهيلة»، عاندها الحظ في اللحاق بقطار الزواج ولحول واضح بعينيها، فوافقت على الزواج منه راضية بما قسم لها، وعاشا معاً بمسكن متواضع بحي الكاظمية، كلاهما يشعر ببساطة حظه في الحياة، واغتراب ليس بمرتحل.

بعدما استنزف الزواج غالبية مدخراته، هاجت لديه أحلام الثراء من جديد، فانبرى

بسهيلة ذات ليلة يذيقها معسول الكلام، ثم فاتحها بفكرة راودته طويلاً من قبل، وهي استئجار مطعم صغير بثمن مصاغها، تقوم على إدارته بنفسها طوال تواجده بعمله، لكنها بدلاً من الموافقة أعلنته بخبر مولودهما القادم، فزلزله الأمر وغرق في تفكير عميق، فمن أين له بمصاريف الضيف القادم؟ وأخيراً لم يجد مفراً من العمل فترة مسائية، فجاب شوارع بغداد يسعى إلى عمل إضافي، إلى أن اهتدى بعد ليهودي اسمه خوجه زلخا، كلفه بمساعدة ابنته المعاقة في دروسها.

سر عبد الله كثيراً ولم يضيع وقتاً، وقال في نفسه إنها فرصة طيبة يجب أن يستغلها جيداً، إذ ربما تفتح له أبواباً أخرى للرزق.

العسل المعسول

قادته الخطى إلى حي الرصافة بوسط بغداد، حيث بيوت الأثرياء ذات الحدائق والأسوار، وقصور طالما مر أمامها كثيراً فتثور برأسه آلاف الأسئلة، ويردد: هل ساكنوها تلسعهم أحياناً عضات الجوع والعوز؟

أي أناس هم؟

وكيف يعيشون على ضفة دجلة؟

أفاق أمام منزل خوجة زلخا، وقاده خادم عجوز إلى حجرة الصالون، فراعه كل ما وقعت عيناه عليه، وانتبه لخطوات تبدو قادمة، فقام مسرعاً وتهيأ للقاء، وبينما يهذب قميصه ويتحسس هندامه، كانت هي بالباب تبتسم، اقتربت منه محيية مرحبة في لطف، وعندما مدت يدها اليسرى للسلام، لاحظ قصراً كبيراً بيدها اليمنى، ناتجاً عن عيب سببه لها شلل الأطفال، دخل في إثرها زلخا مرحباً ودوداً، وهتف قائلاً: «ابنتي إيرينا» التي جئت من أجلها، أريدك أن تعلمها الإملاء والحساب، ودعاه لزيارة تلميذته في أي وقت، ولا يبخل عليها بعلمه الغزير.

جلس عبدالله كالتلميذ أمام إيرينا ذات السبعة عشر ربيعاً، ألجم حسنها لسانه،

وانتشى لبشاشتها معه وتبسطها في الحديث، ولم يلحظ في عينيها تلك النظرة الموجعة التي اعتادها طوال سني عمره الـ ٣٥، فأحاط نفسه بأفكار وأوهام عديدة، صورت له خيالات الحب وارتعاشات نبضاته، وود لو أنه لثم أظافرها في خلوتها التي تطول وتطول، فلكم كان يتمنى ألا يمضي الوقت لينصرف مغادراً قصر الأحلام ومليكته، إلى منزله الرطب الموحش ووجه سهيلة الحولاء.

اختلس ذات مرة لمسة من يدها، بدت كما لو أنه يعلمها ضبط الحروف، فاقترب بوجهه منها، وحانت منه التفاتة إلى صدرها المتكور في أنحناءاتها، فانتفض بدنه كله لمرأى الوادي الأسيل، وأسكرته رائحة العطر الفواح يتخلل جسدها المثير، وشهق كمن يستغيث فانتبهت، وأدارت وجهها فجأة تجاهه فلامس خدها خده، لينكب كالثور الجائع على شفتيها يمتص رحيق الشهد ومذاقات العسل المعسول.

غابت الصغيرة بين أحضانه مستسلمة وهو يداعب أنوثتها، ويوقظ لديها رغبات دفينة تأججت نيرانها، وعاد بعدها زاحفاً إلى بيته لا يدري كيف حملت ساقاه سكيراً لم يذق خمراً..!؟

لقد نشأ منذ البداية هشاً كارهاً للناس، ناقماً على ظروفه ودمامته، يحلم بالمال الذي سيجلب له العطف والحب، وعندما أدركهما عند إيرينا المراهقة اليهودية، أسلم قياده بل حياته كلها رخيصة لأجل لحظة حب.

هكذا يسقط الضعفاء سقوطاً مدوياً سهلاً وقد عصرتهم المعاناة بأشكالها المختلفة، فهم تمردوا على واقعهم وداسوا القيم، لأجل لذة ما حرموا منها، والبحث عن هؤلاء في خضم البشر المتماوج، هين عند الخبراء وصائدي الجواسيس، ذوي الأنوف الماهرة في التقاط رائحة الضعف لديهم.

وقد يتساءل القارئ: ماذا سيقدم هذا الدميم المزوي المنبوذ إلى المخابرات الاسرائيلية؟ والمتتبع جيداً لقصص الخونة، سيرى أن حالة عبدالله الشيعي ليست فريدة في عالم الجاسوسية، فالموساد كغيرها من أجهزة المخابرات العالمية الأخرى، تتخير

جواسيسها من كل الفئات والألوان والثقافات دون تمييز، فما يهم هنا هو الإخلاص في العمل.. والولاء اللانهائي.

فقد كان هناك الجاسوس المصري سليمان سلمان، راعي الإبل ابن سيناء، الذي كان لا يقرأ ولا يكتب، جندته الموساد بعدما محت أميته، ودربته تدريباً مكثفاً على فنون التجسس، وابتكرت له شفرة خاصة تعتمد على الحروف الأبجدية العربية والصور، يستطيع بها بث رسائله من خلال جهاز اللاسلكي المتطور الذي سلموه له، فماذا كانت الموساد تنتظر من هذا الأمي، الذي سقط وأعدم بسبب خيانته وغبائه؟ إذن فلا نندهش أمام حالة هذا الجاسوس العراقي الدميم..!!

فعالم الجاسوسية الغامض المثير مليء بالأسرار والمتناقضات، لذا.. فهي حقاً مثيرة جداً، قصص الخونة والجواسيس، تستهوي العقول على اختلاف مداركها وثقافاتها، وتنقلها إلى عوالم غريبة، مختلفة، تضج بعجائب الخلق وشواذ الأنفس، فعلماء النفس والإجتماع عجزوا في فهم أولئك الخونة، وفشلوا في الكشف عن بذور الخيانة لديهم، أين توجد؟.. وكيف تمددت لتتشبث جذورها بالشرايين عندهم والخلايا وتتحول في لحظات إلى أحراش مظلمة بأعماقهم؟ فلكل جاسوس قصة، ولكل خائن حكاية غلفها العجب.

جاسوس تحت التمرين

لم يدر بخلد عبد الله الشيعي أن هناك عقولاً تخطط كي يسقط، أو أن إيرينا الصغيرة التي تبسمت له، كانت وسيلة جره واصطياده، وكانت بشاشتها وملاحتها مجرد طعم لاستدراجه إلى وكر الجاسوسية، فبعدما احتواها في المرة الأولى، استعذب مذاقها وطمع في المزيد، فنهرته بلطف أقرب إلى تمنع الرغبة.

ففي بيتها التقى باليهودي الإيراني عوازي سليمان، عميل الموساد المدرب، ودارت بينهما الأحاديث المطولة، التي استشف منها العميل أن عبد الله لا يحلم سوى بالثراء، فلعب جيداً على هذا الوتر، وطير بخياله إلى أحلام طالما عايشته في اليقظة، فتهفت نفسه إلى صعود درجات الغنى، مهما كان الثمن فادحاً.

ولتكتمل خطوط القصة.. أوهمه عوازي بأنه يمتلك عقلية فذة، وهو بحاجة إليه لإدارة إحدى مؤسساته التجارية التي يزمع إقامتها في بغداد، ومنحه مائتي دينار مقابل عمل دراسة اقتصادية للسوق.

نشط عبدالله في البحث والتحري، وكتابة تقارير اقتصادية مستمدة من ملفات وزارة الاقتصاد، حصل عليها بمساعدة زميل دراسة اسمه جواد مقابل أربعين ديناراً.

أدهشت التقارير عميل الموساد، إلا أنه أخفى دهشته وادعى تفاهتها، وفوجئ عندما صارحته إيرينا في انفرادهما بأنها تحبه، وطلبت منه أن يبذل قصارى جهده في التعاون مع عوازي، كي تنتعش أحواله المادية فيتزوجا. فقد عقله أمام اعترافها بحبه، ولم يسأل نفسه لماذا؟ أعبقرية فجائية ظهرت عليه؟ أم أن دمامته تبدلت بوسامة جون كونري، وجاذبية كلارك جيبل؟ خاضعاً وعدها بألا يتوانى في العمل من أجل الفوز بها، عازماً على خوض الصعاب بلا ضجر أو كلل، هكذا كانت البداية. ومن هنا تبدأ عملية صناعة الجاسوس!!

كان على قناعة تامة بأنه «أخضر» لم يشب بعد، ولذلك استسلم لمعلمه عوازي يشرب على يديه حرفته الجديدة، فأخضعه لدورات أولية في جس نبض الشارع، واستطلاع آراء العامة من الناس في السياسة والاقتصاد، وكيفية تلقط الأخبار والأسرار، زاعماً له أن هذا مفيد جداً للمؤسسة التجارية، حريصاً على ألا يتفهم الجاسوس الجديد طبيعة مهمته، حتى لا يتصرف بحماقة فتفشل المهمة.

وانطلق عبد الله بجمع المعلومات ويحصدها حصداً، لعله ينال رضا إيرينا وعوازي فتتبدل حياته، ويقترب من تحقيق الحلم، وللمرة الثانية يتهمه العميل الاسرائيلي، بأنه يجلب معلومات مهمشة لا قيمة لها ولا نفع، فيسأله عبد الله سؤالاً ساذجاً: ما لهذه الأمور والمؤسسات التجارية؟

وكأنه ضغط على مفتاح تفجير الديناميت بسؤاله البريء، ما الذي جرى؟ سألت إيرينا محتدة.. تلعثمت الإجابة على لسانه، وعاوده شعوره القديم بالخوف والضياع، وصرخت به ثانية تسأله: ماذا فعلت؟ لم ينطق. الدهشة المزوجة بتقلصات التوتر تملأ

وجهه. يتركهما عوازي ويخرج فتعاوده جرأته شيئاً فشيئاً فيسأل إيرينا: ما العمل؟ تتركه هي الأخرى يغرق في اضطرابه، وتلحق بعوازي في حديقة المنزل.

كان عوازي هادئاً مبتسماً على عكس حاله مع عبدالله منذ ثوان. وحدثها ببضع كلمات فعادت إلى تلميذها الخائب، فما ألطفه من تلميذ يجلس على حافة المقعد يفرك يديه قلقاً.. تستغيث بها نظراته اللهفى..

برقة فيها ملاحة وذكاء، أفهمته مدى الخطأ الذي ارتكبه عندما سأل عوازي، وطلبت منه ألا يعاود السؤال مرة أخرى عما يطلب منه من معلومات أو إيضاحات. فالعمل التجاري سوف يفشل إذا لم تكن هناك دراسة متأنية عن أحوال البلد تجارياً.. واقتصادياً.. وعسكرياً..

دخل عوازي الغرفة في تلك اللحظة ليقرأ دهشة عبد الله فيعقب: نعم يا صديقي، مهم جداً أن نعرف كل شيء كي لا نضحي بأموالنا هباء. نحن مجموعة من رجال الأعمال الإيرانيين، نود إقامة مشروعنا في أمان، فماذا لو أن هناك اضطرابات في السوق العراقي؟ ألا يجب أن نطمئن لنعمل بثقة؟ فاستقرار السوق هنا واضطرابه له صلة وثيقة بالسياسة. والجيش يتحرك ويتطور تبعاً للسياسة.

وضحت المسألة إذن؟ سألت إيرينا وأردفت: قم معي عبدالله اشتقت الآن لدروسي.

أغلقت حجرتها وراءهما قبل أن تستجيب لشراهة قبلته، وطالبته راجية بألا يقصر في مهمته التي ستعود عليهما معاً بالخير الوفير!!

منذ ذلك الحين انطلق عبدالله بلا أدنى خوف أو قلق، تدفعه رجاءات إيرينا ولهفته عليها، وبعد أربعة أشهر اكتشف حقيقة مهمته وظن أنه يعمل لصالح السافاك في إيران، وبرغم ذلك.. لم يتوقف أو يتخذ مساراً عكسياً، فقد كان المال وما يزال حلمه الأول الذي يسعى إليه، أما إيرينا فكانت حلمه الثاني الذي لن يتحقق إلا بالأول.

تعهده عوازي في كل زيارة له بدورات تصقل موهبته في إدارة الحوار، وملاحظة

الأشياء بعيني جاسوس فاهم، وكانت لقاءاتها تتم كالعادة في منزل خوجة زلخا، الذي اصطحب أسرته على حين فجأة إلى إيران، ودون أن تودعه الحبيبة الصغيرة إيرينا الوداع الأخير.

صدمته كانت قاسية برغم تأكيدات أستاذه بعودتهم، إلا أن إحساساً تملكه بأن لن يراها مرة ثانية، فقد وقعت نكسة ١٩٦٧ واتسع جرح الألم العربي، وظلت زوجته لأيام طوال تبكي فتعجب لأمرها، وقال لنفسه: لو لم تكن هذه الحرب ما هربت إيرينا، ألا ينتهي هذا الصراع وتتوقف الحروب؟

البحث عن خونة

.. ليس من السهل شراء الذمم فجأة. بل يتم ذلك بعد دراسة مستفيضة لكل الظروف النفسية والاحتمالات، هكذا يقر خبراء أجهزة المخابرات السوفييتية، أول من وضعوا قواعد علمية ثابتة للسيطرة على الجواسيس.

إلا أن رجال الموساد - في حالات كثيرة - يرفضون العمل بنظرياتهم، فبينما يرى السوفييت أن محاصرة الشخص المطلوب تجنيده ومباغتته في أسرع وقت، دون أن يجد فرصة للتفكير، أسهل وسيلة لإخضاعه إذا ما كانت هناك أدلة - ولو ضعيفة - تدينه. ونجحوا في تأكيد ذلك من خلال تجنيد دبلوماسيين غربيين ذوي شأن، سقطوا بسهولة مدهشة في قبضتهم دونما مقاومة.

على النقيض من ذلك نجد أن الموساد قد تلجأ لوسائل وحيل غريبة، تستغرق وقتاً أطول من اللازم لإخضاع الجواسيس، والثقة في نظرية «تليين الهدف المتدرج» وعدم اللعب بأعصابه، أمر مهم عند الموساد.

فهناك خونة كثيرون سقطوا في براثنها دون أن يعلموا بأنهم عملاء لها. إنه إذن في الإقناع والايحاء، ودراسة سلوك العميل ومداركه واعتقاداته، والمقدرة على تشكيل آرائه وثقافته من جديد، بما يخدم قضيتهم التوسعية وأمنهم.

هذا التباين في أسلوب السيطرة ومدته، نلحظه أيضاً في شتى أجهزة الاستخبارات. فلكل جهاز أسلوبه القائم على نظريات وضعها خبراء متخصصون، ولكنه يؤدي في النهاية إلى اصطياد العملاء وتجنيد الجواسيس، وهذا هو المهم. خطا عبد الله خطواته الأولى كجاسوس، يعتقد بأنه يعمل لصالح المخابرات الإيرانية «السافاك» ونشط جاهداً في البحث عن أخبار القواعد الجوية القريبة من بغداد – وبالأخص قاعدة الرشيد الجوية –، وملاحظة التغييرات والتجديدات بها. واستطاع أن يتوصل لأسماء أنواع جديدة من الرادارات السوفييتية، وعندما حمل كاميرا التصوير الصغيرة، التي في شكل ساعة اليد، عجز عن تشغيلها بمهارة وارتجف ساعده، وخبأ الميكروفيلم بقاع سحري بحقيبة يد صغيرة.

وفي رحلة أخرى لمعاودة التصوير اصطحب معه زوجته، وفي الطريق بقرب إحدى القواعد العسكرية، لاحظت سهيلة توتره وإتيانه بحركات غريبة ويده على كتفها.

لم تفهم في بادئ الأمر، ولما حدقت في الساعة الغريبة بعيني فاحصة، أدركت الحقيقة. فكتمت سرها وراحت تراقب أفعاله وتصرفاته.. حتى اكتشفت مخبأ «الساعة الكاميرا» في كعب حذائه الجديد، فأسرعت إلى مخفر الشرطة بالقرب من المسكن، ولم يصدق الضابط الصغير اعترافها، فأبلغ فوراً الأجهزة الأمنية المختصة. وتقوم حملة مفاجئة تكتسح الدار فجراً أثناء نومها، فترشد سهيلة عن الكاميرا، ويصعق عبدالله لا يصدق أنها النهاية، وبينما عملية التفتيش مستمرة يغافل حراسه ويضرب راسه في عنف بالحائط، ويحملونه بأنهار دمائه إلى التحقيق، وكانت أدلة خيانته المضبوطة، بالإضافة إلى اعترافه، تذكرة دخوله لحجرة الاعدام.

هكذا غاصت أحلام الدميم في قاع الوهم، وظل طيلة أشهر المحاكمة مصراً على أنه متورط مع السافاك لا مع إسرائيل، لكن القرائن كلها كانت تدينه، وتؤكد عمالته للموساد. إنها الحالة الأولى لجاسوس عراقي، خدعه أستاذه وأقنعه بأنه عميل لإيران، أو لنقل أنه ربما ادعى ذلك حتى آخر لحظة لينجو من الإعدام.

أيضاً.. إنها إحدى الحالات القليلة لجواسيس يعملون منفردين في العراق بلا شركاء، أو شبكة من العملاء المحليين.

وفي زنزانته الانفرادية الضيقة قبل إعدامه بأيام قليلة، أصيب بمغص حاد كاد يفتك به فنقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية الزائدة الدودية، ثم عاد إلى السجن ليعدم شنقاً في ٢٨/٣/١٩٦٨، وعثروا في زنزانته على دفتر صغير سجل به مذكراته، وضمنه أدق تفاصيل حياته وآماله التي لم تتحقق، وقد أفرد مساحة كبيرة لوصف حبه لإيرينا، وثقته بأنها أحبته كما أحبها.

لقد عاش عبدالله سليمان معقداً.. مطحوناً.. واهماً..

وأعدم وهو ما يزال واهماً.. تحفه خرافات المشاعر، يأبى أن يصدق أنه كان غبياً.. أبلهاً..

أما سهيلة.. فقد وصلت أمنيتها لمسؤول كبير، فأرسل بها إلى «يوغوسلافيا» لإجراء عملية جراحية تقضي على «الحول» نهائياً، وزف اليها خبر إعدام عبدالله، فعادت إلى منزلها تترقرق بعينيها الدموع.. دموع الحسرة، على مصير رفيق حياتها..الخائن..!!

* * *

نايف المصطفى..

الذي أعدمه السجناء..!!

كان يشعر بأنه كالموجة ضعيف.. بلا وطن.. ففكر كيف يتمحور..يتشكل.. ويصطخب على ألا ينكسر.. تمنى أيضاً أن يتوحش.. وتكون له أنياب الأسد.. وأذرع الأخطبوط.. وسم الأفعوان..

كان قزماً يحلم بأن يتعملق.. كالكيكلوبس.. الذي فرك سفينة أوديسيوس بأصابعه..!!

القتل في المهد

الفشل في الحب مأساة، قد تدفع بالمحبين إلى قمة النجاح، أو تهوي بهم إلى حضيض المعاناة والسقوط. ويختلف مسلك المحبين في مواجهة الحقيقة، فالبعض إما ينتحر، أو يجن، أو ينعزل، أو يسامح، أو قد يفكر بالانتقام.

أمراض عديدة متباينة، لكنها طبيعية في حالات الضعف الإنساني وخور الإرادة. أما الغير طبيعي، أن يتحول الفشل في الحب إلى ثورة نم الجنون واليأس، تدفع إلى تدمير الذات، واسترخاص بيع الوطن إلى الأعداء، فهذا هو المثير، والغريب، والمدهش.

وفي عالم المخابرات والجاسوسية، هناك حالات عديدة لفاشلين في الحب، بسبب العوز المعيشي، اندفعوا يبحثون عن الثراء، فباعوا المبادئ والوطن، انتقاماً من الفقر والظروف، والمعاناة.

إنها حالات مرضية شاذة، حار علماء النفس في تفسيرها..!!

انتهت مأساة سبتمبر ١٩٧٠ الدامية في الأردن بتصفية المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل، واستراح الملك قانعاً بثبات عرشه طالما غادر الفلسطينيون مملكته، محتفظاً بقنوات اتصالاته السرية بالإسرائيليين، الذين استراحوا كثيراً من تهديد الفدائيين في جبهة

حساسة، تعتبر امتداداً جغرافياً للمقاومة في الضفة الغربية وقطاع غزة. فمن بعدها.. أصبح العمل الفدائي في الضفة محدوداً وشاقاً، وكان المكسب ثميناً لإسرائيل بلا شك، تقابله خسارة جسيمة للعرب، وهي تفكيك الجبهة الشرقية، وتركيز العدو على الجبهتين المصرية والسورية فقط.

ولما انتقلت فصائل المقاومة الفلسطينية إلى لبنان، اتفق كل من العماد إميل البستاني قائد الجيش اللبناني، وياسر عرفات، على تنظيم اسلوب التنسيق والتعاون. بحيث يتمركز رجال المقاومة في منطقة «العرقوب» بالقرب من الحدود السورية - اللبنانية - الإسرائيلية، ولهم مطلق الحركة في الجنوب اللبناني دون تمركز دائم فيه.

والجنوب اللبناني، يعتز أهله بإطلاق اسم «جبل عامل» على ديارهم.. كما يعتزون بأنسابهم العربية الأصل،والتي تنحدر من أنساب قبائل يمنية ارتحلت بطون منها إلى جبال لبنان الجنوبية، فاستقرت وعمرت وأعمرت. والمعروف أن الصحابي الجليل «أبوذر الغفاري» كان قد نزل في قرى الجنوب وخاصة ضيعتي «صرفند» و«ميس الجبل».

ولما اقتلعت الهجمة الاستيطانية الصهيونية الشرسة، آلاف الفلسطينيين من ديارهم في شمال فلسطين، لم يجدوا أرحب من قلوب أبناء الجنوب، فأقاموا بينهم، واقتسموا وأياهم الخبز الأسود، ووطأة الاستغلال الطبقي والقهر الاجتماعي والسياسي، إلى أن وصلت طلائع الفدائيين الفلسطينيين، فأحدثت تحولات جذرية وعميقة في كل مجريات الحياة في الجنوب.

وكانت فاتحة عهد جديد، انعقدت فيه عرى علاقة تحالفية لا انفصام فيها بين الفلسطينيين و«العامليين»، أهل الجنوب، إذ تشكلت على الفور قواعد العمل الثوري ضد العدو، وأصبح الجنوب وحدة قاعدة انطلاق الفدائيين، وتسللهم لضرب العدو داخل حدوده في تصعيد دائم لا يتوقف، سبب صداعاً مزمناً لإسرائيل.

لقد انتشر الفدائيون في كل القارات يضربون مصالح إسرائيل ويتصيدون رجال مخابراتها، ويخطفون الطائرات المدنية لإنقاذ زملائهم من الأسر، كما تسابقوا للعمل

الفدائي لنسف أحلام العدو في الهيمنة والأمن والاستقرار والتوسع، فكانت الضربات الفدائية بحق موجعة ومؤثرة، ضربات متتالية لا تنقطع ولا تخيب، لفتت انتباه العالم إلى وجود شعب مطارد وأرض مغتصبة، وجيل من الشباب متعطش للشهادة في سبيل قضيته، فاندفعت مخابرات إسرائيل تبحث عنهم وتتعقبهم، وترصد تحركات قادة العمل الثوري في كل مكان. وتضاعفت ميزانية أجهزة المخابرات الإسرائيلية للإنفاق على ضرب المقاومة وإسكاتها في مهدها واستقطاب بعض الخونة وضعاف النفوس من بين أهل الجنوب اللبناني، وداخل صفوف المقاومة نفسها، والصرف عليهم ببذخ ليكونوا أداة طيعة وعيوناً على الفلسطينيين.. وجرى البحث عن هؤلاء الخونة الذين تراودهم أحلام الثراء، فيهون عليهم بيع الوطن والشرف.

وكان تحت المجهر «نايف المصطفى» ابن الجنوب.. وهو شاب عضه الفقر، ومزقه حب بلا أمل، قادته أحلام الثراء ورغبة الانتقام إلى الوقوع في شركة الجاسوسية.

البوسطجي العاشق

تتعاقب السنون وتتبدل الوجوه والأحوال، إلا نايف، فلم يزل يدفع بدراجته المتهالكة كل صباح عبر التلال والمدقات.. يحمل البريد إلى الضياع والدور المتناثرة فوق السفوح، وفي المساء يرجع مهدوداً معفراً يخنقه الزهق.. فينفض عنه وساخاته ويخرج.. تقوده قدماه إلى حيث يرى منزلها من بعيد، ويتنسم رائحتها عبر الهواء المار بشرفتها، فيستريح وينام قرير العين، مطمئن الفؤاد، يسترجع في خياله لحظة اللقاء الأول، ورعشة الحب التي تشبه دبيب نمل بأوصاله.

كان يسلمها رسالة من عمها، فرآها جميلة أكثر مما رآها من قبل وهتف:

إلى هذا الحد نضجت الصبية؟

يا لفوران بنت الخامسة عشرة التي استغلق عليه الكلام أمامها.

ست من السنوات تفصل بيننا، يا الهي.. هل تعرف نظرات العشق طفلة؟..

ومن يومها.. ظل يمني النفس بالفوز بها.. ويبحث كل يوم عن خطابات من عمها ليحظى برؤيتها، أو يلمس أناملها الرقيقة الناعمة. وأخيراً تحين الفرصة عندما استوقفته تسأله عن «بريد» فاندفع اليها ملسوعاً بلهيب الشوق وصارحها بحبه..ففرت وجلة من أمامه.

لحظتئذ، زغردت حياته وانتشى عمره:

هكذا تفعل العذاراوات عندما يغزوهن إطراء الحبيب وعبارات الغزل.

عامان والبوسطجي العاشق يلهث وراء محبوبته، فما نال منها سوى ابتسامات خجلى، حيية.. ولملم جرأته أخيراً.. وقرر زيارة والدها ليخطبها، وكان اللقاء عجيباً:

عمي عدنان..

هه

كرمال قيمتك يا عمي..

خبرني عما بتريد

لا تهيبني.. الله معك..

شو.. الحين لسانك عطلان وبالشارع فلتان؟

يا عمي، بدي.. أ.. أ..

يا أزعر..

معي ألف ليرة.. و..

فصين مخي ورمانين.. عمي عدنان كرمال قيمتك.. لا تهيبني.. معي ألف ليرة.. شو عم تحكي؟

إنشالله نيتي خير.. بدي.. أ..

ولشو هالفرك..؟ حكي.

أخطب فاطمة.

«صارخاً»:

إنشلح مخك يا خرفان.. شو عم بتنعوص؟.. وزاع البريد يزوج فاطمة؟.. شو يصير حالها.. تاكل مظاريف..؟ بيظهر تركب وراك الدراجة المسخسخة تمرقوا عالبيوت.. كرمال قيمتك يا عمي.. (!!)، تفو عليك شو نيتك عاطلة!

يللي نيته عاطلة تقلب عليه.

صار لازم تفرجينا عرض كتافك يا مسيو.. ألف ليرة (!!!).

خرج نايف ينزف ألماً وكراهية لفقره، ولوظيفته، ولوالد فاطمة الذي أهانه وطرده، فالأربعمائة ليرة - راتبه في مصلحة البريد - لا تكاد تكفي معيشته.

جرجر معاناته تصحبه أينما حل، إذ اندثر بداخله أي أمل في فاطمة، ولكن برغم إحساسات يأسه فقد ظل حبها يثور كالبركان، يضرب جذور وعيه بلا رحمة، ويغوص في عمق أعماقه، فيلتهم الصبر منه ويغتال الحبور.

فكر بالسفر إلى الخليج لجلب مهرها، وداعبته كثيراً آمال الهجرة إلى وطن آخر، وكان كالبحر الشاسع موجاته حيرى بلا وطن، تتكسر على صخور الشط، لتنقسم رذاذات شتى، تذوب وتنهمد.

وأحس كأنه ضعيف كالموجة ففكر كيف يتمحور، يتشكل، ويصطخب على ألا ينكسر، وتمنى أن يتوحش، وتكون له أنياب الأسد، وأذرع الأخطبوط، وسم الأفعوان.. أو يكون عملاقاً مرعباً كالكيكلوبس الذي فرك سفينة أوديسيوس باصابعه.

أحلامه طالت، وطالت، وبقي في النهاية عاجزاً أمام فقره لا حل لدحره.. أو الفكاك من أحلام يقظته. فغاص في أوهامه مستغرقاً حتى النخاع.

عام ١٩٤٢ ولد نايف حسين المصطفى بقرية البستان على مقربة من الحدود اللبنانية الإسرائيلية، وكان أبوه بائعاً جائلاً للملبوسات الرخيصة، يطوف بها عبر القرى المحيطة يصحبه نايف – أكبر أبنائه – أحياناً كثيرة. ولما فشل في التعليم بعد الابتدائية، امتهن نايف العديد من المهن فلم يوفق، إذ كان طائشاً أهوجاً لا طموح لديه، همه الأول والأخير، السينما وأخبار الفن والطرب، فكان كثير الهرب إلى صور وصيدا لإشباع هوايته. فلما مات والده كان في الثامنة عشر من عمره، وتوسط البعض له للحصول على وظيفة بمصلحة البريد.

وبحكم عمله كموزع للبريد، حفظ الدروب والمدقات الجبلية الوعرة، التي تختصر المسافات بين القرى الجبلية في الجنوب. فلسنوات طويلة اعتاد اختراقها بدراجته، متجنباً الأسلاك الحدودية الشائكة، ويافطات التحذير من الألغام المرشوقة، تعلن بالعربية وبالعبرية عن الموت الجاثم بالأعماق، وخلال جولاته اليومية.. ونادراً ما كان يصادف إنساناً يسلك ذات الدروب.

لكن في أواخر عام ١٩٧٠.. تبدلت مشاهداته اليومية، وأدرك بفطرته أن ثمة مستجدات طرأت، فقد صادفه ذات صباح بمكان موحش خال فريق من الفدائيين الفلسطينيين، كانوا يستطلعون تحركات الأعداء على الحدود بنظارات الميدان، ويرسمون خرائط كروكية لنقاط المراقبة.

لقد أدهشهم مروره الفجائي فاستوقفوه، وألقوا عليه عشرات الأسئلة عن العدو.. وعن سكان المنطقة، وأماكن الاختباء المثلى لمراقبة العدو، وكيفية اجتياز الحدود في الظلام، و.. و.. وكانت إجاباته ليست حبلى بما يجهلون، فموزع البريد لم يعر هذه الأمور انتباهاً منذ وعي. إنه لا يحب السياسة أو الخوض في أحاديثها، بل يجهل كثيراً أسباب الخلاف بين العرب وإسرائيل.. لكنه لم ينسى يوماً مقولة سمعها من والده وهو طفل أغر: «هذه الأسلاك قاتلة، فلا تغامر وتقربها» فشب الصبي وقد رسخت بداخله مخاوف الحدود والأسلاك والرصاص.

ويوماً بعد يوم، اعتاد تواجد الفدائيين الشبان، الذين يجوبون الجبال قرب الحدود، يرصدون ويرسمون ويسجلون، ولا يهدأ بالهم وهم منغرسون في الحفر بانتظار ستائر الظلام، يلوكون على الأرض ويلحسون الزلط البارد كي يهدأ الحلقوم المتشقق.

«يا لكم من مجانين، تهجرون الحياة في أضواء المدن، إلى الجبال والجوع والعطش والحدود واليهود والرصاص..؟ ألا أهل لكم وأحلام وحبيبات؟!!».

تساءل كثيراً مع نفسه لكنه لم يفهم.. فكل ما أدركه أن هناك دروباً ومسالك جبلية لم يكتشفوها بعد.. آثر هو أن يسلكها بعيداً عنهم، حتى لا يستوقفوه كعادتهم ليسألوه ذات الأسئلة التي مل تكرارها.

وفي أبريل ١٩٧١ كانت مصادفة عجيبة، وبداية البحث عن «نايف» الآخر الذي طالما حلم به وتمناه، بداية البحث عن العملاق الذى أكل جلدة الضعف، واستوثقت لديه أحلام التوحش، والكيكلوبس.

كلمة شرف

جاء الربيع مونقاً، واكتست الجبال ثوباً من بهاء وجمال، فتعانقت أشجار «الأرز» والصنوبر والتفاح، تحوطها أبسطة تزحف فوقها كل الألون وتتمايل، فأينما امتد البصر لا يرى سوى لوحة بديعة صاغها خالق الكون في إعجاز وجلال.. ومن بعيد في سهل ضيق اعتاد نايف أن يمر بدراجته، منشغل عما يؤرقه بالأطيار والأزهار، يغني بصوت مبحوح، جريح، يائس.

ع كتف هالغيمات..

ع حدود السما..

بحبك متل حب الصبا للولدنه..

أو متل بوسة ناظرة رأس السنة..

إنت بعمري عمر خايف ضيعو..

لو راح مني بروح من كل الدني..!

وذات يوم ربيعي، بينها العاشق المحزون شارد الذهن في ملكوته، إذا بشخص أمامه لا يعرفه، ليس في أواسط العمر كشباب الفدائيين الذين اعتادهم، بوجوههم التي لفحتها الشمس، والأيدي الخشنة المعروقة، لكنه قارب الخمسين.

جلسا سوياً يتجاذبان الحديث.. وأخبره «زياد» - وهذا اسمه الذي ادعاه - بأنه تاجر فلسطيني يسعى لبيع البضائع الرخيصة المهربة عبر الحدود، وفتح حقيبة صغيرة أخرج منها بعض الساعات والولاعات والأقلام، ولاحظ نايف جودتها ورخص سعرها قياساً بمثيلاتها. ولأنه تاجر قديم، ومأزوم يبحث عن مخرج، فقد عرض على زياد مشاركته، على أن يمنحه مهلة للغد ليأتيه بثمن بضاعته.

لم يجبه «التاجر» فوراً، بل أخذ يسأله - بشكل بدا عفوياً - عن أحواله المعيشية، فشرح له تفاصيلها، وقص عليه مأساة حبه الفاشل، ورغبته الملحة في أن يزيد دخله لكي يتجاوز خط الفقر الذي يكبله. وسلمه زياد السلع التي جلبها، وتواعدا - بكلمة شرف - على اللقاء بعد أسبوعين في ذات المكان والوقت.

انطلق نايف سعيداً بالصفقة التي حققها.. فها هو مصدر للكسب جاءه سهلاً مريحاً، وفي صيدا - حيث السوق الكبير - كاد أن يصرخ من الفرح عندما باع بضاعته بثمن خيالي فاق حساباته. وما أن حل موعد اللقاء، إلا وكان سباقاً لملاقاة صاحبه، يأمل في ألا يموت هذا الحلم الحقيقي.

وجاء رفيق تجارته يحمل حقيبة أكبر، فتحاسبا، وانصرف كل لحاله منشرح الصدر بما كسبه.. وقال نايف لنفسه:

«سأطلب من زياد أن نلتقي مرة كل أسبوع بدلاً من أسبوعين».

إنه يكاد يجن..فقد نفدت بضاعته في وقت محدود. وتجار صيدا ألحوا عليه أن يجيئهم بالمزيد منها.. فامتزج بأحلامه من جديد.. وأخذ يحسب أرباحه المستقبلية في عدة أشهر

قادمة.. معتقداً أن بإمكانه الفوز بحبيبته بعدما يملك مهرها، لكن ما كان يخبئه القدر يفوق كل حساباته، وتوقعاته.. إذ خطبت فاطمة لتاجر ثري من «الفاقورة» وأعلن في القرية عن قرب زفافها.

لحظتئذ، انهارت فرحته واكتأبت بوجهه تغاريد الأمل. ولما تقابل وزياد عابساً محزوناً، نصحه بنسيانها وبالاجتهاد في عمله التجاري معه لكي يثرى، فيندم حينئذ أبوها على رفضه زوجاً لابنته، خاصة إذا ما تزوج بمن هي أفضل منها حسباً ونسباً.

حاول نايف أن يستوعب نصيحة صاحبه، وطالبه بأن يلتقيا كل أسبوع ومضاعفة كم البضائع، وفاجأه زياد باستحالة ذلك في الوقت الراهن على الأقل، لأنه فلسطيني من عرب ١٩٤٨ في إسرائيل.. وأنه يغامر مغامرة حمقاء بعبوره للحدود سعياً وراء الرزق.

بهت موزع البريد الذي لم يكن يعرف أن صديقه إسرائيلي، لكنه تدارك الأمر بعد قليل ولم يعره التفاتاً. فما بينهما مجرد تبادل مصالح فقط بعيداً عن السياسة.. فهو يجلب بضائع زهيدة الثمن من إسرائيل ليبيعها له بثمن أعلى في لبنان، ويتقاسمان الربح.. إنها تجارة بلا رأس مال تدر عائداً مجزياً. ما الضير في ذلك؟.

تعمد ألا يرتبك فيلحظ زياد ارتباكه، وبدا كأنا لأمر طبيعياً لا غبار عليه. ولكي لا يثير ظنونه.. أعاد نايف عرض رغبته في اللقاء كل أسبوع، وتعهد لزياد بألا يراهما أحد، حيث بمقدوره أن يرتب مكاناً آخر أكثر أمناً للقاء، بعيداً عن أعين الفدائيين المتربصين الذين يزرعون الجنوب.

ولما اعتذر زياد متحججاً بتشديد المراقبة الاسرائيلية على الشريط الحدودي.. بسبب العمليات الفدائية التي يقوم بها الإرهابيون المتسللون، يسب نايف الفلسطينيين الأوغاد الذين سيدمرون مشروع تجارته.

نريد كل التفاصيل ..

ذاق أخيراً طعم المال والثراء، وكان على استعداد لأن يحارب الدنيا كلها كي لا ينقطع

تدفق المال بين يديه. لذلك أصيب بتوتر شديد لما انقطعت لقاءاته بزياد ثلاث مرات متتاليات. لقد كان قد أوصاه ألا يتأخر أبداً عن الموعد المتفق عليه، حتى ولو لم يجئه، ومهما طالت مدة غيابه.. وهذه المرة انقضت ستة أسابيع ولم يجيء صديقه الإسرائيلي، وتساءل نايف في قلق:

ترى هل يجيء ثانية..؟

كان يحترق خوفاً من ألا يجيء.. ويزداد ضجره لأنه لا يعرف ما حدث بالضبط.. ووصل به ظنه إلى الفدائيين.. فهم بلا شك أهم أسباب حرمانه من فرصة التجارة المربحة.. ذلك أن عملياتهم الفدائية كانت أخبارها على الألسنة في كل مكان. بل إنه تمنى في داخله أن يرحلوا بعيداً عن أرض لبنان.

تعلق بصره باتجاه الحدود يحدوه الأمل في مجيئه، وأخفى دراجته بين الأعشاب، واستلقى بجانبها كما أمره زياد من قبل خوفاً من شكوك «الإرهابيين».. وعلى حين فجأة، تهللت أساريره من جديد عندما لاح الشبح قادماً، وبدا الوافد قلوقاً متعباً.

وفي سرد طويل، شرح لرفيقه معاناته في المرور ببضاعته، ومدى حرصه على ألا يتأخر، إلا أن العمليات الإرهابية كانت السبب في إعاقته.. وتكثيف نقاط المراقبة.. وسأله: كيف يتحركون في الجنوب؟ كيف يرصدون الحدود؟ أسئلة كثيرة في تلقائية أجاب عنها نايف بما يعرفه. ووصف لزياد أساليب معيشتهم وأماكن تواجدهم وتجمعاتهم، حتى الممرات ومدقات الجبال التي يسلكونها رسمها على الورق، بل إنه حدد كروكياً مواقع الحفر التي يتخذونها مراكز مراقبة طيلة النهار. ثم ينطلقون ليلاً في أواخر الأشهر العربية، مستغلين الظلام الدامس أو غبش الفجر في قص الأسلاك والتسلل إلى إسرائيل.

حدثه أيضاً عن كيفية استقطاب الأشبال وتجنيدهم، وتدريبهم عسكرياً على استخدام المدافع الرشاشة والقنابل في معسكرات مغلقة بالبقاع. وسأله زياد عن المصادر التي استقى منها معلوماته، فأجاب بأنه عرفها من خلال بعض شباب الجنوب الذين

انخرطوا في صفوفهم، تحت إغراء الحافز المالي وشعارات الجهاد.

أخرج زياد حافظة نقوده وسلمه ألف دولار.. وهو مبلغ خيالي في ذاك الوقت.. وقال له بأنه سينقل كل هذه المعلومات إلى الإسرائيليين كي يثقوا به، فيتركوه ليمر ببضاعته في أي وقت فتزيد أرباحهما معاً.

ولما سأله نايف:

ولماذا تمنحني هذا المبلغ الكبير؟

أجاب:

يا عزيزي، ما قلته لي يساوي أكثر.

قطب جبينه في دهشة أكثر وتساءل في سذاجة:

لست أفهم.

في لؤم شديد مغلف بالإغراء أجابه:

ما دفعته لك سأسترده.. إنهم في إسرائيل يشترون أقل معلومة بأعلى سعر.. فالمعلومة التافهة في اعتقادك قد تنقذ أرواحاً في إسرائيل.. ألا تحب إسرائيل؟

(!!!...)

ومتقمصاً دور العربي الوطني:

أنا عربي مثلك كنت أكره إسرائيل في صغري، الآن كبرت، وفهمت لماذا يكره العرب إسرائيل، هم مخطئون لأنهم ينقادون وراء حكامهم، والحكام مستبدون، طغاة، يُسيّرون شعوبهم تبعاً لمشيئتهم. أما في إسرائيل فالديموقراطية هي التي تحكم، الشعب يحكم نفسه، ويملك قراره ومصيره.

(!!!...)

وهو لا يزال ينفث سمومه.

في إسرائيل حرية لا يعرفها العرب. حرية في أن تعارض، تجادل، تعمل، تحب، تمارس حياتك كما أردت أنت. أنا مثلاً، أعمل موظفاً ببلدية «نهارية» قرب الحدود. اشتري بضائعي من «عكا» وأبيعها معك في لبنان، إنني أسعى لزيادة دخلي، والحرية عندنا لا تمنعني أن أعيش ميسوراً، ألا تريد أن تعيش ميسوراً؟

نعم.

إذن، فلنتعاون معاً على العمل بإخلاص.. وساعدني كي أجيئك بالسلع كل يوم وليس كل أسبوعين.

وماذا بيدي لأساعدك؟

بيدك الكثير لتكسب آلاف الليرات، وبسهولة. أنسيت فاطمة وإهانة أبوها عدنان؟

وقد بدأ نايف يستجيب لسمومه:

إني طوع أمرك، أريد مالاً كثيراً مقابل أي شيء تطلبه.

هؤلاء السفلة «يقصد الفدائيين» يُضيقون علينا، ويُعكرون «أمننا»، نريد منعهم.

كيف؟

سأجعلهم يخصصون لك راتباً شهرياً، ألفي ليرة.. عليك فقط أن تحصي عليهم أنفاسهم، وتعرف بتحركاتهم قبل أن يعبروا الحدود.. «نريد الخطط، والمواعيد، والأعداد، نريد كل التفاصيل»!!.

نايف في إسرائيل

حاصره زياد ضابط المخابرات الماكر، ولعب على أوتار فقره وأحلامه في الثراء. مستغلاً ضعف ثقافته وعروبته، وكبله بخيوط الخيانة دون أن يقاوم، وما غادر موضع اللقاء إلا وقد انضم لطابور الخونة العرب جاسوس جديد لإسرائيل.

وذات مرة.. انتهز عميل الموساد الفرصة.. ورسم صورة زاهية لحياة نايف.. إذا

تعاون معه بإخلاص دون أن يتعرض لمشاكل مع الفلسطينيين، ولكي يكون أكثر كفاءة ومهارة في عمله الجديد، كان له أن يخضع لتدريب فني متخصص، وهذا لن يتأتى له في الجبل.. حيث المخاطر من كل جانب.. وكان أن دعاه لاجتياز الحدود معه ليمكث بإسرائيل عدة أيام حيث سيسرهم هناك أن يروه.

لم يكن الأمر من البساطة بحيث يستوعبه نايف بسهولة.. إذ أن أعصابه ارتجفت بشدة وهو ينصت لزياد.. وغامت الرؤى في ناظريه رعباً عندما تخيل نفسه أحد رجال الموساد في الجنوب. كان الحدث بلا شك أكبر بكثير من حجم مداركه البسيطة وأحلامه الواسعة.. لكن جحيم معاناته النفسية كان كزلزال عاتٍ يخلخل جذوره، ويقتلع شعيرات مقاومته التي بدت هشة ضعيفة واهنة، أمام دفقات الخوف والأحلام معاً.

بفكر ضابط متخصص واعٍ.. كان زياد يتفرس صراعات فريسته، ويراقب عن كثب مراحل الترنح التي تسبق السقوط، وبانقضاض محموم أشل إرادته وسيطر على عقله.. فالمال له بريق ساحر كالذهب، يذيب العقول فلا تقوى على مقاومته.. وابن الجنوب كان ضحية الفقر والعجز والمعاناة.. لذلك فما أسهل احتواءه وتصيده بواسطة أصغر متدرب في أجهزة المخابرات.

لقد كانت طقوس سقوطه بسيطة جداً وسهلة.. إذ اشترط نايف لكي يتعاون معهم ألا يفضحوه يوماً ما.. ويعلنوا عن اسمه في سجل الخونة. وكان له شرط آخر يتعلق بالمال، وهو ألا يبخسوا عليه حقه. (!!).

أجيب إلى طلبه بالطبع، فقد أخذ شكل الحوار يتغير من حوارات تجارية، إلى مساومات وطلبات مكشوفة تتعلق بالتعاون مع الإسرائيليين. ووجدها نايف فرصة ثمينة لا تعوض في الحصول على المال، مقابل معلومات تافهة لا يعرفها الإسرائيليون، لكنهم كانوا في واقع الأمر يعيشون الرعب كل الرعب، بسبب تلك العمليات الناجحة في قلب مستوطناتهم الشمالية.

اقتنع نايف بأن أمنه الشخصي مرهون بمدى مهارته وحرفيته.. وآمن بأن التدريب

ضرورة ملحة للحفاظ على حياته.. لذلك لم يتوان عن الإسراع بطلب الحصول على إجازة من عمله، وانطلق بدراجته إلى نقطة حددت له في الجنوب، وبقي مختبئاً بين الأعشاب ينتظر ستائر الظلام، إلى أن لمحا الوميض المتقطع المتفق عليه، فرد بإشارات متقطعة أيضاً، وهو يتعجب من الارتجافة الهلوعة التي اجتاحت أعماقه.

مشى باتجاه الوميض البعيد يجاهد للتغلب على اضطرابه، لكن الليل الحالك وصفير الرياح ورهبة الصمت ضاعف من توتره، وكان رعبه الأكبر من هؤلاء الثعالب المختفين بين الحفر والأعشاب، ينتظرون إشارة الزحف باتجاه الحدود، حاملين رشاشاتهم وأرواحهم بين أيديهم.

فرق كبير بين خائن يسعى للثراء، وثعلب منهم زهد الحياة والمتع وجعل من دمه وعظامه ناراً تؤجج شعلة الجهاد.

وفي غبش الظلام فاجأه شبح ألقى بقلبه الرعب..وكادت أنفاسه أن تتوقف قلما يناديه:

اتبعني..

قاده الشبح المجهول إلى الأسلاك والعيون المرتقبة، وكان يتعثر من فيضانات الخوف المهلكة، الدافقة.. ومرت به لحظات ذاق طعم مرارتها بفمه، تمنى وقتها لو أنه عاد ثانية إلى بيته، بلا أحلام، أو مطامع، لحظتها فقط اجتاحه إحساس مقيت بالغثيان، لكن الوقت كان قد فات.. وما عادت أمنيات التراجع تجدي.

انطلقت به كالسهم السيارة العسكرية إلى حيث لا يدري.. كان يجلس بالخلف وسط أربعة جنود، نظراتهم الحادة المتفحصة كانت تخيفه وتربكه، إنهم بلا شك – وهم يتحدثون بالعبرية – يتندرون على ضيفهم الذي بلا انتماء، الذي جاء متسللاً لينزف عروبته ويبيع وطنه.. وزياد الجالس بجوار السائق لم يكن يكف عن الضحك..

يا للمفارقات العجيبة.. (!!).

كانت النقاط الأمنية منتشرة هنا وهناك طوال الطريق.. ورأى رجال الأمن يفتشون السيارات المارة، إلا سيارته. فقد كان زياد يومئ لهم فقط فيفسحون الطريق في الحال.

أهلاً بك في حيفا..

هكذا قابلته الفتاة الحسناء عندما فتحت باب المنزل، وتركه زياد معها ومضى دون أن يتكلم معه في شيء.

أسلاك الموت

وفي حجرة نومه بكى كطفل خائف في الثلاثين من عمره، وبقي ينتظر زياد لمدة أسبوع كامل، لكن زياد لم يجيء، ولم يهتم به، إنما تركه برفقة فريق من النفسانيين الذين انكبوا عليه يروضون أحلامه ويحللون أنسجة ضعفه وخذلانه. ثم تركوه لفريق آخر أخضعه لدورات مكثفة في فن التجسس، وكيفية تلقط الأخبار، والتمييز بين الأسلحة.. وأساليب التغلغل داخل التجمعات الفلسطينية في الجنوب واستكشاف نواياها.

يوماً بعد يوم.. وتحول الطفل الخائف الباكي إلى ملك يحظى بالاحترام الشديد، إذ انهم أغدقوا عليه هالات من التبجيل أذكت غروره، وطوف به في سيارة ذات ستائر ليرى إسرائيل، وليقارن بنفسه بين واحة الجمال والديموقراطية وجيرانها.. وأوحوا إليه بأساليب متعددة بأن أمنهم موكول إليه والى إخلاصه في التعاون معهم.. وأغرقوه في محيط لا نهائي من الثقة.

وعندما نجح بكفاءة في استعمال جهاز اللاسلكي في الإرسال، كافأوه بداعرة من بنات الموساد، قذف بنفسه منجرفاً في أتون لهيبها، وتذوق للمرة الأولى في حياته طعم امرأة، أجادت اللعب على أوتاره، ووعدته بأن تكون له دائماً خلال زياراته لإسرائيل.

وفي نوفمبر ١٩٧١، عندما رجع إلى لبنان بعد غياب ٢٥ يوماً، كانت فاطمة قد زفت إلى عريسها.. وارتحلت.. فحبس آهاته ولوعته.. إلا أن فجيعته كانت أكبر من تحمله.. وحاول جاهداً نسيانها فكانت مقاومته أضعف مما تكون.. وفي لحظة صدق مع نفسه

بكى.. بكى مرار وأسى.. وانصب فكره في كيفية الانتقام من أبيها.

لكن مع انخراطه في عمله الجديد تاهت رويداً رويداً رغبته في الانتقام.. وطمست مع الأيام معالمها..

كان قد أخبر أهله أنه كسب بعض المال خلال أجازته في بيروت.. وأنه سيتمكن من إعادة بناء المنزل ريثما يجد عروساً تناسبه. ولماعاد لعمله في البريد، تعجب لأمره وردد في نفسه:

«أبعد هذا الثراء أركب دراجتي القديمة من جديد؟ لا يهم».

كان قد بدأ ينظر إلى الأمور ببساطة، طالما سيتيح له ذلك سهولة التنقل في الجنوب قرب الحدود، يرصد تحركات فرق «الإرهابيين» ويلاطفهم ويرتبط معهم بصداقات، وعلاقات علموه في إسرائيل كيف ينشئها.

فهم دربوه على كيفية استدراجهم للأحاديث الوطنية، وإثارة حماسهم فيخرجون ما بداخلهم من أسرار، هذه الأسرار يجب أن يحفظها جيداً ويدونها، وفي البيت والكل نيام كان يخرج نوتة الشفرة السرية ويبث رسائله.

«تصادقت مع فلسطيني فدائي، دعاني لزيارته في مخيم عين الحلوة، المخيم به مركز عسكري للتدريب على استعمال السلاح والقنابل وصنع المتفجرات. كان به ثلاثون شاباً، يمنحونهم مكافآت ومواد غذائية وملبوسات، هم الآن يجهزون لعملية فدائية ضد مستعمرة «حانيتا»، سأخبركم بميعاد العملية».

هكذا كانت تتوالى رسائله إلى الموساد أولاً بأول. كان يبثها في موعد محدد في الليل لأيام متصلة إذا لزم الأمر. وفي الصباح يحمل حقيبة البريد أمامه مربوطة بالمقود، ويمر بدراجته بين القرى الحدودية، يتلقط الأخبار ويتلصص، ويراقب تحركات الفدائيين وأعدادهم وعددهم، مكثفاً من زياراته لمخيمات الفلسطينيين في الجنوب - «الرشيدية والبرج الشمالي في صور، وعين الحلوة في صيدا» - ولاحظ عن قرب مظاهر الحياة

المعيشية الصعبة بالمخيمات. وكيف يعيشون على الكفاف داخل صناديق من ورق وخشب، يعانون الزحام والبطالة والمرض، تحوطهم الأسوار والمأساة ورائحة الموت.

لم تهزه أحزان الطفولة اليتيمة على وجه مئات الأطفال، أو تثنيه عن قتل آباء آخرين..هكذا تحجرت مشاعره ومات بداخله الإنسان، فكل ما كان يسعى إليه هو الثراء، الثراء بأية وسيلة حتى ولو يبيع الوطن، والشرف «من ذا الذي يتجسس للأعداء ويعرف الشرف؟».

نبذته النخوة وسيطر عليه الشيطان فبصق على ذاته واستمر في طريقه:

«ثلاثة يستعدون للتسلل عبر المنطقة (..) التوقيت المقترح (...)».

«لنش مطاطي يبحر به أربعة من (...) الهدف - (...) - التوقيت (...)».

«قبضوا على صديقكم سعدون في قلعة الشقيف - لازال رهن التحقيق».

عشرات الرسائل بثها نايف المصطفى إلى الموساد، فأفشل العديد من عمليات الفدائيين سواء بالقبض عليهم، أو بقتلهم عند اجتياز الحدود.

استحق الإعدام

وفي إحدى زياراته لمدينة صيدا، في سبتمبر ١٩٧٢، تقابل في طريق البوليفار الذي يقع إلى البحر مباشرة، بفتاة فلسطينية عرجاء، تتسول. سألها عن أبيها فأجابته بأنه فقد بصره وإحدى يديه في انفجار عبوة كان يعدها، ولها شقيق تطوع في صفوف المقاومة اختفت أخباره.

راودها عن نفسها فرفضت وهمت بالانصراف. فعرض عليها مائة ليرة لتخبره بأسماء قادة الفدائيين في مخيمها «عين الحلوة». أحست ابنة الرابعة عشرة بأنها تحادث أحد الخونة، وكانت لحظه السيء تملك رغم صغرها حساً أمنياً عالياً، أورثتها إياه كوارث زلزلت حياتها منذ وعت.

تلفتت الفتاة يمنة ويسرة ولما اقتربت إحدى السيارات العسكرية، صرخت بكل

عزمها: جاسوس، جاسوس.

انطلق نايف كالسهم هرباً وقد ولت جرأته.. واختبأ لثلاث ساعات بين أنقاض مسرح قديم مهدم. خرج بعدها في هدوء وكأن شيئاً لم يكن. وفي المنطقة الواقعة بين شركة الداتسون والتيرو بطريق صيدا القديم، انقض عليه عدة رجال وكبلوه، وعندما دفعوا به إلى العربة الجيب كانت الفتاة تجلس مزهوة فرحة.

أخذوه إلى معسكر فلسطيني بطريق «دير قانون البحر» وبين طيات ملابسه عثروا على رسوم كروكية لمواقع فلسطينية في مثلث الراهبات، وشارع رياض الصلح، ولأهم المفارق الحيوية بصيدا.

وبالتحقيق معه حاول قدر استطاعته أن يناور.. ويتغابى، لكنه انهار في النهاية واعترف بعمالته للموساد، وأرشد عن الجهاز اللاسلكي الذي عثروا عليه بقاع سحري بدولاب ملابسه. عثروا أيضاً على أربعة آلاف دولار، وستة عشر ألف ليرة لبنانية ثمن خيانته وتجسسه لمدة عام.

وبنفسه كتب اعترافاً كاملاً بظروف حياته، ومعاناته النفيسة التي أثرت على وعيه، وخطوات تجنيده بداية من زياد، ثم زيارته لإسرائيل، حيث سيطروا عليه هناك بالمال والجنس، وصوروه بإرادته في احط الأوضاع وأقذرها مع إسرائيليات، بدعوى أنهم مضطرون لتصويره لضمان إخلاصه لهم، ولكي يحافظ على جهاز اللاسلكي الذي يفوق ثمنه مائة ألف دولار.

في اعترافاته قال أيضاً أنهم وعدوه بثلاثين ألف دولار، مقابل تجنيد ضابط فلسطيني في صفوف المقاومة، وشمل اعترافه قائمة طويلة بأسعار المعلومات المطلوبة، وجملة ما يخصه من أموال ورواتب متأخرة لدى الموساد.

سلمه الفلسطينيون للسلطات اللبنانية لمحاكمته (ليس لهم الحق في محاكمة لبناني أو أجنبي خائن، ولو كان يتجسس عليهم، فهم يحاكمون فقط مواطنيهم المتهمين بالخيانة. وغالباً ما يتم إعدامهم رمياً بالرصاص).

ومثل الخائن أمام المحكمة العليا ببيروت، وفي فبراير ١٩٧٣ أدين بالحبس مدة سبع سنوات.

وبعد ثمانية أيام في السجن عقد له رملاؤه المسجونون محكمة أخرى، أعضاؤها الخمسة من القتلة واللصوص، وحكموا عليه إجماعاً بالإعدام شنقاً.

كان يظن طوال الوقت بأن الأمر مجرد هزل مساجين، لكنهم انقضوا عليه وشنقوه بالفعل بواسطة حبل جدلوه من ملابسهم، وكان ذلك عشية احتفاله بعيد ميلاده الثلاثين، واعترفوا بلا أدنى مواربة بأنهم اقتصوا منه وحاكموه بالعدل، وبقانون العروبة والوطن، لا بقوانين لبنان.

ألم نقل من قبل أن لبنان بلد العجائب، وأنه البلد العربي الوحيد الذي لا يعدم فيه الجواسيس بنص القانون؟!!

* * *

هل علينا تبرئة الجواسيس؟

ثمة ظواهر محيرة تجتاح الفكر والسياسة في وطننا العربي، ولا أدري إن كانت تمثل هروبا إلى الأمام، وهذه شيمة الخطاب العربي المعاصر، أم أنها رد فعل ينتمي بكليته إلى سيكولوجية الإنسان المقهور الذي يقتدي بقاهريه ويرى فيهم مثلا أعلى. وتتمثل هذه الظواهر بعدة مظاهر، في قبول الاحتلال على أنه تحرير، وفي قبول التعاون مع العدو الخارجي، بحيث يصبح الأعداء زعماء جداً بحجة أن لا مخرج من استبداد الداخل إلا بالهروب إلى أحضان الخارج، وهنا نعثر على مادة خطابية غزيرة مع مطلع الألفية الجديدة واحتلال بغداد، والأهم هو القبول بالاستعمار باعتباره الحقيقة الوحيدة في تاريخنا، لا بل إن هناك ميلا عند بعض المثقفين العرب الليبراليين أو أولئك الذين تعلموا الليبرالية في خمسة أيام، على طريقة كيف تتعلم الانجليزية في خمسة أيام، إلى شطب تاريخ الدولة العربية الوطنية وإنجازاتها في مجال البنيتين الفوقية والتحتية.

فتاريخ العراق في بعض الدراسات الجديدة، هو تاريخ احتلالين وحقيقتين، وما بينهما لا يزيد عن أن يكون باطلاً استبدادياً، لا بل إن بعض المتحمسين للاحتلال راحوا يقارنون في ندوة عربية كبرى عن الحداثة، بين الفتح العربي والفتح الأمريكي، رافضين كل تنديد بالاحتلال، وذلك من منظور يرى أن التاريخ العربي ما كان له أن يتحرك إلا تحت الاحتلال وما عداه جمود بجمود، وهذا ما يفسر كثرة الحديث عن قابلية الاستعمار باعتباره الحقيقة الوحيدة في تاريخنا، كما يرى بعض المثقفين العرب الذين يكثرون هذه الأيام من الحديث عن الاحتلال العربي لأرض العراق.

هذه الظواهر كما أسلفت التي تبرر احتلال الأمة واستركاعها وإهانتها، والتي تمثل ضربا من الهروب إلى الامام، جاءت لتؤتي أكلها، بصورة أدق، لتصبح متعدية لمفعولين، تبرير الاحتلال من جهة وتزكية رموزه وجواسيسه من جهة أخرى.

وكان آخر حديث مع كوهين قبل لحظات الإعدام بقليل، بأنني آسف وخجلان

ونادم على هذه المهمة القذرة التي قمت بها، فأنا لست من هذا الوسط ولم أمارس لا السياسة ولا التعامل مع أجهزة الأمن والمخابرات»، ويضيف: وقال لي: إن ما سأقوله لك هو شيء غريب فعلا ولا يمكن أن تصدقه، وهو حديث لن ينجني من الإعدام على أية حال وأنا سأموت بعد قليل. لكن أرجو أن تثق بأنني أمضيت في سوريا قرابة أربعة أعوام واحتككت بشعبها وتعرفت إلى العديد من أبنائها، مسلمين ومسيحيين، وأحبوني وأحببتهم وهي تجربة عاطفية إنسانية لم تمر معي في وسطي اليهودي، وبصرف النظر عن مهمتي كجاسوس فقد كنت أنوي بعد انتهاء مهمتي وعودتي ل«إسرائيل» أن أغادرها أنا وزوجتي وأولادي إلى أوروبا، وأعقد مؤتمرا صحافيا أكشف فيه أنني أنا فلان عملت جاسوسا «لإسرائيل» في سوريا تحت اسم عربي هو كامل أمين ثابت، وأروي كل القصة في سوريا ثم أعلن أنني نادم وأحببت شعب سوريا وأطلب اللجوء السياسي فيها».

يا لندم الجواسيس الذي يقنعنا وما أسرعنا بالقناعة بأنهم مساكين يموتون حبا بنا، وقد نفيق يوما لنجد أن شارون الذي يقضي أيامه الأخيرة في المستشفى مسكين أيضا، وما علينا نحن العرب إلا طلب الغفران لهؤلاء المساكين، الذين يودون العيش بيننا؟ فمن شيمنا العصرية أن نقبل ونقبّل أعداءنا والأهم أن نعطي خدنا الأيمن «للإسرائيلي» الذي ما ملّ من صفعنا على خدنا الأيسر. إنها شهادة متأخرة تقدر عالياً في زمن الاحتلال للأرض العربية، وما أكثر الشهادات التي ستأتي لاحقا.

***

المراجـــع

١ - حنان أخميس، علم المخابرات الجاسوسية، ٢٠٠٤

٢- وليد أبو سنة، سيكولوجية الشائعات (شائعة التطبيع مع إسرائيل نموذجًا) ٢٠٠٧.

٣- محمد أحمد النابلسي، سيكولوجية الشائعات الأمريكية، ٢٠٠٤

* * *

الفهرس

***

رسالة من دار الإبداع للصحافة والنشر إلى الشعب المصرى

مبارك .. ملحمة فى حب مصر





إن تكلمنا عن مبارك و إنجازاته
فى شتى المجالات فلن نستطيع أن نوفيه حقه .

مبارك .. ملء العين والبصر والفؤاد

ديمقراطية
حرية
كرامة

عبر بنا من اليأس إلى الأمل و من الهزيمة إلى النصر
فتحية إعزاز وتقدير إلى نسر الضربة الجوية
الذى أعاد لمصر عزتها وكرامتها وحريتها
إن مصر تنادى جميع طوائف الشعب أن تلتف حول
وعلينا جميعاً أن نلبى النداء



د / هدى الكومى

رئيس مجلس الإدارة ‎ ‎ محررة عسكرية بالإعلام العسكرى ‎ ‎ عضو إتحاد الناشرين